Columbia University
in the City of New York

THE LIBRARIES

ألوان من القصة القصيرة

٨ قروش

قصة اليوم

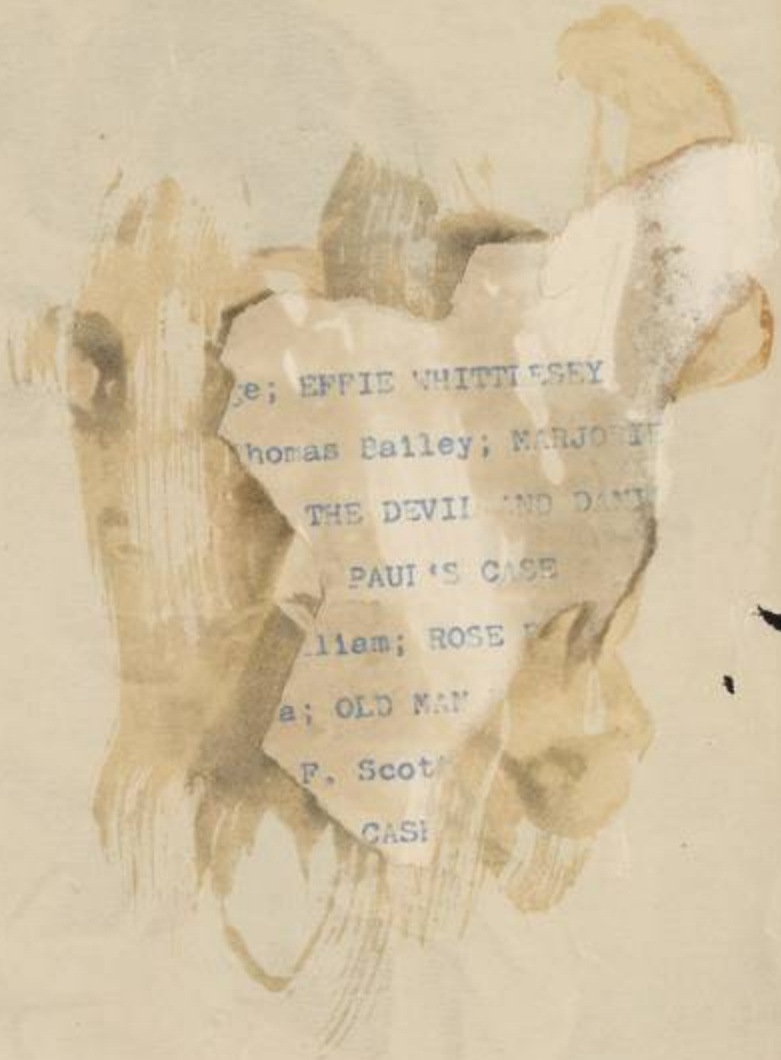

ge; EFFIE WHITTLESEY

homas Bailey; MARJO

THE DEVIL AND DAN

PAUL'S CASE

lliam; ROSE

a; OLD MAN

F. Scot

CAS

ألوان من القصة القصيرة

في

الأدب الأميركي

نقد ونماذج مترجمة من أدب القصة

للكاتب الكبير

عباس محمود العقاد

893.185
Aq 26

نشر بالاشتراك
مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بالقاهرة ونيويورك
هذه الترجمة مرخص بها
وقد قامت مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر
بشراء حقوق الترجمة من أصحاب هذه الحقوق
ونزلت عنها لدار « أخبار اليوم »

نشرت فى هذه المجموعة القصص التالية :

IRVING (Washington) : Rip Van Winkle
POE (Edgard Allan) : The Purloined Letter
The Cask of Amontillado
TWAIN (Mark) : The Celebrated Jumping Frog

ونشكر أصحاب الحقوق فى القصص التالية :

ALDRICH (Thomas) : Marjorie Daw
ADE (George) : Effie Whittlesey
CATHER (Willa) : Paul's Case.
FERBER EDNA : Old Man Minick
BENET (Stephen V.) : The Devil and Daniel Webster.
FITZGERALD (Francis Scott) : Babylon revisited
FAULKNER (William) : Rose for Emily.
STEINBECK (William) : Leader of the People.

Publisher's Gift
NOV 3 1955

الادب الامريكى

كلام المؤرخين عن **طبائع الامم** قديم ، ومثله فى القدم كلامهم عن العلاقة بين طبائعها وآثارها الادبية والثقافية ، وقد كثر الكلام فى هذه العلاقة ، بعد ظهور المباحث النفسية ، واستفاضة النظر فى علم النفس الاجتماعى واطوار الجماعات على التعميم ، وقد يكثر الخطأ كلما كثر الكلام فى هذا الصدد ، ولا مقياس لتحقيق الخطأ والصواب كالمقياس الذى نحقق به صحة المسائل الحسابية او صحة الفروض الرياضية . ولكن غيبة المقياس لاتقضى ببطلان البحث ولا بالعدول عنه ، فهو مسلك مطروق غير موصد ، ولن يوصده اليوم ولا فى الغد كثرة الخلاف عليه .

والنقاد يذهبون تارة من فهم طبائع الامم الى فهم آدابها وثقافتها ، ويذهبون تارة اخرى من فهم آدابها وثقافتها الى فهم طبائعها ، ويطيلون من اجل ذلك فى بحث عناصر الاجناس ، أو بحث الامزجة القومية ، على ضوء العقائد الموروثة ، وعلى ضوء المقررات العلمية الحديثة . ومهما يكن من توفيقهم فى ذلك أواخفاقهم فيه ، فهم متفقون على صعوبة التطبيق حيث تتعدد العناصر وتمتزج فى البيئة الواحدة . واصعب ما يكون ذلك تطبيقا فى بيئة **كالولايات المتحدة** ، تنتمى الى عناصر شتى من السكسون واللاتين وأمم الشمال وامم الجنوب ، ويذكر فيها الذاكرون بين اجدادهم أناسا من الانجليز والسكندنافيين والهولنديين والاسبان والفرنسيين والايطاليين . فلو كانت هذه الاصول انهارا وجداول تجرى على انفراد ، ثم تمتزج فى الطريق ثم تخلص من الملتقى الى ملتقى آخر ، تطرد عليه امدا ، وتنحرف عنه أمدا آخر ، لكان من العسير تخليص امواهها ،

وتحليل مقاديرها ، ونسبة الامتزاج والانفصال بين أجزائها ، فكيف بعناصر الفكر والشعور وهي قد تخفى على صاحبها في الوقت الواحد وتخفى عليه من باب اولى فى معظم الاوقات .. ؟

أقرب من البحث فى العناصر وامتزاجها ـ على مانعتقد ـ ان نبحث فى البواعث التى اشتركت فيها **الافواج المهاجرة** الى القارة الامريكية ، فهى بواعث محدودة معروفة ، وآثارها ليست من الخفاء واللبس بحيث تختلط فيها الآراء ، كما تختلط فى امتزاج الطبائع والاقوام .

كانت بواعث **الهجرة الاولى** تنحصر ، او تكاد فى التماس النجاة من الضغط على الحرية الدينية ، والتماس البيئة التى يتسع فيها الميدان لاقامة « **الطوبى** » الروحانية على مشيئة المهاجرين . وكان طلاب النجاة فريقين من **المتطهرين** وممن يسمونهم **بالحجاج** ، والاولون متدينون محافظون متشددون ، والآخرون متدينون محافظون يتصرفون فى شئون التقاليد بالرأى والتجديد .

واقترنت هذه الهجرة الدينية بهجرة دنيوية يقودها الطموح وبعد الهمة والاعتداد بالنفس والجراة على اقتحام المورد المجهول ، ولم تكن الهجرة الدينية خلوا من عامل الطموح وبعد الهمة ، فمن كان ضعيف السعى ، هيابة للمجهول ، لايلتمس النجاة بعقيدته ولا المغامرة فى سبيل دنياه .

ولما وجد **المهاجرون الاولون** انفسهم فى المجاهل الامريكية ، كان موقفهم من سكانها الاصلاء موقف من يؤمن انه يستخلص لله ارضا فى حوزة الشيطان ، فكان شعور الجهاد للسماء مقترنا بشعور الجهاد للارض ، وكان السعى عندهم فى طلب الرزق كالغزوة فى طلب النجاة من الشيطان والغلبة عليه .

ان المهاجرين الذين حفزتهم هذه البواعث يتشابهون على اختلاف العناصر والاقوام ، وربما كان الهولندى الذى يحرص على ايمانه ، وتستنهضه همته الى ترك الديار والتغرب فى مجاهل الارض ، اقرب الى الانجليزى او السويدى او الاسبانى الذى يشبهه فى بواعث نفسه ، من ابناء الوطن الواحد الذين لاتشابه

بينهم فى الغيرة على ذخائر الروح ، او الغيرة على ذخائر الارض والحطام . فهذه اخلاق متمكنة فى الطبائع تتوارثها الاجيال ، ويتشابه فيها الابناء والآباء ،ولايصعب على المؤرخ أن يتتبع فعلها فى تكوين المجتمع وحوادث التاريخ .

ومن ثم غلبت على **المجتمع الامريكى** خصلتان ظاهرتان : احداهما سيادة السنة العامة فى شئون العقائد والاخلاق ، والاخرى خصلة التجربة العملية والاعتداد بالذات فى شق طريق الحياة ومواجهة المجهول .

خصلتان قد تتوافقان احسن وفاق ، وقد تتنازعان اشد نزاع ، فتجرى رعاية السنة العامة مع الاعتداد بالذات فى اتجاه واحد ، او يختلف الاتجاه مع تجارب الواقع ، فذلك هو الصراع العنيف ، ونحسبه محور الصراع الاكبر فى مشكلات الادب ومعضلات النفس البشرية ، بين النجاح العملى الواقعى ، ورعاية المبادىء والاصول كما تتمثل فى الآداب الامريكية الحديثة ، قصة كانت ، او مسرحية ، او مذهبا من مذاهب الفلسفة ، او رايا من آراء السلوك والاخلاق .

ولانذكر «**البرجية**: **Pragmatism**» ودلالتها ، فهى أبرز من أن تحتاج الى ابراز ، ولكننا ندع القراء يذكرون ما يشاءون من القصص الكبار أو الصغار ، فلن يعدموا فى واحدة منها مشكلة تنجم من الاعتداد بالذات والمغامرة فى مواجهة المجهول كائنا ما كان هذا المجهول . وعامنا **مجموعة** من القصص نرى فيها المراهن على الغيب ، والشيخ المنفرد بمسكنه بعد السبعين ، والمريض الذى يقلقه العلاج الطويل ، فيعشق على السماع ، ويهجم على بلد المعشوقة التى لم يرها قط ، ولم يكن لها وجود ، والخابط فى الارض على غير قصد ، حتى يلتقى على رؤوس الجبال بارواح الحراس من الرواد الاقدمين ، والمؤمن الساذج الذى تنهار حياته حتى يدعمها فى مجاهل افريقية بايمان جديد ، والخطيب الذى يناضل الشيطان بالحصافة الدنيوية كما يناضله بالعقيدة القوية ، والفتى الذى يركب راسه شوقا الى التجربة الحسية ، فيهجم من متعة الحياة الى الموت ، والاب الذى يلهو فترده

تجارب اللهو بهدى العاطفة الابوية الى الرصانة والاعتدال . . .
وهكذا كل « شخصية » فى كل قصة تختارها جزافا اوتختارها بقصد وتمييز ، فلن تعدم فيهاجميعا عنصر التجربة الذاتية او الصراع بين المبدا والواقع او الاقدام على المجهول ، ولن يشق عليك أن ترجع الى أصول ذلك قبل جيلين أو بضعة أجيال ، من طريق اوجز واوثق من تلك الطرق التى تتعقب العناصر وطبائع الاقوام .

***

قرأت فى كتاب « الفكرة الادبية فى أمريكا »
Literary Opinion in America

فصلا للكاتب الناقد چيمس جبون هنكر Hunker يقول فيه أثناء الكلام على الرواية الامريكية الكبيرة ، « أما آداب التطهر فى روايتنا الحاضرة فمما يجترىء المرء على أن يجبه المتدين الناشىء قائلا له انها ليس لها وجود » .

وبعد صفحتين اثنتين يقول الكاتب نفسه أن الروايات تفيض بالعظات الملتهبة ، للاقناع بهذا المذهب او ذاك ، من مذاهب السياسة او الاخلاق ..

وقد كان خليقا بالكاتب الناقد ان يفطن للتناقض الواضح بين موت « التطهر » والولع بالوعظ ، والاقناع باية دعوة من الدعوات . فانهما فى الباطن من معدن واحد ، وان جنحت الدعوة الى التمرد على العرف والسنن المرعية ، فليست الحماسة هنا الا من مادة الحماسة للمعتقد كيفما كان .

ويكاد يجمع النقاد المحدثون على ان صيغة التجربة Experience اغلب الصيغات على الادب الامريكى المعاصر ، وهم على صواب فى هذا الاجماع ، فان محاولات التجربة نفسها تدل على الحصلتين فى وقت واحد : تدل على الاعتداد بالذات ، وعلى قوة العرف والتقليد ، ولامعنى لتغليب التجربة ان لم تكن هنالك مغالبة اومحاولة للتوفيق بين ما يكشفه الانسان لنفسه ومايفرضه العرف عليه .

وتكاد هذه الصبغة تكون ملازمة للمصنفات الامريكية من

اقدم عهودها ، قبل الاستقلال وبعد الاستقلال ، وانما كانت صبغة الدينيات اعم واشيع فى القرن السابع عشر ، ثم عمت وشاعت بعده صبغة السياسيات فى دور النزاع بين سكان البلاد وحكامها ، ثم ظهرت الثقافة الادبية ـ اول ظهورها ـ مستقلة مصطبغة بزمانها ومكانها ودواعيها .. ولم تكن مهملة قبل عهد الاستقلال الا لانها كانت مهملة فى الحياة العامة ، ولم تكن هى التى تمثل الاخلاق والمقاصد والطباع .

وتنقسم **عهود الادب الامريكى** بفواصل من الزمن مرسومة متفق عليها بين مؤرخى الآداب . فهناك فاصل الثورة على الحاكم المستعمر ، وفاصل الحرب الاهلية ، وفاصل الخروج من العزلة بعد الحرب العالمية الاولى ، وكلها فواصل بينة صحيحة ، تؤرخ الانتقال من عهد الى عهد ، ومن اتجاه الى اتجاه ، ولكننا نود ان نقرن بها فاصلا يذكر احيانا ولا يعطى حقه من الشأن والاثر ، وهو معادل فى اعتقادنا لفواصل الثورات والحروب . ذلك الفاصل هو **عهد الصور المتحركة** ، ويلحق به فاصل **الاذاعة** . فان اثر الصور المتحركة لعظيم فى اختيار الموضوع ، عظيم فى تنويع الاسلوب ، عظيم فى تنسيق القصة والحوار .. وسيرى القراء فى القصص التالية هذا الفارق بينا ، لاخفاء به ، فيما كتب منذ شيوع الصور الناطقة على اللوحة البيضاء ، فان الكاتب ليشغل قلمه فيها كما يشغل انتباهه بعوارض حسية لا دخل لها فى لباب الموضوع ، لولا انه يكتب ويحسب حساب المخرج الذى يتولى كتابة « **الوصفة المنظرية** » أو السنار . فما دخل النمل ، وقياس المرتفعات ، وألوان الاشجار ، والمسافات بينها ، وأطوالها أو غزارة أوراقها ونزارتها ، فى قصة **شتينبك** عن الشيخ الهرم زعيم الهجرة ، ورحلات التغريب .. ؟

ان هذا واشباهه مما ادخلته الصور المتحركة على أسلوب الكتابة ، وقد أثبتنا بعضه على سبيل المثال ، وتعمدنا أن نضع هذه القصص بعضها الى جانب بعض كما تتفق ، بغير

تمييز مقصود ، لاننا نعتقد أن الدلالة على هذا النحو اصدق من دلالة التمييز والانتقاء .

أما طريقتنا فى الترجمة ، فهى مراعاة الاصل غاية المراعاة ، مالم يكن حشوا لا محل له من لباب المعنى ومن الوجهة الفنية، ففى هذه الحالة نكتفى بالمفيد ،ولا نلتزم الحشو ، وهو لايزيد فى الكتاب كله على بضعة سطور...وقد أردنا ترجمة صادقة فى نقل العبارة بمعانيها وظلالها ، ولم نرد نسخا كنسخ الوراقين CoPyism من لغة الى أخرى ، فمن سمى ذلك نسخا او مسخا، فقد أصاب التسمية !! ونرجو أن تكون دقة الاداء وتلخيص التراجم وشواهد التمثيل على المختار من كل أديب ، صورة صادقة لتطور **القصة الصغيرة** فى الآداب الامريكية منذ وجدت على عهد « **ارفنج** » الى هذه الايام .

عباس محمود العقاد

القصة الصغيرة

ان الكتابة القصصية انواع كثيرة فى العصر الحاضر ، منها **الرواية** وهى التى تقابل كلمة نوفيل Novel فى اللغات الاجنبية ، ومنها **الرواية الصغيرة** ، وهى التى تقابل كلمة نوفليت Novelette ومنها **القصة أو الحكاية** وهى التى تقابل كلمة « استورى » story ، ومنها **الحكاية القصيرة** أو النادرة وهى التى تقابل كلمة « شورت استورى » وترجمتها الحرفية على حسب أصل الكلمة : تاريخ قصير .

ومن البديهى ان الفوارق بين هذه الانواع لا ترجع الى الطول والقصر ، ولا الى الاسهاب والايجاز ، ولا الى العناية بالاسلوب الادبى وقلة العناية بذلك الاسلوب ، ولا الى خطر الموضوع او تفاهته . فكل اولئك صفات قد تتشابه فيها جميع هذه الانواع ، فتكبر الحكاية المطولة حتى تلتقى بالقصة الصغيرة فى عدد الكلمات ، أو تتناول الحكاية موضوعا من أجل الموضوعات ، ولا تتناول القصة الكبيرة الا موضوعا هينا من مسائل المجتمع او مسائل الاحوال النفسية .

انما يرجع الاختلاف بينها الى فارق اصيل من باب التغليب والترجيح ، على الاقل ، ان لم يكن من باب الحسم والشمول . ولم نعرف تفرقة بينها اصح واصدق من التفرقة التى اجملتها الكاتبة « **اديث هوارتون** » حين قالت : « ان الموقف هو الموضوع الغالب على القصة الصغيرة ، وان رسم الشخصية هو الموضوع الغالب على الرواية .. »

ويمكن ان نضيف الى الموقف موضوعا آخر يصلح للقصة الصغيرة أو الحكاية ، وهو **الايحاء** ولفت النظر ، أو هو ما يقابل ـ حرفيا ـ كلمة « **الاقتراح** Suggestion »

ولابد أن نحسب حساب الاصطلاح والتخصيص فى هذه التفرقة الاخيرة ، فانها لم تكن كذلك منذ نشات الحكاية او القصة الصغيرة فى القدم ، وكثيرا ماكانت هذه الموضوعات تتلاقى وتتشابه ولا يلحظ بينها فاصل حاسم غير الطول والسعة ، ولكنها تفرقة لم تزل تلتزم شيئا فشيئا مع تقدم الفن وجنوح الكتابة الحديثة الى التخصيص وتوزيع الاغراض والمناسبات .

فالقصة الصغيرة ، او الحكاية ، لا تتسع لرسم شخصية كاملة او عدة شخصيات كاملة من جميع جوانبها ، ولا تتسع كذلك للحوادث الكثيرة ولا للحادثة الواحدة التى لا تتم الا مع التشعب والاستيفاء والاحاطة بأحوال جلة من الناس فى مختلف المواقف والاحوال ، ولكنها قد تعطينا لونا من الوان الشخصية كما تتمثل فى موقف من المواقف ، فنفهمها بالايحاء والاستنتاج ، وقد تعرض لنا موضعا نفسيا أو موضعا اجتماعيا ، ينفرد بنظرة عابرة ويؤخذ على حدة ، فيدل كما تقدم دلالة الموقف والايحاء .

من هنا كانت **القصة الصغيرة** لونا من الكتابة مناسبا كل المناسبة للأدب الامريكى ، منذ استقل هذا الادب بأقلامه وموضوعاته وعرف له رسالة قائمة بذاتها غير المحاكاة والتقليد .

فالمواقف اكثر ما تكون فى بلاد الاقاليم والاجناس ، وبلاد التاريخ المذكور الذى تلتقى فيه الوقائع الحاضرة بالذكريات القريبة ، وتصطبغ فيه هذه الذكريات بصبغة الخبر تارة وصبغة الاسطورة تارة أخرى ، على حسب النظرة اليها ، وعلى حسب « الزاوية » التى ينظر منها المقيم فى هذا الاقليم أو ذلك الاقليم .

وليست الاقاليم هنا حدودا جغرافية تختلف بالمواقع والابعاد وكفى ، ولكنها ثروة زاخرة بتعدد الاجناس والامزجة والمصالح والاعمال . وقد قيل مثلا انك فى الجنوب لاتستطيع أن ترمى بحجر دون أن تصيب **شاعرا** ... فكان هذا فارقا من فوارق الاقاليم فى مزاج التخيل والشعور ، ولكنه فارق يرتبط فى الواقع

بالتاريخ وشواغل الحياة ، كما يرتبط بالموقع واصول النازلين فيه .

ومن مادة الفكاهة الخالدة التى تصلح لمواقف القصص الصغيرة ، حياة الريف وعادات أهله ، وحرب النكات بين الاجناس والاقوام ، وكلها مادةلاتنفد فى مصنفات **أمراء الفكاهة** المعروفين ، وكلها يتسع لها المجال فى الاقاليم الامريكية التى تمتزج فيها الاجناس والاقوام ، ويكثر فيها التنادر بطرائف الامم وغرائب الاطواروالتقاليد فى مجتمع واحد ، ويعيش فيها الريفى بعاداته وماثوراته ، الى جانب الطوارىء والبدع المتجددة فى الحواضر والعواصم ، فلا ينضب معين الفكاهة او الملاحظة السريعة التى تتمثل فى المواقف الخفيفة وتدور عليها القصة الصغيرة فى باب النقد الاجتماعى وما اليه ، ثم تأتى **الصحافة المحلية** فتعتمد على النادرة التى تبدأ وتنتهى فى نشرة واحدة ، وتضمن المددمن هذه النوادر اذا فاتها الخبر الواقع المتجدد فى جميع النشرات ، وتأتى بعد ذلك شرائط **الصور المتحركة** ومسارح الاقاليم الجوالة فتضع المواقف فى موضعها المحسوس من التصوير والتمثيل ، وتستطيع أن تخلق من القصة الصغيرة مناظر تشغل النظر ساعة او ساعات، حيث ينتهى القارىء من مطالعةالقصة الصغيرة فى دقائق معدودات .

هذه كلها مادة للقصة الصغيرة تتوافر للادب الامريكى اويزداد نصيبه منها على نصيب الآداب فى الامم الاخرى ، فلا جرم كانت هذه القصة لونا من الوان الادب الامريكى يكاد يغلب عليه ، وكانت نماذجه منهاقدوة يقتدى بها الكتاب كأنها مصدر « **الازياء الفنية** » فى هذا الباب!!

وقد اتفق فى وقت واحد أن هذه القصة تخصصت بالموقف والايحاء ، وأن الفن كله يتجه الى تمثيل الحالات وعرض الصور وينفر قليلا قليلا من تعمد التسلية ، بمجرد سرد الحوادث ، وتعليق الانفاس بالمفاجآت ومثيرات الشعور ، فربما انف الكاتب فى العصر الحديث ان يقال عنه انه يكتب للتسلية والتشويق ،

ويختلق العظائم والقوارع لتنبيه القارىء والاستيلاء على شعوره وخياله ، فحسبه انه يدير نظر القارىء الى موقف نفسانى او موقف اجتماعى ، ليكون قد أبلغ وادى ما عليه ، وحسبه ان يوحى الى القارىء بما يتخيله ويرتب عليه أفكاره ، مستقلا بالتخيل والتفكير ، ليكون كاتبه واديبه وشريكه او مشركه معه فى المشاهدة والملاحظة ، وبهذا تتفق قصة الموقف ورسالة الفن العصرى من اوجهة العامة ، فيصبح تصوير الموقف غرضا شاملا يغنى عن اعتساف الحوادث والبحث عن « غير المعتاد » للتنبيه والاستيلاء على الشعور .. ولاشك أن التحول من بطولات الامراء والنبلاء والثروات قد كان له دخل كبير فى هذه الخصلة الفنية التى جاء بها العصر الحديث ، فلا ضرورة «لغير المعتاد» فى تصوير الابطال والحوادث اذا كان العرف قانعا بتصوير كل انسان وكل موقف غير مقصور على الانسان الخاص أو على الحادث الخاص ، متسعا شاملا بالتعميم على سنة العصر فى جميع الامور .

وسيرى القراء فى مجموعة القصص التالية مذاهب المؤلفين فى اختيار المواقف خلال القرن الاخير ، فقد كان الموقف وحده لا يكفى لكتابة القصة قبل سبعين او ثمانين سنة ، بل كان من الواجب أن يكون الموقف رائعا أو كافيا لاستغراق الحواس وغمر النفوس بالعاطفة ، فلم يزل هذا الموقف يتطور مع الزمن حتى أصبح « الموقف » جديرا بالتسجيل كلما كان فيه موضع للملاحظة القريبة ، أو للمقارنة العاجلة ، أو للتأمل الذى ينبعث فيه القارىء مع نوازعه واهوائه ، غير متقيد بالكاتب فى نزعته أو هواه .

فى العصر الحاضر اصبح الكتاب من طراز **فولكنر** أو **همنجواى** أو **شتينبك** يكتبون القصة لموقف واحد لاينتهى الى قارعة ، ولايتبعه الكاتب أو القارىء الى نتيجة مقصودة ، فمن مواقف أقاصيصهم موقف رجل يدخل الى بيته فتنبئه زوجته انها عثرت بخادمة موافقة ، فاذا بالخادمة «لا توافق» لان الرجل يعلم بعد أن يراها أنها كانت زميلته فى الدراسة ، ولا تزال هى وهو يتناديان بالاسماء دون الالقاب . ومن مواقفها موقف

مصارع يأمر به منافسوه ليقتلوه ، فيتلقى الخبر ولايتبعه بعمل، لان حكم الموقف يأبى عليه الهرب كما يأبى عليه ابلاغ ولاة الامور .. ومن مواقفها موقف شيخ من الجيل الماضى يسأم السامعين المحدثين بأخبار الطواف الى الغرب ، ثم التمادى فى الطواف ، فلا يطيق المحدثون سماع هذه «الاعاجيب» التى كانت فى يوم من الايام تهز المشاعر وتكفى وحدها للتغريب ثم التغريب من غير قصد الى مكان معلوم ، وانما هو كشف آخر من جانب البر بعد الكشوف الاولى من جوانب البحار ، ولا محل له من السمر او الكلام بعد ان كشف المحدثون كل بقعة من بقاع الغرب ، ونسوا انه كان غيبا مجهولا قبل جيل .

هذه القصص تختار لهذه الدلالة ، وتفيد فى اختيارها الى جانب القصص التى سبق اليها المؤلفون قبل جيل واحد ، فهى القصة الصغيرة فى معرض الاجيال على حسب اختلاف المواقف والاحوال ، ولهذا توضع المجاميع المختارة من الوان الفن وضروب الكتابة ، ولعل هذه المجموعة ان تكون لها رسالتها الكافية بين المجاميع .

الـــرواد

(١) واشنطون أرفنج

(٢) ادجار ألان بو

(٣) مارك توين

واشنطون أرفنج

١٧٨٣ - ١٨٥٩

يلقب « **ارفنج** » بسفير امريكا الادبى الى القارة الاوروبية. ويلقب أحيانا بأبى الادب الامريكى ، وهو جدير بكلا اللقبين ، يستحقهما بمزايا متعددة ، اكبرها واظهرها انه رجل لم تستغرقه بيئة قط ، سواء كانت بيئة الزمن أو بيئة المكان ، أو بيئة الفكر والثقافة ..

يكتب عن الاقاليم المحلية ، ويكتب عن اقاليم الولايات من شرقها الى غربها ، ويصف شؤون العالم الجديد ولايقصر فى وصف شؤون العالم القديم ،ويتتبع مسائل عصره ، ويتتبع كذلك مسائل التاريخ القريب والبعيد ، ويعنى بالشرق ، كما يعنى بالغرب فى عالميه الجديد والقديم ..فمن مؤلفاته كتاب عن **النبى محمد** عليه السلام ، وكتاب عن **خلفائه** ، وآخر عن فتح **غرناطة** ، وآخر عن خواطر يوحيها **قصر الحمراء** !! وثقافته تلم باطراف متباعدة ، فمنها الترجمة والقصة والمقالة والرسائل التى لا تخلو جميعا من اسلوبه الغالب عليه ، وهو اسلوب النقد الاجتماعى فى قالب الفكاهة الرضية ، التى لاتنطوى على عداء لاحد أو لجماعة من الناس .. وتتعدد بيئته فى تراجمه كماتتعدد بيئاته فى سائر موضوعاته ،فهو يترجم كما تقدم **للنبى محمد** عليه السلام ، ويترجم **لكولمبس ولواشنطون** ، ويترجم للأديب الانجليزى **أوليفر جولد سمث** ،وتظهر سجيته كلها فى اعجابه بهذا الاديب ، لان جولد سمث قد اشتهر بكتابه عن « **المواطن العالمى** » ، وهو فيلسوف صينى يطوف فى العالم ، ويعلق على

مشاهداته وتجاربه بنظرة شرقية تتجلى فيها غرائب النقائض والمفارقات .

وقد رشحته لهذه السماحة الثقافية أحواله جميعا ، ما كان منها عاما يرجع الى عصره ومنشئه ، وماكان منها خاصا يرجع الى أسرته ومزاجه وتربيته . فانه ولد فى عصر الاستقلال ، وحضر خلافات الحرب الاهلية ،ونشأ من أسرة موسرة لها أعمال فى **نيويورك وليفربول** ، وقد عاش فى هذه المدينة بضع عشرة سنة وكيلا عن اسرته فى اشغالها التجارية ، وترعرع بعد ان عبرت الثقافة الامريكية بأطوارهاالثلاثة :وهىطور الكتابة الدينية فى القرن السابع عشر ، وطور **الكتابة السياسية** فىالقرن الثامن عشر ، وطور **الكتابة الادبية** فى عصر الاستقلال ! واذا نظرناالى لباب فكاهته راينا لها محورا عاما منالبيئة الزراعية التىاخذت تتحول الى بيئة التجارة والصناعة ، ومن البيئة المختلطة التى أخذت تتحول الى الوحدة القوميةالشاملة ! ولهذا نرى لفكاهته هدفين تنصبهما له تلك المرحلة من تاريخ بلاده : احدهما السذاجة الريفية ،والآخرغرائب الاجناس التى يبرزها التقابل بين الامم فى وطن واحد .

أما ملكته الفكاهية فى جملتها ، فمصدرها القدرة على النظر الى الامور جميعا من زاويتين لا من زاوية واحدة ، وكثيرا ما كتب عن شؤون وطنه كما تبدولعين الطارىء المختلف كل الاختلاف عن جميع بنيه ، ومن ذلك رسائل التركى المنفىالذى تخيله مهاجرا الى الديار الامريكية ، يكتب الرسائل عنها ، ويصف منها فيما يصف **نظام الحكومة والدولة** ، فيقول : ان الولايات المتحدة تحكم على نظام يسميه نظام حكم الكلام « **لوجوقراطى** » ، وانها الآن فىحرب اهلية لاختيار « الباشا » الحاكم عليها ، وليس للمتقاتلين فى هذه الحرب سلاح غيرسلاح الخطب والمقالات .

***

ولد **بنيويورك** (٣ ابريل سنة ١٧٨٣) ، ومال بطبعه الى دراسة القانون ومطالعة الآداب ، فلم يتابع تعليمه الجامعى ،

ثم سافر الى القارة الاوروبية وهو فى الحادية والعشرين ، مستشفيا ، وعاد الى السياحة فيها مستطلعا منقبا وهو يناهز الاربعين ، فالتقى بكبار ادبائها ، وشهد مسارحها ، وتنقل بين **انجلترا وفرنسا والمانيا واسبانيا** ، واختير بعد ذلك لوظيفة فى المفوضية الامريكية **بمدريد** ، ونقل منها الى المفوضية الامريكية **بلندن** ، ثم ارتقى وزيرا مفوضا لبلاده فى **اسبانيا** ، واختاره معهدها الملكى لدراسة التاريخ عضوا فيه ، فكان من ابرز اعضائه ، وخيل الى الناشرين فى وطنه ، اثناء غيابه أنه قد نسى ، وخلفه على زعامة الادب كتاب جيل بعد جيله ، فاعرضوا عن طبع كتبه بعد نفادها ، ولكن واحدا منهم — وهو **بتنام** — كان يطوف فى البلاد الانجليزية لشئون تتعلق بصناعته، — عرض عليه بعد عودته ان ينقده الفى ريال فى السنة مع حصة فى الارباح لطبع كتبه القديمة ،وما عسى ان يصدره من مؤلفاته الجديدة ، فتبين للناشرين والنقاد معا ان مكانته فى بلاده وغير بلاده ترتفع ولا تهبط ، وان تعبيره عن القومية الامريكية « العالمية » كان اصدق التعبيرات فى تلك المرحلة من مراحل الثقافة والتكوين الاجتماعى والصلات الخارجية ..

ومما يؤثر عن نزعته القومية ان هذا النظر « **العالمى** » فيه لم يضعف غيرته الوطنية ، ففى الوقت الذى كان الناشرون يعرضون فيه عن كتبه ، وكان الاديب الانجليزى **مورى** محرر المجلة الربعية Quarterly Review يجزيه احسن الجزاء عن طبع مؤلفاته ونشرها ، اقترح عليه هذا الاديب ان يكتب للمجلة مقالا ادبيا ، وعرض عليه مائة جنيه أجرا للمقال ، فرفض مقترحه وقال فى كتابه اليه ان هذه المجلة طالما نددت بقضية وطنه على صفحاتها ، فهو لا يرضى ان تظهر مقالاته على تلك الصفحات .

ولم تكن **السياحة** هى العامل الوحيد فى تعدد الجوانب الثقافية التى اشتهر بها **ارفنج** ، فقد كانت مطالعاته لاتقل عن سياحاته ، ويمكن ان يشار الى بعض اساتذته الادبيين ، ولايمكن حصرهم جميعا ، فمنهم **مونتسكيو وسكوت واديسون وجولد**

سمث ، ومنهم كتاب القرن الثامن عشر عامة فى **انجلترا وفرنسا والمانيا** ، ويندر ان يشار الى اديب من ادباء السلف اليونان او اللاتين لم يطلع عليه .

واسلوبه سهل رشيق ، خلو من اللهجة التعليمية التى كانت شيع بين أساليب القرن الثامن عشر ، ويلاحظ عليه انه يتجنب العواطف القوية وينفر من الفواجع والسورات النفسية ، ولكنه يحسن تصوير الملامح الشخصية بغير تكلف ، ويعطى « اللون المحلى » حقه من العطف والفكاهة الرضية .

وقل أن يطلع القارىء على أثر لهذا الكاتب النابغ ، الا وجد فيه خصائصه جميعا ، ممثلة عفوا بغير مجهود .. ونتخذ المثل من القصة التى احتوتها هذه المجموعة وهى قصة **«ريب فان ونكل »** ، فانها قصة رجل ساذج لم يحصره جيل واحد ، وفيها دعابته المعهودة عن سذاجة الريفى وعادات الهولنديين فى ايام الهجرة الاولى ، وفيها كذلك لمحة الى قصة **« أهل الكهف »** والى طرائف **عصر الانتقال** بين ايام الاستعمار وايام الاستقلال. وليس اوضح من صورة بطل القصة وصورة المجتمع البسيط الذى عاش فيه منذ شبابه الى شيخوخته المضاعفة ، تلك الشيخوخة التى صاحبت جيلين من الشبان والشيوخ . .

ريب ڤان ونكل

« وحق أودين رب السكسون ، الذى ينسب اليه يوم أودين او الاربعـــاء ، ليكونن الحق لزاما احرص عليـــه الى اليوم الذى اتوارى فيه الى الضريح .. »

كل من القى به المســير الى **هدســون** يذكر ولا ريب جبال كاتسكل : فرع الاسرة الجبليـة التى تعرف **بالابلاشية** ، وترى على غرب النهر من بعيد، مرتفعة الى علو نبيــل ، مشرفة على ماحولهـــا من الارضين ، يطرا عليها فى كل موسم او جويتغير ، بل فى كل ساعة من ســـاعات النهـــار ، طــارىء من الالوان الساحرة التى تغشى اشــكالها وملامحها ، ويحســبها ربات البيوت فى تلك الجيرة مقياسا من ادق مقــاييس الجو والهــواء . فاذا اعتدل الجو واستقر تسربلت بالزرقة والاحمـرار ، وارتسمت صــورتها الفخمــة على افق الغروب ، ويتفق احيــانا حين يصحو الافق من حولها ان تتجمع فوق راســـها كمة من الابخرة المرحة تطيف بقمتها ، فتلمع فى اشعة الشفق الاخيرة كانها تاج العظمة والفخار .

وربما تراءى للمسافر تحت اقدام تلك **الجبال السحرية** دخان يتلوى ، وهو صاعد من سقوف القرية القرميـدية التى تلمع بين الاشجار حيث تلتقى الزرقة من اعالى الارض بخضرة البطحـاء النضرة . وهى **قرية** صــغيرة معرقة فى القدم ، اســها بعض المستعمرين من الهولنديين منذ اوائل ايام الاقليم ، حــوالى

عهد الحـــاكم الطيب « **بيترستوفيزان** » طيب الله ثراه ، ولم تزل هناك بقـايا من بيوت السـكان الاوائل ، تخلفت الى سنوات قريبة ، بنوها بالحجارة الصفر الصغار التى جلبوها من هولندة ، وفتحوا فيها الشبابيك تحت سقوفها الحدباء ، يعلوها « **ابو رياح** » (١)

فى هذه القرية ، وبين جدران بيت من هذه البيوت التى ابلاها الزمن ، وران عليها طول العهد بتقلب الاجواء ، كان يعيش من زمن بعيد ـ أيام كانت القرية ولاية بريطانية ـ رجل طيب ساذج يسمى **ريب فان ونكل** ، ينحدر من سلالة **فان ونكل** الذى ذاعت شـهرته فى تلك الايام ، ايام البطولة والفروسـية فى عهـد الحاكم **بيتر ستوفيزان** ، وقد صحبه حين ذهب الى حصـار قلعة **كرسـتيا** ، ولكن **ريب** لم يرث الا القليل من خلائق اجداده الحربية ، فهو رجـل سـمح بسيط حسن العشرة لجيرانه ، مستسلم **لزوجته** التى لا تفتأ تنهره وتسىء اليه . ولعل هذا الخلق الاخير هـو الذى اورثه تلك الهوادة التى تحبب صاحبها الى الناس ، وتلازم خارج الدار كل من ابتلى داخلها بالخضوع للزوجات السليطات . اذ تراض امزجتهم ولا ريب بالمطرقة والكير فى نيران الخلاف المحتدم ، حيث تغنى الخطبة الواحدة عن عظات المنابر فى العـالم كله . وهى تحاول أن تعلم الناس فضـائل الصبر والاحتمـال ، ومن ثم تحسب الزوجـة الصـاخبة فى عداد النعم المرضية ، ويقال عن **ريب فان ونكل** بحق انه مثلث البركات !!

والواقع انه كان على حظوة عظيمـة عنـد زوجات القرية الصالحـات ، وهن على عادة الجنس اللطيف يعطفن عليـه فى كل مشكلة بيتية ، ولا يفوتهن فى سويعات السمر ان يلقين اللوم كله على السيدة فان ونكل ، كلما قلبن شجون الحديث . . وقد تعود الاطفال ان يتلقوه بصيحة الفرح كلما طلع عليهم ، فيساعدهم فى اللعب ، ويصنع لهم الاعيبهم ، ويعلمهم كيف يرسلون الطيارات فى الهـواء ، وكيف يصـيبون المرمى ، ويقص عليهم اقاصيص

(١) صورة على شكل الديك تتقلب مع الريح وتدل على احوال الجو

العفاريت والساحرات والهنود. وحيثما ذهب يدلف فى أزقة القرية احاط به جيش منهم يتعلق بأذياله ويصعد على ظهره ويداعبونه بغير احتشام ، ولاتسمع كلبا واحدا ينبحه بذلك الجوار !!

وآفة ريب الكبرى كراهته العصية لكل عمل نافع ، وليس ذلك لقصور منه عن الداب والمثابرة ، فانه قد يجلس النهار كله وفى يده صنارة اثقل من رمح التترى ، يصطاد بها السمك ، ثم لايسأم الجلوس وان لم يسعده الحظ بانتفاضة واحدة من الخيط تبعث فيه الامل ، وربما حمل بندقية الصيد ساعات ، بين الغابات والمستنقعات ، وفوق التلول ، وتحت الاودية ، عسى ان يظفر ببعض السنجاب او الحمام ، ولم يرفض قط ان يمد يد المعونة لجار يدعوه الى اشق الاعمال ، ولم يزل فى الطليعة فى كل مهرجة من مهارج الحصاد ، او فى كل حشد يتلاقى لاقامة الحواجز والحدود . وقد تعود النساء كذلك أن يبعثن به فى رسائلهن ، وان يندبنه لتلك المهام التى لايتقبل الازواج منهن أن يستجيبوا من اليها ! فكان بعبارة اخرى على استعداد لان يقوم بكل عمل غير عمله . . اما المستحيل عنده فهو أن يعنى بحقله ، او شئون داره ، وكل ماله فيه منفعة او صلاح !

وواقع الامر انه كان يقول ان العمل فى مزرعته عناء ضائع ، فانها كانت العن قطعة من الارض فى الاقليم كله ، وليس فيها الا ماهو غلط ينتهى الى غلط على الرغم منه . فحواجزها لاتزال تتساقط وحدها ، وبقرته تضل الطريق او تجوس خلال الكرنب ، والعشب فيها كأنما اقسم ليسبقن فى نموه وتكاثره كل عشب مثله فى المزارع الاخرى ، وكذلك كان المطر على عهد أن ينهمر كلما اتفق له عمل خارج داره ، ومن ثم فنيت مزرعته الموروثة فدانا فى اثر فدان ، ولم يبق منها غير رقعة صغيرة يزرع فيها الحبوب والبطاطس ، وهى أسوأ المزارع حالا على الاطلاق .

وكان اطفاله كذلك شعثا غبرا ، كأنهم شرداء لاينتسبون لاحد ، ومنهم ابنه ريب الذى نشأ على صورته ، تنم مخايله على انه سيخلف اباه فى عاداته واطواره ، كلما شوهد بملابس

ابيه البالية . وكان كالعجل الصغير يقفو آثار امه حيث سارت ، ملتفا بسراويل ابيه ، وقد طوى فضولها بيده ، فعل السيدات الرشيقات اذ يأخذن أذيالهن بأيديهن فى الهواء العاصف .

على ان **ريب فان ونكل** كان من اولئك السعداء الذين رزقوا ذلك المزاج الرضى الأبله ، الذى يتلقى الدنيا على علاتها فى يسر وقلة اكتراث .. يأكل الخبز ابيض او أسمر حسبما يتفق ، ويؤثر ان يعيش جوعان بدرهم على أن يعيش بالعمل والمشقة على دينار . ولو انه ترك وشأنه لصفر للحياة طويها فى غير اكتراث ، ولكنها هى امراته التى لاتنى تطن فى اذنيه مؤنبة له على كسله وتراخيه ، وعلى الخراب الذى يسوقه الى اهله ، وتداب على ذلك صبحا وظهرا ومسيا ، فلا يهدأ لها لسان . ومهما يقل فهو على يقين ان كلمة منه بتبعها الامحالة فيض من تلك البلاغة المنزلية ، حيلته الوحيدة حياله ان يصبر عليه ، وان يهز كتفيه وينفض رأسه ، ويمط شفتيه ، ويرسل بصره امامه ، ولاينبس بحرف .. وتلك على الدوام مناسبة جديدة لانطلاق **زوجته** فى طوفان آخر من التأنيب والتبكيت ، فلا يسعه الا ان يشد عزمه ويفارق المنزل الى الخلاء ، وهو المكان الوحيد الذى يملكه الزوج المغلوب !

وكان البغه الوحيد فى الدار **كلبه وولف** ، الذى كان حظه من مدام **ريب** كحظ صاحبه ! كلاهما رفيق بطالة وكسل ، وربما لحظته السيدة بعين السخط لاتهامها اياه بأغراء الرجل والتواطؤ معه على الكسل والتشرد . . والحق ان **وولف** كان كما ينبغى لكل كلب شجاع مثلا للكلاب ، لايسبقه سابق فى مطافه بالغاب . ولكن ماجدوى ذلك كله امام لسان امراة سليط .. فما هو الا ان يدخل المنزل ، حتى يهبط صدره ، ويتدلى ذنبه ، او ينطوى بين رجليه ، ويتسلل فى خجل ورهبة ، ملقيا بالنظر من هنا و ثم الى **مدام ريب** ، متاهبا للفرار كلما لمح من بعيد شبح المكنسة فى يدها .. !

وساء الزمن عاما بعد عام مع **ريب فان ونكل** ، فى حياته

الزوجية ، فليس من شان السن ان تداوى طبيعة النكد .. ومن شانها دائما ان تزيد مرانة اللسان وتشحذه بكثرة الاستعمال!

وطالما عزى نفسه كلما برح المنزل بالتردد على **نادى الحكماء** وذوى الحنكة والخبرة وزملائه فى الكسل والهوادة ، حيث كان المجلس ينعقد على كنبة عند باب خان ، تعلوه صورة صاحب الجلالة **جورج الثالث** ، وتأوى اليها الزمرة ، فتقضى نهار الصيف فى الظل ، وتتحدث هنالك بفضول الغيبة القروية او بلا شىء ، ولكن الاصغاء اليهم فى بعض تثرثرتهم متعة تساوى دراهم السياسى الاريب ، اذ يجيلون النظر فى صحيفة من الصحف القديمة ، يلتقطونها من مسافر عابر ، ويصغون سكوتا الى الاستاذ العلامة دريك **فان بومل** ، وهو يتنقل بين موضوعاتها ، ولا تخيفه منها اضخم كلمة من كلمات المعجمات الغامضات ، ثم يتبادلون الراى فى اصداء من الحوادث العامة مضت عليها بضعة شهور ..!

وكان المسيطر التام على آراء هذه النخبة شيخ القرية وصاحب خانها **نيقولا فيدار** ، وعلى بابه يقضى النهار من الصباح الى المساء ، لا يتحرك الا ريثما يتقى الشمس فى ظل شجرة كبيرة ، يستطيع من يراه على مقعده وراءها ان يعرف الساعة كما يعرفها من علامة المزولة ! ..نعم انه كان كثير الصمت ، كثير التدخين ، قلما تنفرج شفتاه ، الا ان مريديه - ولكل عظيم مريدون - كانوا قد عرفوه وعرفوا كيف يستشفون رايه من ملامح وجهه ، فاذا سمع كلاما لا يعجبه فآية ذلك ان ينفخ الدخان نفخة الغضب والاستياء! اما اذا وافق الكلام هواه ، فآية ذلك ان يطيل النفس ثم يرسله سحبا هينة خفيفة ، او ينحى البيبة عن فمه ، ويطلق منه الدخان المتموج ليهز راسه هزة التامين والاستحسان !

وحتى هذا المعقل الامين قد طورد فيه **ريب فان ونكل** آخر الامر ، ولاحقته عنده زوجته اللجوج ، حيث كانت تفاجىء الجمع بصيحاتها ، وتصف كل عضو من اعضائه بصفاته عندها ، فلا يعتصم منها حتى تلك الشخصية المرقرة ، شخصية **نيقولا فيدار** ، ولا يامن ان يسمع من ذلك اللسان الصاخب تهمة التحريض على البطالة يغرى بها قرينها المسكين ..!

وران اليأس بعد طول الصبر على المسكين **ريب** ، ولم يكن له منجى من هذه المطاردة ومن متاعب الحقل ، الا أن يحمل بندقيته ويأبق الى الغابات ، ويستريح الى جذر شجرة ، يشاطره فى ملجئه منها كلبه وولف الامين ، وهو قسيمه أيضا فى البلاء والاضطهاد !

وربما التفت الى **وولف** حينا بعد حين ، يناجيه بكلمات العزاء والمواساة :

« آه يا **وولف** العزيز . ان سيدتك تسومك سوم الكلاب . فلا تأس ولا تحزن . انك لن تعدم مادمت بقيد الحياة **صديقا** يقف الى جانبك ويواسيك ! »

ويقابل **وولف** هذا العزاء ناظرا الى وجه مولاه مبصبصا بذنبه ، وما من شك انه كان يجاوبه من اعماق قلبه ، ويفصح له عن كامل عطفه ، لو يقدر كلب اعجم على الافصاح !

وفى احدى هذه الرحلات ، يوما من ايام الخريف ، صعد **ريب** على غير قصد منه الى قمة من اعلى قمم التلال ، يتشاغل بملهاته المحببة ـ صيد السنجاب ـ ويستمتع بالسكينة حيث تتجاوب أصداء بندقيته كرة بعد كرة ، ثم القى بنفسه وقد أجهده التعب عند الاصيل على ربوة خضراء ، تجللها الاعشاب الجبلية على حافة الهاوية ، ولاحت له من فرجة الغصون **غابات** الوادى التى تمتد تحته ميلا بعد ميل ، وعلى مد البصر منظر **النهر** الفخم فى مجراه الصامت تنعكس عليه سحابة حمراء أو شراع زورق يتهادى هنا وهناك ، ثم يتوارى فى زرقة القلال . والى الجانب الآخر وهدة عميقة فى عزلة موحشة يمتلىء قاعها بفتات الهضاب المطلة عليها ، وقلما يبلغ اليها شعاع الشمس الغاربة ..

وراح **ريب** يسرح البصر فى هذه المشاهد هنيهة ، والليل يقبل بأكنافه ، والظلال تتطاول من حوله ، فبدا له ان الظلام ملق سدوله ولا شك قبل ان ينتهى الى القرية ، لو انه ازمع الهبوط اليها ، وتنهد طويلا حين جال بخاطره ماسيلقاه من أهوال السيدة **فان وتكل** وزماجر غضبها ! . .

وانه ليهم بالنزول فاذا بهاتف يصيح به : **ريب ڤان ونكل** .. ريب ڤان ونكل .. ويلتفت فلايرى أحدا هنالك ، اللهــم الا غرابا على جناحيه خلال التلال ، فيخيل اليه ان سمعه قد خدعه، ويستدير لينحدر فيعـــاوده الصـوت : ريب **ڤان ونكل** ... ريب ڤان ونكل ، كما سمعه أول مرة .. واذا **بوولف** يقــوس ظهره ويعوى عواء عاليا، ويزحف الى جانب مولاه ، وفى عينيــه نظرات الخوف ، وهو يطل على الوهدة ، فيخامر الخوف جوانح ريب ، وينظر حيث راى كلبــه يطيل النظر ، فيلمح ثمة **انسانا** يدلف مصعدا فى الجبل بين تلك التلال المهجورة ، وعلى ظهــره حمل ينوء به ويثقله.. فادهشه ان يلقى احدا هناك ، وخطر له لعله ان يكون جارا من جيرانه فى حاجــة الى العـون ، فأسرع منحدرا اليه ..

وتضــاعفت دهشـــته حين اقترب منه لغرابة مرآه ، اذ كان قصيرا ، ممتلئا ، مربع القامة ، كث اللحية ، يلبس ملابس اهل هولندة ، وحول حقويه صدار يستدير عليهمـا فوق سراويله القصار التى ترصعها الازرار على الجنبين وفوق الركبتين ، وكان يحمل على كتفه برميلا يبـــدو عليه انه مترع بالشراب ، ويومىء الى **ريب** ملتمســا منه المساعدة.

فبادر **ريب** الى نجدته كعادته، وان ســـاورته خاطـــرة من الاستغراب والتهيب ، وتعـاونا معا على الصعود بالحمـــل الى مشعبة جفت فى طريق السيــل ،وكان ريب يسمع كلما ارتقيــا مصعدين قصفا كقصف الرعود البعيدة ، يخيل اليه انه آت من بعض الشقوق بين الجبال حيث يتجهان ، فتمهل قليلا ، ثم خطر له انها قد تكون نوبة من نوبات الرعود المعهودة فى تلك الذرى.

فتقـــدم ، وطفق يتقـــدم هو وصاحبه ، حتى افضـــيا الى فجوة كالمدرج تحيط بها مزالق الوهاد ، وتعلوها الاشجار التى تشابكت فروعها ، فلا تبدو من خلالها غير رقعة هنا ورقعـــة هناك ، من قبة السماء الزرقاء وسحائب المساء اللامعة ... وكان **ريب** وصاحبه يزحان بحملهما صامتين ، لانه ــ وان عجب لهذا الحمل يصعد به صاحبه الى تلك الذروة ــ كـان يحس حـــول

الرجل الغريب شيئاً من الغموض يحول دون الالفة ورفع التكليف بينهما ..!

واعتراه طارق جديد من الغرابة حين انتهيا الى الفجوة المدرجة ، اذ نظر ثمة فلمح طائفة من الشخوص الغريبة تلعب لعبة الاوتاد التسعة ، وعليهم تلك الاكسية العجيبة من السراويل والصدائر قد تعلقت من نطاقها الخناجر ، وفي لباسهم مشابهة لملابس دليله ، وعلى سماتهم عجب عجاب . اذ كان فيهم الضخم الدماغ العريض الوجه ، الذى تحكى عيناه أعين الخنازير ، ومنهم من يبدو عليه كأنما ركب وجهه من انف ولا شيء ، وعلى رؤوسهم قلانس يتدلى الريش فوق اقفيتها ، وكلهم من ذوى اللحى التي اختلفت الوانها واشكالها ، يراسهم واحد منهم قصير القامة في لون بشرته سفعة من تقلب الاجواء ، وعلى صدره عنترى مطرز الحواف ، وفوق راسه قبعة يعلوها الريش ، وفي قدميه حذاء مرتفع الكعبين تزينه وردتان .. ومنظرهم جميعا يخيل الى **ريب** انه ينظر الى **الصورة الفلمنكية** التى كان يراها في حجرة **القس فان شيك** معلقة هناك منذ أيام الهجرة الاولى ..!

والذى ادهش **ريب** بصفة خاصة ان هؤلاء السادة كانوا في تسليتهم ولعبهم يتشحون بوشاح الرهبة والوقار ، ويلتزمون الصمت الخفي ، ويلوحون للعين كأغرب ماوقعت عليه من محفل اناس يلعبون ويتلهون ، ولا يتخلل صمتهم غير ماكان يسمعه حين يلقون بكراتهم من دوى كدوى الرعود ..!

فلما اقترب منهم **ريب** وصاحبه ، امسكوا عن اللعب ، ونظروا اليهما فأطالوا النظر ، كأنهم التماثيل الجوامد ، وتراءت على ملامحهم صرامة افزعته ، فسقط قلبه ، واختلجت ركبتاه ، وعمد **صاحبه** الى البرميل فأفرغه في بواط واسعة ، وأومأ اليه أن يدوربها على **الرفاق** ، فلبى الامر وهو يرتجف من الرعب . ورآهم يجرعون الشراب في صمت عميق ثم يعودون الى اللعب ..

وسكن روعه رويدا رويدا ،وبلغ من طمانينته انه اجتراعلى ذلك الشراب يتذوق منـــه ،فاستعذب مذاقه كأطيب ماتكون الاشربة الهولنـدية . وكان من دابه اللهفـة على الشراب حيث وجده ، فعـــاود الكرة واغرته لحســـة بلحســـة ، واكثر من معاودة البواطى لحظة بعد لحظة حتى غام حسه ، وعامت عيناه، ومال راسه ، واستغرق فى نوم عميق !

فلما تنبه الفى نفســـه على الربوة الخضراء حيث التـقى بصاحبه ، ومسح عينيه ونظر، فاذا الصـــباح مشرق وضىء ، واذا الطـــير تقفز وتغـرد بين الغصون ، والنسر محلق باسط جناحيه يستقبل النسيم صافيا على قنن الجبال . وهجس فى نفسه :

اترانى قضيت الليل كله هاهنا ؟ ثم راح يستعيد ماحـدث قبل استغراقه فى النوم ،ويذكر ذلك الرجل **الغريب** صـــاحب برميل الشراب ، وفجوة المدرج ،وتلك الرفقة العبوس اللاهيـــة بلعبة الدبوس ، وتلك الباطيـــة الخبيثة . يالها من باطية خبيثة حقا ! فـكيف يكون اعتـــذاره **للسيدة فان ونكل** ياترى ؟

والتفت الى جانبه ينظر بندقيته ، فلم يجد فى موضعها غير هنة رثة اكل الصدا حديدها ،فخطر له ان تلك الرفقة العبوس قد عبثت به واسكرته لتختلس منه بندقيته . واختفى **وولف** ايضا .. فهل تراه انطلق وراء حجلة او سنجابة ؟ انه ليصفر له وينادیه ولا من سميع . انما يجيبه الصدى بمثل صـــفيره وندائه ، ولا كلب هناك .

واعتزم ان يعود الى مـكان **الرفقة** يسألهم حيث وجـدهم عن كلبه وبندقيته ، فما هو الان هم بالحـركة حتى احس فى مفاصله ببوسة ، وعجـز عن الحركة على غير عهـده بنشاطه ! فقال لنفسه : ان هـذه المراقد الجبليـة لاتوافقنى ، وياله من وقت ممتع اقضـــيه بين يدى **السـيدة فان ونكل** لو لزمت الدار بداء المفاصل والعياذ بالله!

لقد وصل الى الوهدة بمشقة ،ورأى الهضبة التى ارتقـاها مع صاحبه ، ولكنه لفرط دهشـته وجد عندها جدولا يتـدفق من

صخرة الى صخرة ، ويملأ الجبل بأصداء خريره . فعالج ان يتخطاه ، وسلك طريقه فى جهد ومشقة بين الفاف الشجر وهى تعترضه كالشباك فى الطريق ، وبلغ آخر الامر الى حيث الفجوة المدرجة ، ولكنه لم يجد هناك ثغرتها التى كان يذكرها ، ووجد الصخر قائما امامه كالسد المنيع يهوى عليه الماء ، كأنه الدخان مندفعا الى حوض غائر قد اسود فى ظلال الغاب التى احاطت بجهاته .. واضطر ريب المسكين ان يقف فى ذلك الموضع ، فعاود الصفير والنداء على كلبه ، ولم يستمع من جواب غير النعيب من سرب غربان تحوم كسلى من فوق شجرة يابسة على الهاوية وتنظر دونها آمنة فى فضائها ، كأنما تسخر من ذلك الادمى المسكين فى حيرته ..!

ماذا تراه يصنع ؟ ان الصباح يمضى وهو يتضور جوعا ، وتلعجه لوعة الحزن على كلبه وبندقيته ، ويكربه لقاء زوجته المنتظر ، ولكنه لا يقدر على البقاء حيث يهلك جوعا فى مكانه ، فهز راسه وحمل بقايا بندقيته وتحول وهو مثقل الفؤاد بالغم والقلق الى ناحية داره ..

راح يقترب من القرية ، فيلقى عندها طوائف من الناس لا يعرف منهم احدا ، ويدهشه ان ينكرهم جميعا ، وهو يحسب انه على معرفة تامة بكل فرد فى أفراد المكان وما حوله ، ويلاحظ ان ملابسهم تخالف الزى الذى يعلمه ، وانهم ينظرون اليه بدهشة كدهشته ، ويتأملونه طويلا ثم يحكون ذقونهم . فلما مد يمينه يصنع مثل صنيعهم ، اذا بلحيته قد طالت نحو قبضتين او تزيد !

وكان قد دنا من ظاهر القرية ، فلحقت به زمرة من الصغار تهلل فى اعقابه وتشير الى لحيته البيضاء ، ونبحته الكلاب التى لم يكن كلب منها ينبحه من قبل ، فنظر اليها فلم يعرف احدا منها . وتبدلت القرية كلها ، فهى اكبر واحفل بسكانها ، ولا اثر فيها لمزاراته التى كان يألفها ، وعلى الابواب اسماء غريبة ، وفى النوافذ وجوه غريبة ، وكل شىء يراه غريب غريب !!

خانه عقله ، وداخلته الشكوك ، ولاح له انه يمشى مسحورا فى عالم مسحور ! فلا ريب انها قريته التى فارقها بالامس ،

وهذه جبال كاتسكل ، مافى ذلك ريب ، وهنالك نهر **الهدسون** المفضض على مسافته حيث كان، وهنالك كل هضبة ووهدة حيث كانت من قديم .. : فيا للشراب الخبيث .. انه قد بلبل راسى ايما بلبال !!

ولم يعرف طريق بيته الا بعد لأى .. فجعل يمشى اليه متهيبا متوجسا ، يترقب فى كل لحظة أن يسمع صيحة امراته مجلجلة فى اذنيه . فاذا **بالدار** قد تداعت، والسقف قد تهدم ، والنوافذ قد تهشمت ، والابواب قد تفككت من مفاصلها ، ولديها كلب يحوم حولها يوشك ان يهلك من هزال الجوع ، كأنه صاحبه **وولف** .. فناداه باسمه فكشر له عن انيابه .. ياله من جحود .. : **كلبى** ينسانى فيما بين ليلة ونهار ؟!

ودخل **المنزل** . ولا تكران ان **السيدة فان ونكل** تدأب على تنظيمه وتنظيفه . فوجده خلاء خواء ، يلوح عليه انه مهجور ومتروك . وغلبت وحشته على خوفه ، فنادى زوجته واطفاله، فرن صوته هنيهة فى الحجرات الخالية ، ثم ران عليها السكوت!

وهرول الى **الخان** مزاره المعهود . ولكنه ذهب .. أما المكان فقد قام فيه ، فى موضع الخان ، بناء من خشب متخاذل، مفغور النوافذ ، مرقع الثغرات هناك بالقبعات والسراويل ، وعلى بابه نقشة تقول : « فندق الاتحاد » لصاحبه **يوناتان ديلتل** .. وعاين بدلا من الشجرة الكبيرة التى تظل الخان عمودا فوقه شىء كالقلنسوة الحمراء عليه خطوط ونجوم : كل ماهنالك غريب غريب !!

وتعرف هنالك على صورة **الملك جورج** التى دخن تحتها كم من **بيبة** مشتهاة . ولكنها ـ حتى هذه الاخرى ـ قد تبدلت، وحلت فى محل الكسوة الحمراء اخرى زرقاء ، وسيف فى اليمين بدل الصولجان ، وقبعة فى مكان التاج ، وتحت ذلك كله حروف تقول : « **جنرال واشنطون** » ! وكان على الباب زحام ، لكنه غير الزحام الذى الفه **ريب** .. تغيرت منهم حتى حركاتهم وخلائقهم وعاداتهم ، فحلت الجلبة محل السكينة التى تعودها فى زمرة **الحكيم نقولا فدار** .

وتطلع مليا عسى أن يرى الحكيم نقولا قدار بوجهه العريض ، وذقنه المزدوجة ، وبيبته الطويلة المليحة تلفظ الدخان بدلا من سقط الكلام . ولكن على غير جدوى ، أو عسى أن يرى الاستاذ **فان بوميل** ينثر ما احتوته احدى الصحف القديمة .. ، او سائر تلك الرفقة ، ولا من حس لهم او خبر ، وانما يشغل مكانهم **مخلوق نحيل صفراوى** ، مفعم الجيوب بالاعلانات ، يهدر بما يسميه حقوق المواطنين ، والانتخابات ، واعضاء المؤتمر ، والحرية ، وتل بنكر ، وابطال سنة ست وسبعين ، وما شابه ذلك من رطانة كأنها اخلاط **برج بابل** فى سمع **فان ونكل** الحائر المشدوه ..!

ولم يلبث مطلع **ريب** ، بلحيته الطويلة البيضاء ، وبندقيته الصدئة ، وملابسه المشعثة ، وفى ذيله جيش من النسوة والصبية ، ان لفت انظار ساسة الخان اليه ، فتكوفوا حوله يرمقونه من راسه الى قدمه مستطلعين ، واسرع اليه الخطيب فانتحى به جانبا يساله : فى اى جانب **ينتخب** ؟ .. فحملق **ريب** وأثار النظر اليه فى غير فهم وبغير معنى ! وجاءه شخص آخر قصير ملهوج ، فجذبه من ذراعه وساله : آتحادى انت ام ديمقراطى ، فذهل ريب ، ماذا يعنى هذا السائل ؟ .. وانه لفى ذهوله لما يفق ، اذا بشخص بادى الخطر ، مزهو السمات ، تنحرف قبعته المستقرة على راسه ، يدفع الجمع يمنة ويسرة ، ويثنى احدى ذراعيه على خاصرته ، ويستند بالاخرى الى عصاه ، وينظر اليه نظرة نافذة فاحصة عن دخيلة ضميره ، ثم يساله فى جد وصرامة : كيف سولت له نفسه ان يحضر الى **مجتمع الانتخاب** مسلحا ببندقيته قائدا وراءه ذلك الجيش من النسوة والصبية ؟ اتراه ينوى ان يثير الشغب فى القرية ؟ ..

قال **ريب** : معذرة ياحضرة **السيد** .. اننى رجل هادىء فقير من ابناء الموطن ، ومن رعايا **الملك** الموالين **لجلالته** .. حفظه الله واسبغ بركاته عليه ..

فانفجرت من الجمع صرخة عاتية وهتفوا به : **محافظ** .. محافظ .. **جاسوس** .. هارب .. اطردوه .. اقذفوا به الى بعيد ..

ولا يا ماستطاع **الرجل** المزهو الخطير أن يعيد السكينة الى المكان ! واتخذ وجهه من سمات الجد والصرامة عشرة اضعاف ما كان عليه ، وعاد يسأل **المتهم** :ماباله قد حضر الى ذلك المكان، وعمن يبحث فيه ؟ فأكد له المسكين انه لايضمر شرا ، وانه لم يقصد الا السؤال عن بعض جيرانه من اصحاب الخان ..

قال **الرجل** المزهو الخطير :حسنا . من هم ؟ اخبرنا عن اسمائهم ؟

ففكر **ريب** لحظة ، ثم قال متسائلا : اين **نقولا قدار** ؟ واتبع سؤاله صمت وجيز ،وارتفع صوت كصفير الغاب من قبل شيخ كبير مرددا ماسمع :**نقولا قدار** ! .. انه مات منذ ثماني عشرة سنة ، وهنالك في مقبرة **الكنيسة** شاهد على قبره ينبيء عنه ، ولكنه كذلك قد فني منذ حين ..

قال **ريب** : واين **بروم** الهولندي ؟

فاجيب : انه ذهب الى الحرب عند نشوبها ، وقيل انه مات في الهجمة على «**استونى بونيت**» .. وقيل غير ذلك انه غرق بجوار **انتونى نوز** .. ولاندري فانه لم يعد قط منذ رحل عن هذا المكان !

قال **ريب** : واين الاستاذ **فان بوميل** ؟

فاجيب : انه ذهب ايضا الى الحرب ، واصبح من قادتها الكبار ، وهو الآن في المؤتمر « **الكونجرس** » ..

وانقبض قلب **ريب** وهو يستمع الى انباء هذه الغير والاحداث في **موطنه** وبين اصحابه ، وبدا له انه في الدنيا غريب منفرد بحيره الجواب عن كل سؤال ، كما يحيره التحدث عن تلك الفترات من الزمن ،وتلك الكلمات التي لايفقه لها معنى : **الحرب . المؤتمر . استونى بونيت** .. فلم يلق في نفسه الجراة على المزيد من الاسئلة ، وصاح يائسا : اليس في هذا المكان احد يعرف **ريب فان ونكل** ؟

فاجابه اثنان او ثلاثة : **ريب فان ونكل** ؟ .. آه .. انه هناك مستند الى تلك الشجرة ..

فالتفت **ريب** فلمح نسخة اخرى منه كما كان يوم اصعد في الجبل .. ورآه مثله في اسماله، وفيما يبدو عليه من الكسل .. فتمت دهشة المسكين ، وشك في ذاته ، ولم يدر أهو هو ام ذاك انسان سواه في جلده !.

وانه لفي هذا البحران ، اذ سأله الرجل المزهو الخطير : من عسى ان تكون ؟ وما اسمك ؟

قال : يعلم **الله** انني لست « **انا** » .. ! انني كائن آخر .! فهذا انا هناك .. ! كلا ! بل ذلك انسان آخر دخل في حذائي ! .. وقد كنت **انا** بعيني ليلة امس ، ثم اخذتني سنة فوق **الجبل** ، فغيروا **بندقيتي** ، وتغير كل شيء .. وتغيرت انا .. ولا احسبني أعرف ما اسمي ولا من اكون ..!!

وتبادل الواقفون النظرات والغمزات والاشارات ذات المغزى ، وراحوا يضربون جباههم بأصابعهم ، ويفكرون في انتزاع البندقية من الرجل ، والاحتماء من اذاه ان اراد شرا .. وتراجع **الرجل المزهو** الخطير على عجل، وتقدمت في تلك اللحظة الحرجة **امرأة انيقة** تتأمل الرجل الاشيب. وكان على ذراعها طفل سمين راعه منظره فانطلق يبكي ... فصاحت به : صه . صه **ياريب** لا تكن احمق ، فان الرجل الاشيب لن يمسك باذى ..

واعاد اسم الطفل وهيئة المرأة ونبرة صوتها طائفة من الذكريات الى ذهنه ، فسألها :

ـ ما اسمك ايتها المرأة المباركة ؟

قالت : اسمي **چوديت جاردنير**

قال : واسم ابيك ؟

قالت : آه . يالمسكين .. كان اسمه ريب **فان ونكل** ! .. ولكنه منذ عشرين سنة ترك البيت **ببندقيته** ولم يسمع عنه خبر .. وعاد **كلبه** وحيدا .. ولكننا لانعلم هل بخع نفسه او اختطفه الهنود ؟ .. وانما كنت طفلة صغيرة يومذاك ..

لم يبق على لسان **ريب** غير سؤال واحد سأله وهو مرتجف ، فقال : واين **امك** ؟

فتنهدت وقالت : انها ماتت بعده بقليل ، وكانت تساوم بائعا

متجولا من « **نيوانجلاند** » فأخذتها سورة غضب وانفجر لها شريان فقضى عليها ...

خبر فيه أخيرا شيء من الراحة، فلم يطق الرجل أن يملك نفسه، بل راح يعانق بنتــــه وطفلها ، ويقول لها . أنا أبــوك .. **أنا الفتى ريب** بالامس ، وانا **الشيخ ريب** اليوم .. أليس هاهنا من يعرف **ريب فان ونكل** المسكين ؟!

فوجموا جميعا ، ودرجت اليه **عجوز** من الزحام ، فرفعت كفهـا الى جبينها ، ونظرت اليه من تحتها عنيهة ، ثم صاحت :

ـ هو هو لاريب بعينه . مرحبا بك في جوارك عائدا اليه بعد حين، **ايها الجار الكريم** . أين كنت طوال هذه السنين العشرين ؟

وعرفت قصة **ريب** على الاثر، فما كانت السنون العشرون لديه الا كليلة واحدة ، وفتح الجيران حماليقهم حين سمعوها ، وجعـل بعضهم يغمز لبعض ، ويديرون السنتهم في اشداقهم . **أما الرجل** الخطير المزهو الذى عاد الى المكان عقب عدوه الحال وانفثاء الروع، فقد زم فاه وهز رأسه ، وتبعه الجمع فهزوا رؤوسهم مقتدين به .

وعولوا بعد عـلى الرجوع الى **بتر فاندردونك** الذى شوهد تلك الساعة مصعدا في الشارع ، وكان سليل المؤرخ المعروف **بهذا الاسم**، وأقدم سكان القرية ، وله المام واف بعجائبها ونوادر أنبائهـا .. عرف ريب لساعته ، فاول لهم قصته على أحسن الوجوه ، مؤكدا **لهم** بالرواية عن سلف المؤرخ أن جبال **كاتسكل** كانت على الدوام مزار الغريب من الاطياف والاشباح ، وان **هنريك هدسون** العظيم أول من كشف النهر الذى سمى باسمه كان يغبها للحراســة كل عشرين سنة مع النواتية من ســفينة الهلال، فتهيأت له الفرصة لغشيان ميدان مساعيه الاولى ، وتعهــد **النهر** الكبير برعايته ، وان والده قد بصر بتلك الاطياف في أكسيتهم الهولندية ، يلعبون لعبتهــم الى جانب فجوة الجبل، وانه هو نفسه قد سمع دوى كراتهم وهى كالرعد المجلجل من بعيد ..

والخلاصة الوجيزة أن **الجمع** قد انفض وعاد الى ماهو أجــد وأجدى من شــواغل الانتخاب ، وأخذت **بنت ريب** اباها ليعيش معها في كنهـا الانيق حيث تقيم وزوجها الفلاح المرح القوى ، وقد

تذكره **ريب** اذ كان واحـــدا من أولئك الاطفال الذين عودهم ان يتسنموا ظهره . أما وريثه وابنه الذى شوعد مستندا الى الشجرة وكان نســخة منه ، فقـد كلفوه العمل فى المزرعة ، فجرى على دأب أبيه وطفق يولى عنايته كل شىء الا عمله ...

وقد عاد ريب الى جولاته وعاداته ، ولم يلبث أن عثر بطائفة من صحابته الاقدمين ، الا انهم قد أبلاهم الزمن وجارت عليهم السن ، فآثر صحبة الجيل الناشىء على صحبتهم ، ولم ينقض غير قليل حتى ظفر بالحظوة بين أبناء هذا الجيل الجديد

ولما كان خلوا من الشواغل فى البيت ، وكان قد بلغ السن التى تبيح لصاحبها أن يركن الى الكسل غير ملوم ، فقد اتخذ مكانه مرة أخرى الى جوار **الخان** ، وأحيط هنالك بالتوقير والاجلال على اعتباره شيخا من شيوخ القرية الاجلاء ، وسجلا لاخبارها قبل أيام الحرب ، وظل برهة ريثما اســـتطاع أن يتابع الاحاديث عن تلك الوقائع التى غبرت فى سنوات رقاده !! فعلم كيف ثارت البلاد على انجلترا وخلعت نيرها ، وكيف أنه أصبح **مواطنا حـــرا** من أبناء الولايات المتحدة ، ولم يعد رعية خاضعا لصاحب الجلالة **جورج الثالث** ..

وواقع الامر أن **ريب** لم يكن من أهل **السياسة** ، ولـم يـكن تبدل الدول والعروش مما يعنيه ، وانما كان هنالك **سلطان** مطلق ظل يشكوه ويئن من طغيانه عليه ، وذلك هو سلطان **المرأة** ، ولكنه قد نجا منه بحمدالله وخلص عنقه من نير الحياة الزوجية ، واصبح قادرا على الطواف حيث شاء ، غير متهيب لسطوة **السيدة فان ونكل!** على أنه كان اذا سمع اسمها حرك رأسه ، وهز كتفيـه ، وأرخى بصره ، ولايدرى من يراه : أذاك منه علامة استسلام لقدره أو علامة اغتباط بخلاصه ؟

وراح يروى قصته لكل طارىء على خان مستر « **دولتل** » ... ولوحظ عليه انه يتصرف فى سرد بعض الاخبار كل مرة ، لعله كان متأثرا بقرب عهده بالسبات ، ثم صقلها أخيرا على صيغة واحدة هى هذه الصيغة التى نرويها ، فلم يبق رجل أو امرأة أو طفل فى

الجيرة الا وقد حفظها واستظهرها،، وكان منهم من يبدى شكوكه فيها ويحسب أن **ريب** مخامر فيعقله ، وان هذه القصة احدى فلتاته ٠٠ ! الا أن السكان الهولنديين الاقدمين، كانوا مجمعين على تصديقها والثقة بصحتها ،ولم يزالوا حتى اليوم كلما سمعوا قصف الرعود أصيل يوم من ايام الصيف على جبال **كاتسكل** قالوا: ذاك **هنريك هدسون ونواتيه** ،يلعبون لعبة الاوتاد التسعة ٠٠٠! ويتمنى منهم كل مبتلى **بزوجة سليطة** لو تتاح له جرعة من باطية **فان ونكل** ٠٠ !

ادجار ألان پو

١٨٠٩ – ١٨٤٩

شاعر • ناقد • قاص •

يتفق **النقاد** على ملكاته الشعرية والنقدية والقصصية ، ولكنهم يختلفون فى ترتيب نصيبه منها، فيحسبه بعضهم شاعرا قبل كل شىء ، ويحسبه الآخرون ناقداقبل كل شىء ، والاكثرون على أنه أستاذ فى القصة الصغيرة ، وان أثره فيها أكبر الآثار، والمعترفون له بهذه المزية معظمهم من الفرنسيين ذوى الشهرة العالمية •

ترجم **بودلير** نثره وسماه الرائد الاول فى القارة الاوربية • وترجم **مالرميه** شعره ونشر آراءه ومقاييسه فى صناعة النقد وفى الادب عامة ، وقال **فاليرى** عنه انه « **خلاق صور** » وعدد من الصور الادبية التى خلقها :صورة القصة البوليسية ، وصورة القصة العلمية ، وصورة الشعر الكونى الحديث ، يعنى بذلك ملحمته التى نظمها بعنوان « **وجدتها** » •

ومن خصائص فنه حب الغريب أو حب **الاغراب** ، ومن ذلك ولعه **بالشرق** ، واختياره العناوين الاسلامية لقصائده ، كعنوان اسرافيل والاعراف ، ونظمه فى سيرة تيمور لنك، ولهجه بالصوفية الشرقية على الاجمال •

والى جانب الولع بالاغراب ،ولع **بالمزعجات والنوافر** ، والحاح على نوازع النقمة أو الانتقام ٠٠ ويلاحظ فى قصتيه المترجمتين هنا أن **النقمة** هى المحور المهم الذى تدوران عليه دون الاشارة الى الاساءة أو الترة التى أوجبتها، كأنها تعبر عن شعور ناقم بمعزل عن الحوادث والجرائر ، ويظن أن مرجع هذا الشعور فيه الى نشأته

المضطربة ، ومعيشته السيئة ،وعثرات الجد التى لازمته من طفولته ،واضاف اليها هوجناياته على نفسه بالادمان والمقامرة وقلة الانتظام فى عمل من الاعمال !

كان مولده فى بوستون (١٩ يناير سنة ١٨٠٩) من ابوين ممثلين يعملان فى **فرقة جوالة**، وماتت امه وهو فى الثانية ، ومات ابوه وهولم يبلغ الرابعة، **فتبناه** رجل عقيم على حظ من اليسار والطيبة ، يسمى **جون الان** وباسمه تسمى بقية حياته .

وانتقل آلان — ومعه الطفل — الى **انجلترا** ، فاحسن تعليمه بالمدرسة الابتدائية ، ثم عاد الى **امريكا** ، أدخله مدرسة راقية فى رشموند ، ثم دخل جامعة فرچينيا وبلغ سن الفتوة ، فتجسمت الفوارق بين مزاجه الفنى الخيالى ومزاج ولى أمره العملى الواقعى . وزاد الفجوة بينهما أن ولى أمره قرن حرمانه من تركته ، ورفض تسديد دينه فى القمار .. وبعد فترة من الجفاء والوفاق بينه وبين ولى أمره لحق بالجيش ، وتقدم فيه ، ثم تعمد سوء السلوك ليفصل منه ، فتقرر فصله ، وتزوج **قريبة** له فى نحو الرابعة عشرة ، فلم تعمر طويلا ، ورثاها بقصيدة من خيرة شعره .

وقد ظهرت له دواوين شعرية وقصص منظومة ومنثورة ، وهو فى نحو العشرين ، وعمل فى الصحافة ، فلم ينجح ، ولم تحسن العلاقة بينه وبين شركائه فيها ، ولكنه احرز بعض الجوائز فى الصحف السيارة ، وشاعت له شهرة ملحوظة جاوزت حدود الاقليم .

وخليق بهذه الحياة القلقة أن تطوى النفس على النقمة والمرارة ، ولكن الاحتراس واجب من أقوال مترجميه الذين جمعوا ترجمته من أوراقه ، وبخاصة ترجمة **ريونس جريسولد** الذى أفرط فى الانحاء عليه . وثبت من تعقيب الكاتب الانجليزى **انجرام** أنه افترى عليه فى مزاعم كثيرة تبين بطلانها بالدليل القاطع .

توفى ولم يكد يجاوز الاربعين ، نزيلا بأحد المستشفيات ، فى السابع من شهر اكتوبر سنة ١٨٤٩ .

ومما لاخلاف عليه أنه رسم **للقصة الصغيرة** خطوطا مميزة عرفت بها طريقته فى اللغة الانجليزية وسائر اللغات الغربية ، وامتاز

باستقلاله فى هذه الطريقة ، على وفرة اطلاعه ومحصوله من القراءة فى الآداب العالمية . ولاشك انه استفاد من **دكنز وبروننج** ، كما استفاد من **هوفمان** الالمانى ، ولكن صبغته فى كتابة القصة الصغيرة لاتلتبس بصبغة أخرى .

أما قصتاه المترجمتان هنا فهما مما نشر فى المجاميع المختارة . وقد نشرت قصة **باطية النبيذ** وهو فى الخامسة والثلاثين ، ونشرت قصة **الخطاب المفقود** قبل ذلك بسنة ، فهما من فنه الناضج الذى ارتضاه وفقا لشرطه فى القصة وفى الكتابة الادبية .

الخطاب المفقود

لادجار آلان پو

« ما من معرفة أهون من ان تعرف »

سنيكا

فى **باريس** ، غب مساء مظلم عاصف من خريف عام ـ ١٨ ، كنت أنا وصديقى **س . أوجست دوبان** ننعم براحة مزدوجة من التأمل والتدخين فى مكتبته الصغيرة ، اوصومعة كتبه ، على الدور الثالث من المنزل ٣٣ بحى سا جرمان . وقد خيم علينا الصمت زهاء ساعة ، وكان يخيل الناظر الينا اننا منصرفان بكل تفكيرنا الى سحائب الدخان التى تحلق فى أنحاء الحجرة . على أننى كنت أعمل التفكير فى مسألة خاصة كانت مدار اخذ ورد بينى وبين صديقى اول المساء : تلك هى الحادث الذى وقع فى شارع **مورج** ، وما احاط قضية مقتل **مارى روچيه** من الغموض .. وكان غالب الظن عندى ، ان هذا الحادث انما وقع عرضا .. فاننا لكذلك اذا بالباب قد فتح على مصراعيه دفعة واحدة ، ودخل منه صديقنا مسيو ج ـ **رئيس الشرطة** بباريس .. رحبنا بمقدمه كل الترحيب ، اذ كان فى الرجل من دواعى الترحيب بمقدار ما فيه من دواعى الازدراء .. وقد مضى على آخر عهدنا به سنوات .. كنا نجلس فى الظلام ، فهم **دوبان** ان يوقد المصباح ، ولكنه عاد فجلس مكانه حين ابتدره ج ـ بأنه انما قدم ليستشيرنا او ليأخذ رأى صديقى على الاقل فى **مسألة** من اعمال الادارة جرت الى كثير من المتاعب !

قال **دوبان** وقد عدل عن ايقاد المصباح :

ـ اذا كان هناك امر يحتاج الى اعمال الروية فيحسن ان نبحثه فى الظلماء .

قال **رئيس الشرطة** : وتلك احدى بدراتك ..

وكان يدعو كل شيء لايدركه بدوة او نزوة .. حتى عاش وهو محوط بعالم من البدوات والنزوات .

قال دوبان : هذا صحيح !

وقدم لصاحبه (بيبة(١)) ،ودفع اليه ترسيا ، وسالت :

ـ وما هى الصعوبة التى بقيت امامكم الآن ؟ ان طريقة القتل كما اظن لم يبق فيها خفاء ؟ .

قال : كلا ! لا شيء من هذا . ان الامر حد بسيط .

ولم يخامرنى الشك فى اننا نستطيع ان نتدبره بانفسنا بما يكفى ، ولكنى قلت :

ـ قد يكون دوبان يريد ان يسمع تفاصيل الموضوع ، لانها من الاسرار العجيبة فى بابها .

قال **دوبان** : انها بسيطة وعجيبة حقا !

والسبب الذى لاسبب غيره ،ومدار حيرتنا ان المسالة على مابها من البساطة قد حيرتنا جميعا ..

قال صديقى : ان بساطة الامر هى التى تقودك الى الخطا .

وقال رئيس الشرطة وهو يغرق فى الضحك : ماهذا اللغو الذى تقوله ! ـ يااله السموات ! من سمع فى حياته مثل هذا الراى ! ..

ـ هذا امر بسيط لايحتاج الى برهان !!

وقهقه زائرنا من اعماق قلبه وقال : ها ها ها . انك موشك ان تخنقنى بحذلقتك هذه !!

قلت : وعلى هذا ماهى جلية الامر ؟

---

(١) البيبة : هى القصبة التى تستخدم للتدخين ونحن نفضل تعريبها بلفظها

واجاب **رئيس الشرطة** ، وهو يضحك ضحكة طويلة فى هدوء وتفكير بعد ان جلس على كرسيه:

ـ ساخبرك فى كلمات وجيزة، ولكن قبل أن أبدأ حديثى ينبغى أن أنبهكم الى احاطة كل مايقال بالكتمان ، . . . ان وظيفتى لعلى خطر اذا اتضح أننى أفضيت بهذا الأمر الى انسان كائنا من كان !

قلت : اذن هات مالديك ؟

وقال **دوبان** : أولا تقول مالديك ؟

ـ اذن أقول : « اننى قد تلقيت أنباء خاصة من جهة عليا بان وثيقة خطيرة الشان قد اختلست من القصور الملكية . والرجل الذى اختلسها معروف مافى ذلك شك، وقد شوهد وهو يأخذها . ومعروف كذلك أنها لاتزال فى حوزته !

قال **دوبان** مسائلا : وكيف عرف ذلك ؟

أجاب **رئيس الشرطة** : لقد استبان ذلك بوضوح من مزية الوثيقة ، وانها لو خرجت من يد السارق لظهرت لذلك نتائج مقدرة ، أو استبان ذلك من استخدامه اياها فيما قصد اليه باختلاسها .

قلت : زدنا ايضاحا ؟

ـ اننى أستطيع ان أقرر أن تلك الوثيقة تخول حاملها نفوذا لدى جهة معينة ، للنفوذ عليها منافع جليلة . .

وكان داب صاحبنا أن يصطنع شيئا من اللباقة فى حديثه !

قال **دوبان** : اننى الى الآن لم أفهم حق الفهم . .

ـ كلا ! ان افشاء أمر هذه الوثيقة الى شخص ثالث لسنا فى حل من ذكره يعرض للشبهات سمعة ذات سامية . ومن شأن هذا أن يمكن حامل الوثيقة من السيطرة على الذات السامية التى يهدد سلامتها وشرفها .

وقلت مقاطعا : ولكن هذا النفوذ لابد أن يعتمد على شىء ، وهو أن يعرف سارق الوثيقة ان المسروق يعلم من هو .

قال **ج** ـ : ان اللص هو الوزير د ـ الذى يقدم على مايليق ومالا

يليق .. وقد كان فى طريقة اختلاسه نصيب من الحرأة لا يقل عن نصيبها من البراعة . **والوثيقة** التى نبحث عنها صراحة هى خطاب وصل الى (الذات) السامية . وهى وحدها فى الجناح الملكى ، وقد فوجئت اذ كانت تتصفحه بدخول من تود اخفاءه عنه ، وبعد أن حاولت عبثا فى عجلة وارتباك أن تلقى به فى الصوان ، اضطرت أن تضعه أمامها على المائدة . وكان العنوان ظاهرا عليه ، فلم يلتفت الى الخطاب لخفاء ما كان ينطوى فى داخله .. خلال ذلك دخل الوزير د ـ والتقطت عيناه الثاقبتان تلك الورقة نوا ، وأدركتا الخط المكتوب على عنوان الخطاب ، كما أدركتا ارتباك الذات الموجه اليها العنوان .. وبادر الوزير يؤدى بعض الاعمال وكأنه فى حالة طبيعية ، ثم أخرج خطابا مماثلا وفض غلافه ، واصطنع قراءته ، ووضعه محاذيا الآخر ، وأخذ يتحدث فى الشئون العامة هنيهة ، فلما أراد ان ينصرف التقط الخطاب من فوق المائدة دون اكتراث . وقد رأت صاحبة الخطاب ذلك ، ولم تستطع بالطبع ان تبدى اى اهتمام فى حضرة الشخص الثالث الذى ظل تحت مرفقها . وذهب الوزير ، وقد ترك خطابه الذى لاخطر له على المائدة !!

وهنا قال **دوبان** : وهذا ماتفهم منه كيف تتم السيطرة ، وهو علم المختلس بأن فاقد الخطاب يعرف من هو !

قال **رئيس الشرطة** : أجل . وان هذا النفوذ الذى اكتسب منذ بضعة شهور قد استغل استغلالا سياسيا غير مأمون . وكانت الذات المسروقة تزداد يقينا كل يوم بوجوب استخلاص ذلك الخطاب ، وليس ذلك بميسور علانية . ومن ثم ساقها اليأس الى مكاشفتى بالامر ...

قال **دوبان** ، وهو محاط بدوامة من الدخان : انك خير من يعتمد عليه فى مثل هذا الامر !

قال **رئيس الشرطة** : انك لتتملقنى ! ربما خطر على البال شىء من هذا القبيل ..

وقلت : من الواضح كما ترى ان الخطاب لايزال فى حوزة الوزير ، وهذا ما يخوله النفوذ ، وليس استخدام الخطاب . فاذا استخدم تقلص ذلك النفوذ بمجرد استخدامه !!

قال **ج** : أجل . وقد سرت وأنا مقتنع بهذا الرأى ، وكان أول همى أن أبحث فى الفندق الذى يقيم فيه **الوزير** . وكان موضع الحيرة فى هذا الشأن هو أن البحث لابد أن يحدث دون أن يصل الى علمه . ولقد حذرت من النتائج السيئة التى تقع اذا فتحنا أمامه ثغرة للشك فى حسن قصدنا ...

قلت : ولكنك تسير على غرار غيرك فى مباحثك .. ان الشحنة الباريسية طالما سارت على هذا الاسلوب .

ـ أجل . ومن أجل هذا لم أيأس . وقد ساعدنى ما اعتاده **الوزير** من التخلف طوال الليل ، وان خدمه الكثيرين ينامون على بعد من مخدعه ، وكثيرا ما يدركهم النعاس وهم يتلون ، شأن أمثالهم من أبناء وطنهم . وان لدى كما تعلم مفاتيح لاعدد لها . وأستطيع معها أن أفتح أى حجرة أو مكان فى أنحاء باريس . ولقد سلخت فى البحث والتقصى ثلاثة أشهر ، لم تمض منها ليلة واحدة لم أقتف فيها أثره . وان اهتمامى الخاص بهذا الامر يتعلق بكرامتى ، ويتصل بسر كبير لا اخفيه عنكم ، وهو أن المكافأة جزيلة . ولن أدع البحث حتى أومن يقينا بأنه أحصف منى وادرى . وأننى لاحسبنى فتشت كل ركن يرد على الخاطر انه يحتوى هذا الخطاب !

وأشرت **قائلا** : ان الخطاب ، ولاشك ، فى حوزة الوزير ، ولكن ألا يكون قد اخفاه فى مكان غير مسكنه ؟

وهنا قال **دوبان** : ان ذلك غير بعيد ، وليس مستغربا من خلائق مكره ودسائسه المعهودة ، فانه ليحرص على سهولة تقديم الخطاب حرصه على حيازته ...

قلت : لعلك تعنى احتمال الحصول عليه ؟

قال **دوبان** : أعنى احتمال البطش بحامله ، لانتزاعه ..

قلت : هذا صحيح . ومن الواضح ان الورقة ، لاتعدو أن تكون فى مسكنه . اما ان الوزير نفسه يحملها فاحتمال يجب أن نخرجه من حسابنا !!

قال **رئيس الشرطة** : لقد ترصدنا له مرتين ، وتربصنا كما يتربص قطاع الطرق . وقد فتشناه شخصيا ، وكان تفتيشه

دقيقا ، والحفنا غاية الالحاف في تقليب جيوبه وملابسه .

قال **دوبان** : لعلك تجشمت كل هذه المتاعب على غير جدوى! ان **مكره** ليس بالهين الساذج ، كما أعتقد ، واذا كان الامر كذلك فلا بد ان يتوقع هذا كأنه أمر واقع لامحالة .

قال **ج** : انه لم يكن أحمق البتة ، لكنه شاعر .. وهذه مرحلة قريبة من الحماقة !

قال **دوبان** وقد تناول نفساطويلا من (بيبته) : أجل وانا نفسي قد شغلت زمنا بنظم مقطوعات متواضعة من الشعر !!

قلت : فكر في أن تقص علينا تفاصيل بحثك ...

— اننا في الواقع قد صرفنا وقتنا وبحثنا في كل منطقة ، وقد فتشت البناء حجرة حجرة ، وخصصت لكل حجرة اسبوعا كاملا .. بحثت اثاث كل شقة ، وفتحت كل صوان . ولعلكم تعرفون كيف يتم ذلك على يد رجل **خبير** مثلي . ولقد يخطر على بال احد اننا يتعذر علينا أن نفتح خزانة سرية ان من يخطر بباله مثل هذا الخاطر لا يفقه شيئا ، اذ الامر سهل ، ولدينا عدد كبير من المفاتيح لشتى الاماكن . ولنا طرق دقيقة في البحث حتى لا يعدونا جزء من خمسين مما يعرض علينا ، او يفلت من أيدينا . وبعد ان أتممنا البحث في الخزائن تناولنا الكراسي والوسائد نتفحصها بالابرة الطويلة . التي رأيتموني استعملها امامكم ورفعنا أغطية الموائد ...

— لماذا ؟

— ان من يريد أن يخفي شيئا قد يرفع أغطية الموائد وما شاكلها من الاثاث ليخفي تحتها ما يريد ، فتثقب رجل المائدة ويوضع الشيء الذي يراد اخفاؤه داخل الثقب ، ثم يوضع الجزء الاعلى فوقه .. ، وكذلك الشأن في أعمدة الاسرة .

قلت مسائلا : ألا يمكن أن تعرف الثقوب برنين الصوت ؟

— ان ذلك لا يمكن اذا حشي جوفها قطنا . وفي حالتنا هذه كان علينا أن نخرج كل شيء ولا نحدث صوتا .

ـ ولكنك لم تصل الى شيء ببحثك، فانت لاتستطيع ان تمزق كل قطعة من الاثاث !

ـ كلا ، ولا شك . ولكننا عملنا خيرا من هذا . لقد فحصنا ارجل الكراسى التى بالفندق جميعها ، والقطع التى تتصل بها ، بمجهر قوى ، فاذا ظهرت لنا اشارات تدل على تغييرات حادثة ، لم نعجز عن ادراكها فى الحال . وان مقدار ذرة مما يترك على الثقوب لتبدو فى حجم التفاحة ، اعنى ان اية نفرة غير طبيعية كافية لاكتشاف ماوراءها .

ـ أظنك بحثت وراء المرايا والالواح والاطباق ، وبحثت وراء الاسرة والحشايا وسائر البسط ؟

ـ بطبيعة الحال ، ولما انتهينا من فحص كل قطعة من الاثاث على هذا النحو ، فتشنا المنزل نفسه وقسمنا سقفه الى اجزاء ، ووضعنا له ارقاما حتى لا تعدونا واحدة منها ، ثم بحثنا قيد كل انملة فى سائر المساكن بالمجهر ، ومنها المنزلان الملاصقان كما قدمت .

قلت مسائلا : المنزلان الملاصقان ؟ لا بد انك عانيت كثيرا فى بحثك ؟

ـ اجل عانينا ، ولكن الجزاء جزيل على هذا العناء .

ـ وهل اشتمل بحثك، الارض التى حول المنازل ؟

ـ ان تلك الارض جميعها مرصوفة بالحجارة ، وقد كان العناء فيها اشد واصعب . وتناول البحث كل ما حولها حتى الطحلب الذى يكمن بين الحجارة . ووجدنا أنها لم تمس ..

ـ وبطبيعة الحال فتشت اوراق د ـ رسه، ولكتب التى تحويها مكتبته ؟

ـ لا شك فى ذلك ، لقد بحثنا كل مجموعة وكل رسالة منها ، ولم نكتف بفحص كل كتاب ، بل قلبنا كل صفحة من كل جزء، ولم نقصر بحثنا على بعض الاجزاء كما يفعل بعض اناس من رجال الشرطة . وكذلك قسنا سمك كل غلاف من اغلفة الكتب بكل دقة ، وفحصنا كل ما فيها بالمجهر فحصا دقيقا ، ولم يكن

يعزب عن ملاحظتنا أثر المساس بغلاف منها أو كعب لو حصل شيء من ذلك . وكان مما تناولناه خمسة كتب او ستة كانت واردة حديثا من عند مجلد الكتب ، ففحصنا اطرافها بالابرة بعناية فائقة .

ـ هل بحثت وراء البلاط الذى تحت البسط ؟

ـ بلاشك . لقد رفعنا كل بساط وفحصنا كل لوح بالمجهر .

ـ والاوراق الموضوعة على الجدران ؟

ـ أجل !

قلت : اذن لقد أخطأت فى بحثك ، وليس الخطاب فى المسكن كما تظن !

قال **رئيس الشرطة** : أخشى ان تكون على صواب فى قولك . والآن بماذا تنصحنى ؟

ـ أن تبحث المساكن بحثا كاملا .

قال **ج** : هذا أمر لاحاجة اليه على الاطلاق . اننى لا اثق بأننى حى أتنسم أنفاس الحياة قدر ثقتى بان الخطاب لا وجود له بالفندق !!

قال **دوبان** : ليس لدى نصيحة خيرا مما قدمت . ان لديك ولاشك وصفا دقيقا للخطاب !

قال : أجل !

وهنا اخرج **رئيس الشرطة** مفكرة ، واخذ يقرأ بصوت مرتفع وصفا دقيقا للخطاب **المفقود** ، ومظهره الخارجى بصفة خاصة ، ثم انصرف عنا وهو مكتئب على نحو لم اعهده فى هذا الرجل البشوش من قبل !

وبعد شهر على التقريب من هذه الزيارة ، جاءنا مرة اخرى ، ووجدنا على مثل حالنا من قبل ، واخذ بيديه كرسيا ، ودخل معنا فى حديث مألوف .

قلت : ولكن ماذا تم فى شأن الخطاب المسروق يا ج ـ اظنك اهتديت اخيرا الى انالوزير لايحمله .

ـ لعنة الله عليه .. لقد أعدت البحث كما أشار دوبان وعبثا كما توقعت !

وسأل دوبان : وما مقدار المكافأة المخصصة لهذا العمل ؟

ـ وكيف ؟ انها مكافأة جزيلة ، ولا أريد ان أذكر كم هى. ولكن امرا لا حرج من ذكره وهو اننى لا ابالى ان اسلم تحويلا من عندى بمبلغ ٥٠ الف فرنك لمن يقدم هذا الخطاب . أن الامر تزداد اهميته يوما عن يوم ، وقد تضاعفت المكافأة أخيرا . ولو بلغت ثلاثة اضعافها فما أنا بقادر على غير مافعلت .

قال دوبان وهو ينفخ دخان بيبته :

ـ اننى اعتقد حقا انك لم تبذل كل ما لديك من جهد ، وانك لفى وسعك ان تبذل مزيدا من جهدك .

ـ وكيف ذلك ؟ وبأى وسيلة؟

ـ كيف ذلك وبأى وسيلة ؟

اتخذ لك مستشارا !! أتذكر القصة التى يروونها عن ابرنش؟

ـ كلا ! لا كان هذا الابرنش!!

ـ نعم لا كان . ولكن كان ذات مرة أن رجلا بخيلا من الاثرياء اراد أن يستخلص رايا طبيا من ابرنش . وأعد لهذا الغرض حديثا من الاحاديث المألوفة فى بعض مجالسه .وعرض حاله على الطبيب كأنه يروى قصة ويتخيلها .

قال البخيل : لنفرض أن الاعراض التى تنتابه كانت كذا وكذا . ماذا تصف لعلاجه ؟

قال ابرنش : يستشير طبيبا ولاشك !!

قال رئيس الشرطة فى شىء من الحيرة :

اننى لراغب كل الرغبة فى الاستشارة واجزيها اوفى جزاء . وانى لاعطى خمسين الف فرنك لمن يساعدنى فى هذه المهمة ..

واجاب **دوبان** وهو يفتح صوانا ويخرج منه دفتره :

اذن يمكنك ان تكتب تحويلا بالمبلغ الذى تشير اليه ، وسأسلمك الخطاب على اثر توقيعك على التحويل ! !

وتملكني العجب، اما **رئيس الشرطة** فقد صعق تماما ، وظل صامتا لا يتحرك وهو ينظر الى صاحبى مستريبا . . وقد فغر فاه وحملق فيه بعينين كأنما تريدان أن تشبا من محاجرهما فلما تمالك نفسه قليلا امسك بالقلم وتردد ، ثم كتب التحويل ووقعه بخمسين الف فرنك وناوله من فوق المائدة الى **دوبان** . . . وتفحص الاخير التحويل جيدا ، ثم وضعه فى محفظته. وفتح خزانته واخرج منها خطابا واسلمه الى **رئيس الشرطة** ، فاخذه يفحصه . . بسرور بالغ ، وفتحه ويداه ترتجفان . . ثم القى نظرة سريعة على فحواه ، وانسل الى الباب ، واندفع اخيرا من الحجرة ومن المنزل ، غير عابىء بما ينبغى من واجب التحية والتوديع . ولم يفه بكلمة واحدة منذ طلب اليه **دوبان** ان يوقع التحويل . . واذ غادرنا اخذ دوبان يشرح لى بعض التفسيرات .

قال :

ـ ان رجال **الشحنة** الباريسيين لهم براعتهم فيما يتبعون من الطرق والاساليب ، وان لهم فطنة فى الملاحظة واحتيالا على معالجة الامور ، ولهم العبقرية والبراعة التى يستلزمها هذا العمل .

فلما شرح لنا **ج** ـ طريقته فى التنقيب وراء **د** ـ ايقنت تماما انه استوفى البحث فى حدود ما يفهمه ويقدره .

قلت :

فى حدود ما يفهمه ويقدره ؟

قال دوبان :

ـ اجل ان الاجراءات التى اتبعت لم تكن فذة فى نوعها فحسب ، بل لقد بلغت غاية الكمال . فاذا كان الخطاب مدسوسا فى الحيز الذى يجرى فيه تنقيبهم فانهم لاشك واجدوه .

وقابلت ذلك القول بالابتسام، الا انه ظهر لى انه جاد فيما يقول ...

واستمر قائلا :

ـ اذن كانت الاجراءات قيمة فى بابها ، وقد عنى بتنفيذها اشد عناية . اما العيب فانما يأتى من اغفال طبيعة الرجل واغفال دخائل هذه الحالة بصفة خاصة.. أن التدابير التى يتبعها **رئيس الشرطة** تجرى مجراها المرسوم بغير اختلاف . وانما يعروه الخطأ لفرط تعمقه واستقصائه، مما يسلم منه تلميذ مبتدىء لا يلجأ فى تفكيره الى مثل هذا التعمق . وقد عرفت طفلا فى الثامنة من عمره نجح نجاحا اعجب الملأ فى لعبة « **الزوج والفرد** » ! وانت تعلم انها لعبة ساذجة تدور على ان يخفى اللاعب كرات صغيرة .. ويسأل الآخر : زوج او فرد ؟ فاذا كان الحدس صحيحا فان صاحبه يربح ، واذا كان خطأ فانه يفقد واحدة . اما الصبى الذى نال اعجابى فقد ربح جميع الكرات من تلاميذ المدرسة قاطبة . ان هذا **الطفل** يبنى حدسه على مبدأ مقرر يرجع الى قوة الملاحظة ، وتقدير مالدى خصمه من الذكاء . فاذا كان نده مثلا غريرا ابله يرفع يده ويسأل : « زوج او فرد » ؟ ويجيب صاحبنا التلميذ (فرد) ويخسر واحدة ولكنه يربح فى الدورة الثانية لانه يقول فى نفسه ان خصمه الغرير قد جعل العدد زوجا ، وكسب فى المرة الاولى، وحسبه من الحيلة على قدر ذكائه ان يجعل العدد فردا فى المرة التالية ، فيقول فى نفسه اذن اجيبه (بفرد) .. يقول ذلك ويربح . فاذا صادفه آخر اذكى من الاول وزن المسألة بهذا الميزان : أن هذا اللاعب سيجد اننى فى المرة الاولى اجبته بـ (فرد) ، فيقول فى نفسه متأثرا بالمرة الاولى : تغيير بسيط بين الزوج والفرد ، كما قدر الغرير الاول ، ولكن سيعاوده تفكير آخر وهو ان هذا التغيير جد ساذج ، وينتهى عزمه اخيرا الى جعلها «زوجا» كالمرة الاولى ، فيهجس فى نفسه ان يقول (زوج) ويقول ذلك ويربح . فهذه الطريقة التى يتبعها التلميذ يسميها رفقاؤه حظا على مافيها من التحليل .. فهل هى كذلك ؟

قلت :

ـ انها ولا شك دليل على امتياز صاحب هذه التقديرات على زملائه !

ـ أجل هى كذلك .. وقد سألت الصبى كيف استطاع ان يكشف أسرار هذه الشخصيات بهذه الطريقة التى ادت الى نجاحه ؟ فكان جوابه : اننى حينما اريد ان أزن مايجوى انسان من الذكاء أو الغباء ، أو الخير أو الشر ، أو اعرف مايجول بخاطره فى اللحظة التى اختبره فيها ، أجعل تعابير وجهى مماثلة بقدر الامكان لما يرتسم على وجهه ، ثم انتظر لارى مايجول بخلدى من الافكار والعواطف التى تتفق وتتجاوب مع هذه التعابير ! .

هذا الجواب الذى القاه التلميذ يكمن فى اعماق ذلك الدهاء الذى اشتهر به « روشفكول وبوجيف ومكيافيلى وكابا نيللا » !

قلت :

ـ وهذه المحاولة من امرىء يريد أن يضع نفسه فى موضع خصمه فى تسلسل تفكيره ، تتوقف ـ ان صح مافهمت منك ـ على صدق قياس التفكير عند ذلك الخصم .

واجاب **دوبان :**

ـ انها تتوقف فى قيمتها العملية على ذلك . وان رئيس الشرطة ورجاله كثيرا مايخفقون لانهم اول الامر يغفلون عن هذا القياس ، ويفرضون أن الناس جميعا على غرارهم ، وانهم يحتالون على مثال حيلتهم .. انهم فى ذلك على كثير من الحق ، فان ذكاءهم يصف لهم ذكاء العامة وصفا صادقا .. ولكنهم اذا اختلف تفكير **المجرم** وتفكيرهم .. أحبط المجرم عملهم بطبيعة الحال . يحدث هذا اذا ارتفع التفكير عن تفكيرهم ، واذا هبط عن طبقته فى كثير من الاحوال . وليس لديهم تصرف فى طرق البحث التى يقومون بها . وانهم ليبذلون كل ما لديهم من جهد عند الضرورة ، وحيث تغريهم **المكافأة**

الجزيلة .. فيتمادون فى اتباع طرقهم البالية ، ولن يحيدوا قيد شعرة عن مبادئهم الراسخة. ماذا فعلوا فى موضوع د — مثلا مما يغاير تلك المبادىء ؟. ماكل هذا التنقيب ، والتعقيب ، والاستماع ، والبحث بالمجهر ، وتقسيم سقف البيت الى مربعات وقراريط ؟؟ . ماذا فى هذا الا المبالغة فى اتباع مبادىء مرسومة تطبق على كل فكرة مما تعوده **رئيس الشرطة** فى اضطلاعه زمنا طويلا بهذه الشئون . الا ترى انه قد اعتقد أن سائر الناس لايعمدون الي ثقب الكرسى يخفون به الخطاب فحسب ، ولكن على الاقل يتبعون هذه الطريقة فى اى جهة او اى ركن آخر مدفوعين بالفكرة نفسها ؟ كذلك ان هذه الطرق فى التنقيب عن الاشياء المختفية ، انما هى منطبقة على الحوادث المألوفة من عامة الناس . ان سائر احوال الاخفاء يحتمل اكتشافها بهذه الطريقة ، ولا يعتمد فى اكتشافها على الذكاء بتة ، ولكن على العناية والصبر وعزيمة الباحثين . وحيث يكون الامر له خطر عند رجال السياسة ، او يكون الجزاء عنه جزيلا ، فان طريقة البحث لن تتغير فى جوهرها . وستعرف الآن ما اقصد .. حين اقول ان **الخطاب** المفقود اذا كان قد اخفى فى اى مكان على نمط **رئيس الشرطة** ، فان اكتشافه امر لاشك فيه . ان صاحبنا رئيس الشرطة قد ضلل ، وكان اساس تضليله اعتقاده ان الوزير رجل ابله لشهرته بنظم **الشعر** ، وهو يعتقد ان سائر **الشعراء مجانين** . وانه فى حكمه على الشعراء جميعا بالجنون لآثم الى حد الاجرام !!

وسألت :

— ولكن اصحيح ان هذا هو **الشاعر** ، اننى أعرف أن هناك أخوين ، وكلاهما له شهرة بالادب ، وأعتقد أن **الوزير** كتب عن علم فى **نظرية** « حساب التكامل » ، فهو رجل **رياضى** وليس شاعراً !!

— أنت مخطىء فى ظنك ، واننى أعرفه حق المعرفة ، انه يجمع بين الملكتين ، فهو شاعر ورياضى معا ، ويستطيع أن يزن الامور . واذا اقتصر أمره على أنه رجل رياضى ، فلن يستطيع ان يزن الامر بتاتا ، ومن ثم يقع فى براثن **رئيس الشرطة** !...

قلت :

ـ انك تدهشنى بهذه الآراء التى يناقضها كل من فى هـذا العالم ! انك لاتنظر بعين الاعتبار الى الآراء التى هضمت مدى القرون ، ولطالمـا كان الميزان الرياضى هو الميزان المرجـح فى سائر الاحوال منذ آماد بعيدة.

وأجاب **دوبان** متمثـلا قول شنفور :

ـ اننى أراهن على ان كل فكرة عامة يتوارثها الناس ، ماهى الا حرافة لاتفاق الناس عليها جميعا !

ـ انى أعتقد ان **الرياضيين** قد صنعوا غاية مافى الوسع لاذاعة هذا الخطأ، ولايقلل من خطئه الاجماع على صوابه . وانهم قد أقحموا كلمة التحليل على مصطلحات علم **الجبر** ، وكان الفرنسيون مصدر هذا التضليل . ولـكن اذا كان للتعبير شـأن يذكر ـ أعنى اذا كانت الكلمات تستمد قيمتها من مجرد الاستعمال ، فالتحليل الذى يوصلنا اليه **الجبر** أشبه مايكون بقولنا ان كلمة الجبر تشمل معنى الاجبار ، (١)

وان كلمة **الرياضة** تشمل معنى الصلاة ومعنى اللعب ، من قولنا رياضة الروح ورياضة العدو والسباحة !

قلت :

ـ لاشك ان بينك وبين رجال الجبر فى باريس ضغينة ... ولكن اتمم حديثك !.

ـ اننى أنبذ القضايا العقلية التى تبنى على غير المنطق المجرد ، ولا أحسب لها أية قيمة ، وأعارض النتائج العقلية التى تأتى عـن طريق الدراسة الرياضية . . ان الرياضيات هى علم الشكل والعدد ، والتفكير الرياضى ماهو الا تطبيق للمنطق فى حدود الاشكال والاعداد، والخطأ الـكبير هو اعتقـادنا أن الحقائق التى يسمونها **(الجبر المجرد)** هى حقائق مطلقة ، أو منفصلة عن المحسوسات ، وانه لخطأ فاحش

---

(١) هذه الكلمات فى الاصل ترجع الى المشـابهة بين مادتها فى اللاتينية ومادتها فى الانجليزية . وقد فيرناها بمايشابه هـذه العلاقة بين المصطلحات العربية .

يدهشني أن يشيع هذا الشيوع مع فرط وضوحه ... ان المقررات الرياضية ليست حقائق مطلقة ، وما صح من وجهة العلاقة بين الشكل والعدد قد يكون باطلا غاية البطلان من وجهة الاخلاق . ففي هذا العلم - **علم الاخلاق** - لا يصدق على الحقيقة دائما أن يكون الكل مجموع الاجزاء . وكذلك علم الكيميا ، لا تصدق هذه القاعدة عليه ، فلا يلزم من وجود قيمة مفردة أن تجتمع هذه القيم عند الامتزاج والاتصال . وكم من حقائق رياضية لا تحسب من الحقائق الا بالنسبة الى موضوع أو مقدار ، ولكن الرياضيين يبنون تفكيرهم على حقائقهم المكتسبة بحكم العادة ...

ان **بريان** يذكر فيما سماه **بالاساطير** أنواعا مماثلة لهذا الخطأ حين يقول : ان أساطير **الوثنية** غير مقبولة ، ولكننا مع هذا ننسى هذه الحقيقة ونستخرج منها نتائجها كأنها حقائق قائمة . وهؤلاء علماء الجبر في وثنيتهم العقلية يعتقدون أن الخرافات مقبولة ومصدقة ، ولا يستخرجون النتائج سهوا من الذاكرة ، بل عجزا في التفكير .. واوجز فأقول : انني ما صادفت الرياضي الصميم الذي يمكن أن يعول عليه في غير الجذور والاشكال(١)

وقال **دوبان** متمما حديثه :

- وانا لا أزيد على أن أضحك من ملاحظاته . . انني أعني ان **الوزير** لو كان رياضيا فحسب لما كان برئيس **الشرطة** من حاجة الى ان يمنحني هذه المكافأة .. انني عرفته رياضيا وشاعرا ، وكانت اقيستي تلائم مقدرته والظروف التي تحيط به . لقد عرفته رجلا من رجال البلاط ، رجل احابيل قوي الشكيمة ، ومثل هذا الرجل لا يفوته الحذر من اساليب رجال الشحنة ولا يغفل عن الشباك التي كانت تنصب له ، وقد برهنت الوقائع على ذلك . ولاشك انه ادخل في حسابه هذا التنقيب الذي اجرى وقاموا به في مسكنه . وان غيابه من الفندق الذي أعده الضابط عوناله للوصول الى غايته ، أن هو الا خدعة كي يدع الفرصة سانحة لرجال الشرطة ليفتشوا ما

---

(١) هنا معادلة جبرية حذفناها من المتن ، ونسبتها هنا للمراجعة :
س٢ + ١ س = ع

شاءوا ، ويقتنعوا بأن الخطاب ليس هناك ؛ كما اقتنع **رئيس الشرطة** .. ولقد شعرت كذلك بأن سلسلة التفكير التى تعودها الشرطة لابد قد وردت جميعها على خاطر **الوزير** ، وانها بلاشك ستقوده الى نبذ كل طريقة مألوفة للاخفاء والروغان .

ورأيت أنه قمين أن يلجأ الى البساطة مضطرا ، أن لم يلجأ اليها عفو الخاطر باختياره . وانك لتذكر كيف أغرب **رئيس الشرطة** ضاحكا حينما قلت فى مستهل حديثنا انه عانى كثيرا من المتاعب لاكتشاف هذا اللغز الغامض .. ! وما كان قد غمض عليه الا لانه واضح غاية الوضوح !!..

قلت : اجل ، وانني لاعرف كفايته تماما ، وقد ادركت انه وقع فى حيرة وارتباك !

وواصل **دوبان** حديثه فقال:

ـ ان المحسوسات تفيض بما يشابه غير المحسوسات ، ومن هنا كان هنالك مسحة من الحق فى تلك القضية الخطابية التى تزعم ان الامثلة والمجازات ضرورية لتمكين الحجج العقلية وتعزيزها ، كضرورتها فى تجميل الاوصاف وزخرفتها . ومبدأ القصور الذاتى مثلا يبدو متشابها فى عالم الطبيعة وما وراء الطبيعة ، وليس هذا المبدأ فى الطبيعيات بأصدق منه حين نطبقه على قولنا ان الجسم الكبير يحتاج لتحريكه الى جهد أكبر من الجهد الذى يحرك الجرم الصغير ، وانه أصعب دفعا وتحريكا من ذاك . ويسرى هذا الحكم على حركة العقول الكبيرة والعقول الصغيرة . فان العقل الكبير على قوته حين يتحرك ، ليصعب فى مبدأ الامر دفعه الى الحركة . الم تلاحظ اى اللافتات أرعى للنظر . ؟

قلت : اننى لم التفت الى هذا من قبل !..

قال : هناك لعبة محيرة تلعب على الخرائط ، ونحواها أن يذكر فريق من اللاعبين كلمة او اسما يقترح الاهتداء اليه . . فالحاذق من اللاعبين يختار ابرز الكلمات والاسماء التى يتخطاها الباحث الجاهل ظنا منه أن البحث يستلزم لامحالة أن ينظر فى الخفايا والمجهولات !!

وكذلك الكلمات الكبيرة المنقوشة على اللافتات ، فانها مما تتخطاه النظرة الاولى الى ماهواخفى منها واحوج الى الانتباه. وتتشابه فى هذا الامر نظرة البصر ونظرة البصيرة .

وهذا امر يعلو على متناول **رئيس الشرطة** كما يظهر ، فلم يفكر قط فى احتمال وضع الوزير للخطاب معرضا لاول نظرة(١)

فلما اختمرت هذه الافكار فى راسي تزودت بمنظار اخضر ، وتوجهت صباح يوم مشرق الى الفندق الذى يقيم فيه الوزير ، ووجدت **د ـ** بمقره يتأفف ويتكاسل ويتباطأ كعادته ، ويصطنع انه فى غاية الاعياء ، وربما كان انشط انسان على وجه الارض حين ينفرد بنفسه .

ولكى اكون معه على سواء ، شكوت ضعف عينى وضرورة وضع منظار عليها . وتحت ستارها تفحصت سائر انحاء الحجرة بينما كنت اظهر اننى لا اهتم الا بحديث مضيفى .

ولقد وجهت انتباهى خاصة الى مكتب كبير كان يجلس على مقربة منه ، وكانت عليه خطابات واوراق مختلفة ، موضوعة بطريقة مشوشة مع آلات موسيقية ، وكتب شتى ، ولم اجد هنالك ما يلفت النظر ..

ثم وقعت عيناى اخيرا ـ وهما تتفحصان الحجرة ـ على صندوق من الورق المقوى ، مما يستعمل فى وضع البطاقات ، يتدلى من خيط ازرق معلق فى اكرة نحاسية فوق الموقد . ويتألف هذا الصندوق من ثلاث عيون او ربع ، وبداخله خمس بطاقات او ست بينها **خطاب** منعزل .. كان هذا الخطاب قذرا ويعلوه الغبار ، ممزقا من وسطه ، كأنما اراد صاحبه ان يمزقه ثم عدل عن ذلك . وكان عليه خاتم كبير اسود يحمل علامة باسم **د ـ** ظاهرة لكل من يراه ، وعنوانه مكتوب بخط نسائى دقيق موجه الى **د ـ الوزير** نفسه ، ملقى بغير عناية فى متناول اليد ، ويبدو مهملا فوق الصندوق .

وادركت انه هو الخطاب الذى ابحث عنه عندما القيت نظرى

---

(١) هنا سطور قد استطرد فيها الكاتب الى الشرح والتكرار مما يغنى عنه ماتقدم فى هذا المعنى .

عليه . ولاريب انه كان يبدو فى كل مظاهره مختلفا تمام الاختلاف عن الخطاب الذى تلا علينا **رئيس الشرطة** وصفا دقيقا له . فهنا الخاتم كبير اسود عليه علامة **د ـ** ، وهذه العلامة كما وصفها حمراء ، وعليها السلاحان الملكيان يمثلان اسرة **س ـ** ، وهنا العنوان موجه للوزير بخط **نسائى** دقيق ، بينما هو فى الثانى موجه الى شخصية ملكية بصورة واضحة المعالم .. الا انه كان منطبقا تمام الانطباق من ناحية الحجم فحسب . ولكن هذا الاختلاف الشديد ، وهذه القذارة التى لا توافق ذاب الوزير فى عامة احواله تشعر بأنه تعمد ان يصرف نظر الباحث عن الاهتمام بهذه الورقة .

وقد اطلت زيارتى عنده وانا مستغرق فى بحث جلل بينى وبين الوزير حول مسألة اعرف انها لابد تثير اهتمامه وتهيج خواطره ، وكان كل انتباهى فى الحقيقة منصبا على الخطاب . وقد وضعت فى ذاكرتى منظره من الخارج وموضعه من الصندوق ، ودفعت عن نفسى آخر الامر سائر الشكوك والهنات التى ربما كانت تعترض تفكيرى فى هذا الشأن . وتاملت اطراف الورقة فوجدتها مهلهلة بغير داع ، كأنها من سقط المتاع ، وقد طويت مرة ثم ضغطت واعيد طيها وضغطها على الناحية الاخرى فوق الحروف والخطوط التى طويت عليها اول مرة .. كان هذا الاكتشاف كافيا .. ! وقد تبين لى ان الخطاب قد قلب من الداخل كما يقلب القفاز ، واعيدت تسويته ، وختم من جديد . وهنا حييت الوزير وانصرفت فى الحال ، وتركت على المائدة علبة سعوط ذهبية .

وفى صباح اليوم التالى عدت لاطلب العلبة ، فاستعدنا الحديث كما بدأناه بالامس فى حرارة واهتمام . وبينما نحن مشغولان على هذا النحو سمع طلق نارى ينبعث من الخارج تحت نافذة الفندق مباشرة ، وتلاه صرخات فزع متوالية وصيحات من الفوغاء ، واندفع **د ـ** الى شرفة ففتحها على مصراعيها ونظر خارج الفندق . وتقدمت الى صندوق الخطابات واخذت الخطاب ودسسته فى جيبى ، ووضعت مكانه خطابا مماثلا له فى مظهره الخارجى ، وكنت قد اعددته فى مسكنى .

بدقة وعناية ، وأحكمت تقليد الخاتم الذى وضعه د ـ بخاتم مصنوع من الخبز .. !!

كان الهياج الذى وقع فى الشارع قد اثاره رجل مقنع اطلق مقذوفا ناريا بين جمع من النساء والاطفال . ووثب يعدو كأنه مجنون او سكران ، وكان المسدس فى الحقيقة لايحمل رصاصا. فلما ذهب عاد د ـ من النافذة التى نبعته اليها ، ثم اسرعت فودعته ، وكان المجنون المزعوم مطلق القذيفة ، رجلا من اتباعى.

قلت : وماهو الغرض الذى من اجله وضعت خطابا مماثلا للخطاب الاول ؟ الم يكن من المستحسن ان تأخذ الخطاب عنوة عند الزيارة الاولى ثم تنصرف ؟

اجاب **دوبان** : ان د ـ رجل يائس عصبى المزاج ، والفندق الذى ينزل فيه لا يخلو من الخدم يأتمرون بأمره .. فاذا هجمت على الخطاب تلك الهجمة التى تقترحها فلا ابرح حضرة **الوزير** وانا بقيد الحياة ، واختفى اسمى من ذلك اليوم ، فلا يذكره احد من افاضل سكان باريس .. .

الا ان لى عدا هذا وجهة غير الوجهة التى تهم **رئيس الشرطة** من هذا الخطاب ، فانك تعرف مبادئى السياسية ، وانى فى هذا الامر انما اعمل كرجل مشايع للحزب الذى يناصر تلك السيدة، وان **الوزير** قد وضعها تحت سيطرته ثمانية عشر شهرا ووضعته الآن تحت امرتها . وانه ليستمر فى سلطانه وعنفه وهو يعتقد ان الخطاب لم يخرج من حوزته الى الآن ، ومن هنا يقيم نفسه بمدرجة الهلاك . ولن يعد سقوطه متى سقط هوجا ، بل سخفا وخرقا .. ! ويحسن هنا ان اردد قول من قال :« ما اسهل السقوط على من سقط » ، وكما يقول **كتلانى** فى الغناء : « ان الصعود اسهل كثيرا من الهبوط » . ولست الآن اعطف عليه او على الاقل لست اشفق عليه ، فهو مثل للعبقرى الذى لا يتحرج ولا يتأثم . ولوددت الآن ان انفذ الى سريرته لارى كيف يدور تفكيره حين تتحداه السيدة صاحبة الخطاب ، فينكفىء راجعا الى موضعه المخبأ فيه ويعلم انه قد ضاع .. !!

ـ وكيف ذلك .. ؟ هل اودعت ذلك الخطاب كلاما موجها اليه .. ؟

ـ وكيف لا . . ؟ فلم يكن من اللائق ان اترك داخل الخطاب فارغا .. فهذه اهانة ..

لقد اساء الى د ـ يوما فى فينا ، وقلت له كأننى امزح : ساذكرها لك . واحسبه سيتشوف الى العلم بحقيقة الغريم الذى غلبه ذكاء وحيلة ، فلم اشأ ان احرمه من دليل يهديه الى مفتاح السر ، فكتبت فى وسط الورقة البيضاء هذه الكلمات :

« انه لمصير مشئوم اذا لم يكن جديرا باتريه فهو جدير بثيست » ، وهى كلمات قرأتها فى رواية **كريبيون (١)**

(١) كريبيون شاعر فرنسى من مخضرمى القرنين السابع عشر والثامن عشر ، الف رواية عن قصة اتريوس وثيست ، وهما اخوان من ابطال الاساطير اليونانية اغرى احدهما وهو ثيست امراة اخيه فانتقم منه هذا بذبح ولده واطعامه لحمه

باطية النبيذ الشريشى
« الامنتيلادو » (١)

لادجـار الان بو

Edgar Ellen Boe

صبرت جهد الطاقة على شتى الاساءات من **فورشـناتو** ، ولـكنه حين اجترا على اهانتى آليت لانتقمن منـه .. ان من يعرف خلائقى يعرف اننى لا اجهر بتهديدى ، ولكننى ادرك ثارى آخر الامر . وهذا امر مفروغ منه . واننى لن اقنع بعقـاب خصمى ، بل امعن فى العقاب ، وليس من بلوغ الثار ان يتعرض صاحبه لاذى وهو ينتقم لنفسـه ، وليس من بلوغه كذلك ان يجهل غريمه من اين اصيب .

اننى كما احب ان يفهم ، لم اقـل ولم أعمل عمـلا يدعو **فورشناتو** الى اساءة الظن بمقصدى ..

فكنت اهش فى وجهه على عادتى ، ولم يـكن ليسـتبين من وراء ابتسـامتى انها تخفى عزيمة القضاء عليه .. !

كانت فى **فورشناتو** ناحية من نواحى الضعف ، وان كان رجلا يجل ويخشى باسه فى سائر النواحى الاخـرى .. وكان يزهى بمعرفته بالنبيذ ، وقليل بين الايطاليين من يتذوق روح الفن الحقة ، وان كان همهم على الدوام ان يتحينوا الفرصة للاحتيال على اصحاب الملايين من الانجليز والنمسويين .

كان **فورشناتو** دجالا فى فن التصوير كابناء وطنه ، وان كان

---

(١) هو نبيذ خفيف عطرى ذهبى اللون يصنع فى مدينة شريش بجنوب الاندلس ، ويوجد منه نوعان مر وذو غضاضة Amontillado

ثقة فى فن الانبذة ، واننى لعلى غراره فى هـذا الصـنف ، اذ كنت على خبرة بالانبذة ، وكنت ابتاع المقادير كبيرة منها كلما استطعت .

صحبت صديقى هذا مساء ليلة من ليالى « **المساخر** » الصاخبة ، ولاقانى بحرارة بالغة اذ كان مغرقا فى شرابه . وكانت عليه ملابس مختلفة الالوان : يلبس حلة مشدودة على جسمه ، وعليها شارات الجماعة التى ينتسب اليها ، ويضع على راسه قبعة تتدلى منها جلاجل صغيرة .. فهششت للقائه وكدت لا انتهى من مصافحته ابدا .. !

قلت له : اننى جد سعيد بلقائك يا صديقى **فورشناتو** . انك تبدو اليوم غاية فى حسن الطلعة ، والاناقة . لقد وقعت يدى على باطية من النبيذ الذى يبيعونه باسم « **الامنتللادو** » واننى ليخامرنى الشك فى جودته واصالته .. !

قال : وانى لك ذلك .. ؟ باطية من الامنتلادو .. ! ! هذا مستحيل ، وفى ايام المساخر ايضا .. !

وقلت له : ان لى شكوكى ، واننى لغفلتى دفعت فيها ثمنا باهظا دون ان استشيرك ، ولكن لم اجدك ، وخفت ان تضيع منى الصفقة ..

ـ امنتللادو .. ! !

سأدعك فى شغلك هنا واذهب الى « **لوشيزى** » فهو الرجل الوحيد الذى له خبرة بهذا النوع ..

ـ ان **لوشيزى** لايميز بين نبيذى **شريشى**(١) حلوه ومره ، وان كان بعض ذوى الغفلة يظنون انه يجاريك فى المعرفة .

ـ هلم نذهب ..

ـ الى اين .. ؟

---

(١) نبيذ عطرى يصنع فى جنوب اسبانيا وهو من نوعين : Manzanillo, Amontillado الاول حلو والثانى خفيف فيه غضاضة ، وتختلف قوة الكحول به بين ١٧ـ٢١ درجة

ـ الى مخابئك .

ـ كلا يا صديقى .. اننى لا اريد ان اثقل عليك ، وانت مرتبط بلقاء **لوشيزى** ..

ـ لست مرتبطا باحد. هلم !

ـ كلا يا صديقى . . ليس الامر انك مرتبط بموعد ، ولكن هذا البرد الشديد يضايقك ، وان للمخابىء رطوبة لاتحتمل ، وارضها تنز بالاملاح .. !

ـ فلنذهب على أية حال . انالبرد لا يهمنى .. **امونتلادو** ! لقد غششت فيه . اما لوشيزى فهو لايميز بين نبيذى شريش !

واخذ **فورشناتو** بذراعى وانصرفنا . وكنت اضع على وجهى قناعا من الحرير الاسود ، وأتدثر بمعطف مشدود على جسمى ، وسمحت لفورشناتو أن يسرع بى نحو دارى .

كان منزلى خاليا من **الخدم** ، فقد تسللوا الى أفراح **المساخر** بالمدينة يساهمون فيها ، وقد أخبرتهم بأننى لاأعود قبل الصباح ، وان كنت قد اعطيت أمرى بالا يتحركوا من المنزل ، وانها لأوامر كافية كما أعلم ... الا أننى أعلم كذلك أنهم سيختفون ساعة أوليهم ظهرى !!

وأخرجت من أدراجهم مصباحين (شمعدانين) وأعطيت أحدهما لفورشناتو وقدته من حجرة الى أخرى ، حتى وصلنا الى المدخل الذى يفضى الى المخابىء ، وانحدرت من سلم حلزونى طويل ، ودعوته أن ينزل منه بحذر وهو يتبعنى ، حتى انتهينا الى آخر الدرج ، ووقفنا معا على الارض أمام مقابر مونتريزر التى أشبعتها الرطوبة .

وكانت قامة صاحبى تترنح ، والجلاجل التى على قبعته تصلصل كلما تحرك ..

قال : أين الباطية ؟

قلت : ستصل اليها بعد قليل . ولكن عليك أن تحترس من تلك الانسجة البيضاء التى تلمع من جدران هذه الكهوف !

ثم اتجه نحوى وحملق بعينيه وحدقتاه تنضحان سكرا !

وسألنى أخيرا · أهذه أرض ذات أملاح ؟

قلت : أجل انها أرض سبخة ذات أملاح · متى نالك هذا السعال؟

وراح يسعل ويسعل ، ثم توقف صديقى المسكين وهو لايقوى على الاجابة ····

ثم قال : لا شىء !

قلت : هلم ··· وأظهرت العزم على العودة ·· وقلت :

ـ سوف نعود من حيث أتينا ·· ان صحتك ثمينة ، أنت رجل غنى مبجل محبوب وسعيد · · كما كنت أنا يوما من الايام · وانك لتفتقد اذا ما غبت · أما أنا فلا يؤبه بى · لنعد أدراجنا · انك قمين أن تصاب بمرض ، وانى غير مسئول ، اذا ما أصابك شىء من جراء هذا · ثم أمامنا موعدك مع **لوشيزى** ···

قال : كفى · انى لا يهمنى السعال أبدا · سوف لا أموت من السعال !

وأجبته : هذا صحيح ! صحيح ، والحق أننى لا أريد أن أزعجك بغير جدوى ، الا أنك خليق ، أن تحذر كما ينبغى · ان جرعة من هذا العقار تحمينا رطوبة هذا المكان ·

وتناولت زجاجة من الزجاجات الكثيرة المصطفة على الرف ، وضربت رأسها ، ثم قدمت اليه النبيذ وقلت : أحتس · ··

ورفعها الى شفتيه وهو ينظر الى بالفة ومودة ، ثم التفت وأشار برأسه والجلاجل تصلصل من فوقها :

ـ اننى أشرب فى حب هؤلاء الموتى الراقدين من حولنا ···

ـ وأنا أشرب فى حياتك الطويلة ·

ثم عاد فأخذ بذراعى وانطلقنا ··· ·

ـ ان هذه الكهوف ممتدة الى بعيد · ·

وأجبت : ان أسرة **مونتريزر** كانت كبيرة كثيرة العدد ··

ـ لقد نسيت ذراعيك !

ـ هذه قدم كبيرة مذهبة فى حقل من اللازورد ، تسحق بقايا

افعى تغرس انيابها فى عقبها .. تلك شارة القوم ...

ـ وماذا يقول الشعار ؟

ـ كل امرىء يجزى بما فعلت يداه ...

ـ اجل .

وكان النبيذ يلتمع فى عينيه، والجلاجل تصلصل على رأسه ، وقد أذكى النبيذ خيالى . وسرنا وسط جدران من العظام المختلطة بالبواطى فى كهوف المقابر ، ثم وقفت واجترأت ، فطويت مرفقه تحت ذراعى !

قلت : أنظر هاهى الاملاح تتراكم وتطفو على الأقبية كأنها الطحلب . ونحن الآن تحت قاع النهر ، وقطرات الندى تتساقط على العظام .. هلم .. لنعد قبل أن يفوت الميعاد ، ويفتك بك السعال !

قال : كلا ليس بى شىء . لنستمر فى طريقنا . ولكن ناولنى قدحا من الشراب قبل كل شىء ...

ففتحت له قنينة من نبيذ الجراف أفرغها فى جوفه جرعة واحدة، وكانت عيناه تشعان بريقا وحشيا ، وقهقه وقذف بالزجاجة وهو يشير اشارة لم أفهمها ..

نظرت اليه دهشا ، ثم أعاد الحركة مرة ثانية .

قال : ألم تفطن لاشارتى ؟

قلت : كلا !

ـ اذن لست من الاخوة !

ـ وكيف ذلك ؟

ـ لست من البنائين الاحرار!

قلت : بلى . بلى .

قال : انت ؟ كلا .. مستحيل !

وأجبت : بل أنا ماسونى ..

قال : اذن أبرز العلامة !

قلت : هاك . واخرجت المسطار من وراء معطفى !

قال : أنت تسخر بى .. ؟

وتراجع خطوات وهو يقول : فلنذهب الى الباطية .

قلت : ليكن .

وأعدت المسطار تحت عباءتى ، وأعدت اليه ذراعى ، واستندت عليها بقضه وقضيضه ، وواصلنا سعينا نبحث عن الامنتلادو بين أقباء هابطة ، حتى وصلنا الى سرداب عميق كان فساد الهواء فيه يكاد يطفىء المصباح .. !

وقد ظهر فى نهاية السرداب طريق ضيق ، كانت جدرانه محاطة برفات الاجسام البشرية طبقة فوق طبقة الى السقف على مثال مقابر باريس الكبرى ... وكذلك كانت الجوانب الثلاثة من قبو السرداب ، أما الجانب الرابع فقد تهافتت عظامه على الارض . ووجدنا داخل الحائط بمعزل عن العظام مدخلا آخر عمقه أربع أقدام وعرضه ثلاث وارتفاعه من ست الى سبع أقدام . وكان بناته أعجلوا دون تمامه لامر من الامور ، ولكنه اقيم ليصل بين سقفى المقابر ، ومن ورائه جدار يحيط به من الحجر الصوان .

لم يستطع **فورشناتو** أن يرفع نور شعلته لينظر الى عمق هذا السرداب ، ولم يمكنه على ضوئه الضئيل أن يستبين مداه .

وتقدمت منه قائلا : ها هو الامنتلادو ، ولا تقل لصاحبنا **لوشيزى** ...

فقاطعنى وهو يترنح فى غيراتزان الى داخل الحفرة ، وقال :

ـ ان صاحبى لغدم جاهل !

وتبعته على الاثر . فبلغ نهاية السرداب فى لحظة ، ثم وقف عند صخرة وتملكته الدهشة .. وفى لحظة أخرى كنت قد قيدته بذلك الحجر الصوان . وكان على سطحه حلقتان بين الواحدة والاخرى قدمان مستويتان فى احدهما سلسلة قصيرة وبالأخرى قفل ... لم استغرق فى تطويق خصره بالسلسلة بضع ثوان ، وهو فى ذهول شله عن الحركة ، ثم ادرت المفتاح وعدت ادراجى من السرداب .

نادیته : تلمس بیدیك الجدران، وانك لن تنجو من رطوبتها ، وانها لشدیدة الرطوبة حقا .. فدعنی أتوسل الیك مرة أخری أن تعود ... ماذا ؟ ألا ترید ؟.. اذن یجب أن أترکك حیث انت ، وسأبذل الیك مافی وسعی من صنوف الرعایة وانها لقلیلة !

وصاح صاحبی ، ولما یفق من دهشته : الامنتلادو !

واجبت : حقا.. الامنتلادو !

قلت هذا وأنا منصرف الی العظام أبعدها . وتکشفت عن شیء من الطین وحجر البناء .. وبهذه المواد والمسطار الذی معی اندفعت أقیم جدارا علی باب السرداب . وما کدت أضع أول حجر حتی أخذ یفیق من السکر . وکانت بوادر ذلك صوت أنین ینبعث من داخل السرداب . لم یکن صوت رجل تملکه الخمار ، وران علی المکان صمت طویل ، فوضعت الحجر الثانی والثالث والرابع .

وهنا سمعت السلسلة تضطرب اضطرابا عنیفا اصغیت الیه بضع دقائق راضیا قریر العین . ثم انتهیت من عملی ، وجلست فوق العظام . فلما سکتت صلصلة الجلاجل والقیود ، استعدت المسطار ، ووضعت الحجر الخامس والسادس دون مقاطعة . ووقفت ورفعت الشعلة علی راس البناء ، وقد القت بصیصا من الضوء علی الهیکل الذی بداخله . . وراحت الصرخات تتوالی عارمة هوجاء من فم الرجل المکبل ، کأنها تجتذبنی من ورائی ، فترددت لحظة ، ثم استولت علی هزة عنیفة .. وجردت سیفی أتحسس به طریق السرداب ، فعاودتنی الطمانینة بعد تفکیر هنیهة ، ووضعت راحتی علی جدار البناء المتحجر مستریح الفؤاد .. !

عدت الی الحائط ، وأنا أحکی صیاح ذلك الدفین بصیاح مثله ، وأردد صداه ، بل أساعده علی المزید وأفوقه فی شدته . وکدت أنتهی من عملی اذ وضعت الحجر الثامن والتاسع والعاشر . فاذا بقهقهة تنبعث من السرداب منخفضة النبرات ، وقف لها شعر رأسی ، وتبعها صوت حزین تبینت بجهد جهید أنه صوت **فورشناتو** النبیل ... کان یقول :

ـ ها . ها . ها .. انها لفکاهة طریفة حقا . لعبة ناجحة ،

سنضحك منها كثيرا عند عودتنا الى اللهى على مائدة النبيذ .. . ها ها . هاها ! !

قلت : والامنتلادو ؟

ـ هى . هى . هى ... نعم الامنتلادو ! ولكن ألسنا تأخرنا الآن . اليسوا فى انتظارنا فى ذلك الحى : السيد فورشناتو . وباقى الجمع . فلنذهب الآن .

ـ بحق الله . يا مونتريزور !

قلت : أجل . بحق الله !

واصبت أناديه ، وأجيب عن هذه الكلمات . ولكن دون جدوى .

ثم صحت بصوت عال : فورشناتو !!

ولم أسمع جوابا .

ـ فورشناتو !؟

ولم أظفر بجواب ، وقذفت بشعلتى من الكوة الباقية ، فلم يجبنى غير صليل الجلاجل والقيود ، وانقبض صدرى من رطوبة المكان ، فاسرعت الى عملى أنجز البقية الباقية منه ، ووضعت الحجر الاخير فى مكانه . والقيت عليه وعلى البناء الجديد سورا من العظام التى بقيت ثمة نصف قرن من الزمان ، دون أن تزعجها يد الانسان .

مارك توين

١٨٣٥ ــ ١٩١٠

كانت رسالة الأدب الأمريكى فى القرن التاسع عشر ــ كما أسلفنا ــ أن يكشف العالم القديم ، وأن يعطى امريكا ادبها الخاص ، وكان **مارك توين** احد الاعلام الذين قاموا بأداء هذه الرسالة ، فاصبحوا ــ فى مدى حياتهم ــ من الكتاب القوميين والكتاب العالميين فى وقت واحد .

ولد بالولايات الوسطى ، وانتقل مع ابيه الى الغرب ، فعرف فى صباه كثيرا من أقاليم بلاده ، وكان ابوه من اصحاب الخطط و « **المشروعات** » فى طلب الغنى ، ولكنه مات فقيرا وابنه فى الثانية عشرة من عمره ، فعمل مع اخيه **اوريون** فى صحيفته صفافا ومحررا مساعدا ، ثم خرج فى طلب **الرزق** ، فعمل فى الملاحة وعاهد امه ــ ويده على **الكتاب المقدس** ــ لا يمسكن بورقة لعب ولا يشربن قطرة خمر . . ولما نشبت الحرب الاهلية اشترك فيها ، ثم تخلى عنها ، ولم يزل يتنقل بين **الاقاليم** ويزاول العمل بعد العمل حتى انقطع للصحافة **والأدب** . . وساح فى البلاد الاوربية وغيرها ، فمارس حياة العصر ، علمها وخاصها ، بالمعاينة والتجربة العملية ، وحصل فلسفته لنفسه بالمشاهدة والنظر القريب قبل البحث **والاطلاع** ، ولم يكن نصيبه من البحث والاطلاع مع هذا بالقليل .

وعرفت الجامعات فضله ، فوجهت اليه جامعة يال **Yale** فى سنة ١٨٨٨ لقب **استاذ** فى الفنون ، ثم وجهت اليه جامعة

ميسوري لقب دكتور في الآداب، ثم دعته جامعة **اكسفورد** (سنة ١٩٠٧) للاحتفال بمنحه لقب **دكتور** ، فكان احتفالها به مناسبة صالحة لابراز مكانته العالمية التي لم يرزقها من ادباء عصره غير افراد معدودين .

وقد نحيط بشيء من اتساع هذه **الشهرة** اذا علمنا ان كتابه عن رحلته الخارجية طبع منه مائة الف نسخة في سنواته الثلاث الاولى ، وكان ثمن النسخة منه ثلاثة ريالات ونصف ريال، وان موسوليني كان احد اعضاء الجماعة العالمة التي تألفت باسمه لدراسة كتبه وترجمتها الى اللغات الاوربية !!

وقد استقل مارك توين بأسلوبه ومنهجه في التعبير ، وساعده على مزج الاسلوب الدارج بالاسلوب الفصيح انه يكتب للصحافة ويتخلل كتابته بالدعابة . وقد اطلع على طائفة من الكتب المختارة قديمها وحديثها ، ولكنه لم يتبع احدا من الاقدمين او المعاصرين اتباع محاكاة وتقليد ، وربما اقتبس قليلا من طريقة **دكنز** واستفاد كثيرا من توجيه **برت هارت** Bert Harte الذي قال عنه انه «جعلني احسن تركيب الجملة وتقسيم الموضوع» ، ولكنه قد احتفظ **بوحي** الطبع والبديهة بعد كل اقتباس وكل توجيه .

واذا استعرنا لفلسفة **مارك** توين وصفا من مصطلحات الرياضة البدنية ، جاز ان نقول «انه فيلسوف من وزن الريشة» لانه يتناول فلسفة الاخلاق ، ويعالج مختلف الآراء ، بالخفة والسرعة ، ولا يثقل على قرائه بالتعمق والاستقصاء . ومجمل فلسفته انه يسخر من الحذلقة حيث كانت . ويهزأ بالنفاق في كل صورة ، وهو مع فكاهته وخفته يؤمن بالقداسة والجد ، ويعطيهما كل حقهما من الرعاية ، كما يرى من كتابه في سيرة **جان دارك** وكتابه عن الفساد الاقتصادي باسم « الرجل الذي افسد **هدلبرج** » .. فليست فكاهته هزلا « **بغير روح** » كما يقولون، ولكنها اسلوب من أساليبه في التعبير عن نقائض الحياة .

قال **كبلنج** عنه ما فحواه انه احتجاج على سخافة العصر ونفاقه ، وقال عنه هويل Howell انه « **لنكولن**

الادب » ، وهو يعنى بذلك انه مثال « العظيم البسيط » فى الثقافة الامريكية .

اسمه الاصيل **صمويل كليمنس** ، واشتهر باسم «**مارك توين**» من مصطلحات الملاحة ، بمعنى العلامة الثانية ، وقصته فى هذه المجموعة « **الضفدعة النطاطة** » هى القصة التى اذاعت شهرته فى بلاده ، وفيها تصوير لهوس المراهنة الذى لايستغرب بين قوم يواجهون الغيب، ويقتحمون المجهول ، ويودون تجربة الحظ واستطلاع المصير ..!

وقد وجدت بين مفكراته المحفوظة فى **كليفورنيا** ورقة كتب عليها هذه الاشارات : « كولمان وضفدعته النطاطة . راهن رجلا غريبا على خمسين ريالا . الرجل الغريب لم تكن له ضفدعة ، فأحضر كولمان له واحدة . فى اثناء ذلك حشا الرجل الغريب جوف ضفدعة كولمان بالرش، فعجزت عن النط . ربحت ضفدعة الغريب » !!

والى جانب هذه المفكرة كلمات يقول فيها : « كتب هذه القصة لناشره المغفل . سلمها الى ـ سترداى برس ... »

وهذا « **التخطيط** » عن قصته الصغيرة يدل على عنايته برسم موضوعه ، خلافا لما يظن من ارساله عفو الخاطر بغير روية . **واسلوبه** فيها نموذج لطريقته فى تشويق قارئه ، فقد يشوقه بتزهيده فيما سيقرأه فيكون هذا التزهيد أول حافز على التشويق . وقد كانت **هذه القصة** مع بعض التعليقات أول كتاب ظهر **لمارك توين** فى عالم المطبوعات .

الضفدعة النطاطة المشهورة

تلبية لرغبة صديقى الذى كتب الى من الشرق ، ذهبت الى الرجل الطيب الثرثارة الشيخ **سيمون هويلر** واستقصيت عن صديق صديقى **ليونيدا . و . سميلى** ، كما طلب منى ، وهاأنذا اروى خلاصة ما علمت :

كان يقع فى حدسى ان **ليونيدا . و . سميلى** اسطورة ، وان صديقى لم يعرف قط شخصا كهذا ، وانه ظن اننى حين أسأل الشيخ **هويلر** عنه يتذكر هذا فضيحة **جيم سميلى** ويشمر عن ساعده ليضجرنى ببعض ذكرياته الجهنمية التى فيها من الملالة الى بمقدار مافيها من قلة العائدة على . .

لئن كان هذا قصده لقد نجح ايما نجاح !!

الفيت **سيمون هويلر** يهوم فى ارتياح الى جانب المدفأة فى حجرة البار من **الخان العتيق** : خان محطة التعدين فى **آنجل** . ولحظت أنه بدين أصلع تلوح عليه سيما الطيبة الجذابة والبساطة .. فنهض قائما وحياني فتمنى لى نهارا سعيدا ، وانبأته ان صديقا لى اوفدنى فى مهمة السؤال عن بعض الامور التى لها علاقة برفيق صباه المدعو **ليونيداس . و . سميلى** ... الاب ليونيداس . و . سميلى ، **القس** الشاب الذى سمع عنه انه كان يوما ما مقيما بمحطة آنجل ..

واضفت قائلا : انه اذا استطاع أن يخبرنى بشىء عنه كنت مدينا له بأكثر من دين .

فقادنى **سيمون هويلر** الى زاوية حصرنى فيها بكرسيه ، وبعد ان اجلسنى فرط شريط هذه **القصة** الرتيبة التى تعقب هذه العبارة .. لم يبتسم قط ، ولم يعبس قط ، **ولم**

يغير قط نبرة صوته من اللهجة التى استهل بهـــا كلامه ، ولم يشعرنى قط بمسحة من العطف والحماسة ، وانما كانت تسرى خلال قصته المتصلة نغمـة من الجد والاخلاص تبينت منها انه لايحسب انه كان يروى مهزلة مضحكة ، وكان يعتقد انها شىء مهم ، وان بطلبها عبقريان سماويان من عباقرة الكياسة .

اما انا فان منظر انسان يستطـرد فى رواية تلك القصــة العجيبة دون ان يتبسم كان فى عرفى غاية السخف والمناقضة . وقد اسلفت اننى سألته ان يقص على خبر **الاب ليونيداس . و.** سميلى ، فاجابنى بمـــا يلى ، وتركته يمضى على نسقه ، ولم اقاطعه قط اثناء روايته :

***

قال : كان هنا شخص يسمى **جيم سميلى** فى شتاء سنة تسع وا ر ، ، وربما كان فى ربيـع سنة خمســين ، لا ادرى على التحقيق .. ولكن الذى جعلنى اذكر انه جاء فى هذا الموعد او ذاك ان القناة الكبيرة لم تكن تمت يوم قدم الى المحلة . وقد كان على اية حال اعجب من رايت ، يراهن على كل مسالة ، ويحتال جهده كى يجد من يراهنه على الخلاف ، فان لم يجـــده غير موقفه وراهن على الطرف الآخر ، وكان كل مايوافق الطرف الآخر يوافقه ولا تهمه الا المراهنة على اية صـــورة ، ولا يزال فى كل اولئك موفقا ناجحا سعيد الحظ فى جميع مراهناته ، فقلما يخسر فى رهان .

كان على الدوام متربصا لرهان ، فلا يسمع بشىء كائنا ماكان الا اتخذ منه موضوعا للتحدى والمناقضة ، واختار اى الطرفين يصادفه فى تحدياته ومناقضاته ، كما انبأتك آنفا .

فان كان ثمة **سـباق خيـل** الفيته مشرقا متهللا ، او رايته قابعا فى راس الحلبة ، وان كان ثمة هراش كلاب فهو مشترك فيه ، وان كان ثمة قتال **قطط** او نقار **ديكة** ــ بل ان كان ثمــة **عصفوران** على فرع يتناقران ، فهو مراهنك ايهما يبدا بالفرار! وان كان فى المحلة اجتماع ينعقد ، فهو مواظب على حضوره مراهن

على **القس ووكر** الذى يقول عنه انه ابلغ الوعاظ ، وانه لكذلك ، وانه لرجل صالح فوق ذلك ..!

وربما لمح **حشرة** تدب ، فلا يبث ان يراهنك الى اين تسير واين تقف بعد المسير ، ولو انك طاوعته لتتبع تلك الحشرة وذلك الرهان الى بلاد **المكسيك** ، ليعلم ما مقصدها واين طريقها وكيف يكون مقامها وترحالها ؟!

وكثير من الفتيـة هنا راوا **سميلى** وفى وسعهم ان يخبروك بخبره . انه ـ كان الله له ـ يتحدى كل احد ويراهن على كل امر .. واتفق مرة ان قرينة **القس ووكر** مرضت ولم يظهر من مرضها انه مؤذن بشفاء ، ولكنه اتى يوما وساله **سـميلى** عنها فقال انهـا تحسنت تحسنا ظاهرا ، والحمد لله على رحمتـه وكـرمه ، وانه ليرجو ببركة الله ان تتماثل وتعود الى صحتها ... فاذا **بسـميلى** يقول دون تفكير : على انى اراهن بكذا وكذا انها لن تشفى . . !

وكانت **لسميلى** فرس ، يطلق عليها الفتيان لقب « **سيسى ربع ساعة** » ، ولكنهم يمزحون لانها ولا ريب كانت اسرع من ذلك . الا انه تعود ان يكسب من مراهناته على تلك الفرس ، لانها كانت تتلكأ او تصاب باللهاث او الحران او النزلة الصدرية او اى مصاب من هذا القبيل ، وكان من عاداتهم ان يسمحوا لها بفرق مائتى ذراع ثم يجاوزونها فى الطـريق ، فاذا هى فى النهاية تقبـل مستميتة وترمى بسيقانها هنا وهناك على جنب منحرف او فى الهواء .. ترفس وتثير الغبار وتسـعل وتعطس وتاتى على مدى الرقبة باية حال!!

وكان له **كلب** ، تنظر اليه فتقول انه لا يساوى سحتوتا ، ولا يحسن الا ان يتسكع على غير هدى لعله يتمكن من اختطاف ما يتفق ، ولكنـه لا يلبث ان تضرب عليـه مراهنة من المراهنات بمقدار من المال حتى يتبدل كلبا غير الكلب ، وتبرز نيبانه من فكه ، ويلمع كاللهب ، وربما داعبه بعض الكلاب **ومرغته وعضتـه والقت** به الى الارض مرة بعـد مرة ، ولـكن **اندروجاكسون** ـ وهذا اسمه ـ لا ينشط الا على هواه ، ويرتفع مبلغ الرهان فى هـذه الاثنـاء ويتضاعف مصعدا حتى لا مزيد ، فاذا به فجاة يقبض على مفصل

الساق الخلفية من الكلب الآخر ويجمد على ذلك ، ولا يخطر ببالك انه يعمل اظافره ، بل كل ماهنالك ان يقبض عليه ويتشبث به الى ان يشهد الحكم بالغلبة ولو بعد سنة !

ولبث **سميلى** يخرج رابحا من المراهنة على هذا الكلب حتى جيء له بكلب مبتور الرجلين قطعتا بمنشار ، فلما بلغ الهراش امده وارتفع مبلغ الرهان الى اوجه ، وعمد **اندرو جاكسون** الى حيلته المعهودة خاب حسابه ، وعرف مكيدتهم له ، فلاح عليه الدهش والانكسار ، ونظر الى **سميلى** نظرة عاتبة كانما يقول له ان الذنب ذنبه لانه اتى له بكلب ليست له رجلان ، ثم ترك الرهان يأسا من الظفر ، وما زال يهزل ويبلى حتى نفق .. وما كان أعجبه من كلب **أندروجاكسون** هذا ! ! لقد كان جديرا بالصيت الواسع لو انه عاش . فقد كانت له همة ، وكانت فيه عبقرية ، وعرفت ذلك بالنظر اليه وان لم ينطق بكلمة . فما ينبغى لنا ان نرى حيوانا ابكم فنجرده من ملكات العبقرية لانه لا يتكلم ، وما زلت حزينا يعاودنى الحزن كلما ذكرت موقفه الاخير من الرهان وكيف انقلب عليه !

على ان **سميلى** كانت له كلاب اخرى ، وكانت له ديكة وسنانير ، وكانت كلها من الطراز الذى لا يجارى ولا بتركك فى راحة ان تعرض عن رهانه ...

وذات يوم صاد **ضفدعا** واخذه الى بيته ، وقال انه سيدربه ، فلم يكن له عمل خلال ثلاثة اشهر غير ان يجلس فى فناء داره ويعلم الضفدع كيف يقفز ، وتالله لقد نجح وعلمه ! وما كان ليزيد على ان يغمزه فى مؤخره فلا تنقضى لحظة حتى تراه واثبا فى الهواء كانه شظية بقلاوة .. ثم يهبط مستويا على اقدامه كانه قط هابط ، وعلمه كذلك صيد الذباب فبلغ من مهارته فى الصيد انه يتناول الذبابة على مد النظر .. وكان **سميلى** يقول : ما بالضفدع من حاجة فى رياضة من الرياضات الا ان يتدرب عليها فلا يعييه شىء ! وقد صدقته ، وكيف لا اصدقه وانى لقد رايت بعينى دانيال وبستر — نعم **دانيال وبستر** اسم الضفدع الذى نتحدث عنه .. رايته بعينى يطرحه على الارض ويغنى له : الذباب يادانيال ! الذباب ! وقبل ان يرتد اليك طرفك تراه قد وثب

فى الهواء وعاد الى الارض كأنه قطعة من الطين ، وجعل يحك راسه بقدمه كأنه لم يات بعجب من العجاب لاياتى به ضفدع من بنى جنسه !! ولن تبصر بضفدع فى مثل هذا الحياء ومثل هذه الاستقامة ، فهو لاجرم ضفدع موهوب ، وما من ضفدع قط يجاريه حين يدخل السباق على الحلبة الممهدة ، فقد كان **سميلى** يراهن عليه بأكبر مقدار فى حسابه، وما كان اعظم فخره بضفدعه ! فان اصحابنا الذين ساحوا واكثروا من السياحة وشهدوا العجائب فى سياحاتهم قد سلموا معترفين للضفدع انه فرد بغير نظير !!

وحفظ سميلى **الضفدع** فى صندوق مشبك ، ثم تعود ان يحمله الى المدينة حيث يراهن عليه، واتفق يوما ان زائرا طارئا على المحلة لقيه ومعه صندوقه، فساله : ماعسى ان يكون فى هذا الصندوق ؟!

فقال **سميلى** : لعله ببغاء . لعله عصفور كنار ، لكنه لا هذا ولا ذاك .. انه ضفدع ..

فاخذ **الرجل** الصندوق وقلبه ونظر فيه ، ثم قال : وما نفع هذا الضفدع ؟!

قال **سميلى** فى غير اكتراث : نفعه شىء واحد .. انه يستطيع ان يسبق كل ضفدع فى هذا الاقليم : اقليم **كالفيرا** !

فعاد الرجل يتامل الضفدع، وقال بعد ان اطال النظر اليه : مارى فى هذا الضفدع مزية على غيره من الضفادع فى كل مكان .

قال **سميلى** : ربما .. وربما كنت انت خبيرا بالضفادع، وربما كنت غير خبير ، وقد تكون من الهواة فى هذه الصناعة . أما انا فعلى رايى لاأتحول عنه ، وهذه اربعون ريالا **أراهن** بها على انه يسبق لامحالة كل ضفدع فى الاقليم ....

وتريث **الزائر** الطارىء برهة يعيد فيها التامل ويتدبر فى امره، ثم قال : اننى غريب هنا وليس عندى ضفدع من ضفادع الاقليم . ولكننى اذا اقتنيت ضفدعا فسوف اراهنك عليه ..

عندئذ قال **سميلى** : حسن ماتقول . حسن . دع هذا **الصندوق** معك وسأمضى وآتيك بضفدع ...

وعلى هذا اخذ الزائر الصندوق واعطى سميلى الاربعين ريالا وقعد ينتظر ...

وبعد هنيهة قضاها فى الانتظار والتفكير ، مد يده الى الضفدع فاخرجه ، وفتح فمه وحشاه برش الصيد : حشاه حتى الذقن ، وارسله على الارض ... ومضى **سميلى** الى المستنقع يدور حول الوحل برهة ، حتى قبض على احد الضفادع ، وقفل به الى الزائر الغريب فأسلمه اياه قائلا : دونك هذا الضفدع ان كنت على وعدك ، وضعه مع دانيال على سواء ، وسانادى عليه : واحد . اثنين ... ثلاثة . اجر .. ويبدا السباق ..

ولقد كان .. وغمز كلاهما ضفدعه ، فقفز الضفدع الجديد ، واما **دانيال** فجثم فى مكانه وهز كتفيه فعل الفرنسى الذى لايعنيه مايدعى اليه . وضاع النداء على غير جدوى . فقد جثم **دانيال** كانه سنديان راسخ فى موضعه .. فدهش **سميلى** وتأفف مشمئزا ، ولكنه لم يدر ما الخبر ولا جرم .. !!

وقبض الزائر الريالات وانطلق لسبيله ، ثم وقف عند الباب ولمس دانيال بابهامه وردد ماقال آنفا : لعمرى لارى فى هذا الضفدع مزية على سائر الضفادع فى كل مكان .. !!

اما **سميلى** فقد لبث يحك راسه وينظر الى دانيال ، ثم قال اخيرا : تالله لااعلم ماذا اصابه . واحسبه قد انتفخ على غير ماأعهد ، ثم امسك به من عنقه ورفعه وهو يقول : ويحى . لعن الله سنانيرى جميعا ان لم يزن بهذه الحالة خمسة ارطال ، وقلبه ظهرا لبطن ، فسقط منه ملء كفين من رش الصيد ، فعلم دخيلة الامر ، وجن جنونه ، وارسل الضفدع من يده ، وعدا وراء الزائر الغريب يريد اللحاق به ، فاذا هو قد اختفى بين الارض والسماء ...

***

وسمع **سيمون هويلر** اسمه ينادى عليه من الفناء الخارجى ، فنهض مستجيبا والتفت عند الباب الى من يقول : مكانك ايها الضيف . انى لن اغيب ...

الا انى ارجوك المعذرة ، فما كان لى ان اترقب من بقية اخبار

ذلك المتشرد المخاطر **جيم سميلي** بيانا نافعا عن سيرة الاب الموقر **ليونيداس . و . سميلي** ....ونهضت للمسير .

فلما التقيت **بهوبلر** الوذود الحفى عائدا ، اذا به يجذبنى من عروتى ويستـأنف قصتـه قائلا ولقد كان لسميلى بقرة صفراء عوراء بتراء ضئيلة كأنها القزم ...

فقلت فى رفق وهوادة : لعنةالله على **سميلى وبقرته** المشوهة، وحييت **الشيخ** تحية الوداع ، وعدت ادراجى ...

التابعون

توماس بايلى الدريخ

Thomas Bailey Aldrich

١٨٣٦ – ١٩٠٧

ولد فى **بورتسموث** ، وقال عن نفسه انه ان لم يكن « **بوستنيا** » اصيلا فهو « بوستنى مصفح او بوستنى مطلى »، مات والده وهو فى السادسة عشرة ، فحال ذلك دون انتظامه فى سلك التعليم العالى ، واضطر الى عمل كتابى فى بعض معاهد الاعمال بنيويورك ، واصدر ديوانه الاول وهو دون العشرين ، ونضج حين توفر على كتابة القصص الصغيرة ، فكانت قصته التالية من ثمرات فنه الناضج وهو فى السابعة والثلاثين . . وقد كان يراسل صحيفة **نيويورك تريبون** من الميدان اثناء الحرب الاهلية ، فذاعت شهرته فى ميدان الصحافة ، ولكنه ثاب الى مسقط راسه **بوستون** حنينا الى ذلك المنشأ الذى كان لا ينساه ، وعكف على تحرير مجلتها الاسبوعية المسماة « **كل سبت** » فارتفع شأنها بفضله بين صحافة الاقاليم ، وربح من عمله الصحفى وعمله الادبى قدرا من المال يسر له تحقيق امنيته من الطواف بالقارة الاوروبية ، وقد كتب فى بعض فصوله يقول ان الناس ياخذون الكاتب بأسلوب قصصه وفصوله ، فينتظرون منه حديثا فى مجالسه كالاحاديث التى يرويها على قرطاسه ، ولكنهم يظلمونه ، ولا يحق لهم ان يحاسبوه بهذا المعيار فى مجالسه بين صحبه وعشرائه .. على انه لم يكن فى الواقع من الكتاب الذين تتفاوت قدرتهم على الكتابة وقدرتهم على الحديث ، بل كانت تلازمه فى مجالسه هذه اللباقة التى يراها القارىء فى

القصة التالية التى تدور على خلق شيء من لا شيء أو خلق قصة بغير حوادث وبغير ابطال، ولهذا استحب صحبته كثير من كبار ادباء عصره ، ومنهم **مارك توين واونجفلو ولويل** وغيرهم من هذه الزمرة .. ولا تخلو قصة له من هذه اللباقة وهذه البراعة « **الشخصية الفنية** » وان لم يكن على نصيب كبير من العمق والاستبقاء .. ونزعته العامة فى فنه وآرائه العامة اقرب الى المحافظة مع السماحة فى النظر الى سائر الآراء .

مارجورى داو

بقلم توماس بايلى الدريخ

Thomas Bailey Aldrich

(١)

من الدكتور ديلون الى ادوارد دلانى عند الصنوبرات بجوار راى .. ، همبشير الجديدة ..

٨ اغسطس سنة ـ ١٨٧. :

يسعدنى يا سيدى أن أؤكد لك ان القلق الذى يخامرك لا تقوم على اساس . ان **فلمنج** سيلازم السرير ثلاثة أسابيع او أربعة ، وعليه أن يحترس أول الامر فى تحريك قدمه . فان صدعا من هذا القبيل لمتعب على كل حال ، ولحسن الحظ كان **الجراح** الذى وجد فى الصيدلية عند نقل **فلمنج** اليها قد أحكم تجبير العظم واعاده الى موضعه ، فلست اخشى من تخلف اثر دائم لهذه السقطة ، ان بنية **فلمنج** تحتمل الصدمة أحسن احتمال ، ولكن الحالة النفسية السيئة التى يعانيها تزعجنى ، وانه لآخر انسان بين الناس يطيق أن تفقد ساقه .. وانك لتعلم خلقه واندفاعه ونشاطه الى الحركة . . وانه لا يستريح ولا يهدأ الى ان يهجم الى غرضه ، كالثور الذى يلوح له بالشال الاحمر . . ولا يفارقه مع ذلك لطفه . أما **الآن فهذا اللطف** قد فارقه والتهب مزاجه .. وقد جاءت **السيدة فلمنج** من **نيويورك** حيث تقيم الاسرة للمصيف ، كي تمرضه وتشرف على راحته ، ولكنه طردها فى اليوم التالى ، باكية منكسرة . وقد أتينا له بمجموعة كاملة من قصص **بلزاك**، سبعة وعشرين مجلدا على مقربة من سريره ، يقذف بها **واتكنز**

ذلك الرجل الوديع الخدوم ، كلما اقبل اليه بطعامه .. وقد حملت اليه بالامس ـ خالى الذهن ـ سلة من الليمون ، وقد كانت قشرة **ليمون** كما تعلم هى التى ازلقت قدمه فكسرت ساقه . فما هو الا ان لمح الليمون حتى ثار ثورة لا ادرك كيف اصفها .. : وما هذه الا واحدة من ثورات كثيرة ، ولعلها اهونها واخفها .. ! ويحدث فى غير هذه الحالة ان يجلس مطرقا فيطيل النظر الى ساقه المكسورة فى صمت وحسرة وقنوط ، فاذا استولت عليه هذه النوبة ـ وقد يمر عليه اليوم وهو ماخوذ بها ـ فلا شىء قط يسرى عنه حزنه وانقباضه ، فيعاف الطعام ويعرض عن قراءة الصحف ، ولا يشوقه الكتاب الا ان يكون قذيفة يرمى بها واتكنز .. فحالته فى الواقع مما يستدر الاشفاق .

على انه لو كان فقيرا ، وكانت اسرته تعول على عمله اليومى ، لكان هذا الهياج وهذا القنوط معقولين منه طبيعيين ، ولكنهما شنيعان من **فتى** فى الرابعة والعشرين ، موفور الثراء ، لا يضطلع بهم من هموم العيش . فان ظل هكذا مستسلما لثورات غضبه فقد يتعرض لالتهاب المفصل الذى كسره .. وقد بلغت حيرتى غايتها فى علاج امره ، فانى اعرف العقاقير التى تنيم وتذهب الالم ، ولا اعرف عقارا يروض من يتناوله على التعقل وحسن الادراك ، وان هذه « الوصفة » لفوق طاقتى ، فلعلها ليست فوق طاقتك ، اذ انت **صديقه** الحميم وموضع سره .. فاكتب اليه .. اكتب اليه بلا انقطاع ، وادخل الى قلبه السرور ، واحمه ان يصبح فريسة دائمة لآفة السوداء ، ولا يبعد ان يكون فى نيته بعض الخطط التى عاقتها هذه الصدمة ، فان كان ثمة خطة كهذه فانك لخليق ان تعلمها ، وتعلم كيف تسدى اليه النصح فى هذه المحنة . واحسب ان اباك يرى من الخير ما حدث من تغيير ، وانى يا سيدى مع احترامى وتحياتى .. الخ الخ .

(٢)

من ادوارد دلانى الى جـون فلمنج وست شارع ٣٨ نيويورك

٩ اغسطس

عزيزى **جاك** ..

وصلت الي هذا الصباح بضعة سطور من ديلون ، وسرنى ان اصابتك لم تـكن من الخطر بحيث توهمت من الخبر ، وانك لست كبعضهم على ما تصبغ به صورتك من **سواد** ، وسيردك **ديلون** كما كنت خلال اسبوعين او ثلاثة اسابيع اذا اعتصـمت بالصبر واتبعت وصاياه . هل وصلت اليك كلمتى يوم الاربعاء الماضى .. ؟ لقد ازعجنى كثيرا سماعى بالحادث الاليم .. !

وانني لا أستطيع ان اتخيلك فى سـكينتك وقد اشـتد وثاقك فى الجبائر والضـمادات ، وانه لفساد ذوق ان يحدث هذا ونحن نمنى نفسينا بشهر ممتع على الشاطىء ، ولكن علينا ان نتلقاه بما يستطاع من احتمال ، وانه لمن عثرات الحظ مع هـذا ان تسوء حالة ابى فيتعذر على ان افارقه على هذه الحالة ، واحسب انه قد تقدم كثيرا لان هواء البحر يوافق تكوينه ، ولكنه لايزال بحاجة الى ذراعى يعتمد عليها ، والى انسان يعنى به فوق عناية الخدم ، فليس فى وسعى ان اخف اليك ايها **العزيز** . الا اننى فى سعة من الوقت للكتابة اليك ، وفى ميسورى ان اواليك بمكتب بريد كامل ان كان فى ذلك ما يسرى عنك ويسليك .

والله يعلم اننى لا اجد هنا مايستحق ان يكتب عنه ، فليس الامر هنا كما تعهد فى مساكن الشاطىء ، فكنت اكتب لك عن انماط من الشخصيات والوان من النـاس ، وافهم خيـالك بطوائف من ربات البحـر ذوات الغدائر السود او المذهبـات ، رفافات على الظهور والاكتاف ، واريك « **افروديت** » نفسـها فى كسوة الصباح ، وفى حلة المساء ، او لباس الحمام . الا اننا بعيدون ـ جد بعيدين ـ من هذه المناظر واشباهها ... وكل ما لدينا حجرات فى بيت من بيوت الريف على مفترق الطرق ،

وعلى بعد ميلين من الفندق ، نعيش على أتم هدوء وفراغ .

وليتنى كنت من كتاب **القصص** . . اذن لكان لدينا مجال لكتابة قصة صيفية فى هذا المأوى العتيق بأرضه الرملية ، ووزره العالى . ونوافذه الضيقة مشرفة على وشائج الصنوبر التى تحيل أغصانها كلما هبت الريح أوتارا تعزف عليها ، ومن حقها أن تكون قصة تعطرها أنفاس الغاب ونسمات الامواج . من حقها أن تكون قصة من قصص ذلك الروسى .. وما اسمه على فكرة .. ؟ **تارجنيف .. تورجنيف .. تيرجنيف** .. ؟ من يدرى كيف يتهجون حروفه .. ؟

وأئوب الى نفسى فأقول : ترى هل يستطيع أحد وان كان **ليزا** او **الكساندرا باولوفا** ان يشجى قلب رجل تنكاه وخزات ساقه هنيهة بعد أخرى .. ؟ هل تستطيع **فتاة** من فتياتنا على أحسن نماذجهن من الخيلاء والرشاقة أن تسليك فيما انت فيه من شجن واسى . . ؟ لو أمكن هذا لبادرت الى الفندق واصطدت واحدة منهن او عثرت عليها هنا او هناك ! !

مثل لنفسك بيتا كبيرا مواجها لكوخنا على مفترق الطريق ، واعلم انه ليس بالبيت لانه أحق أن يسمى القصر او الايوان ، قد شيد على ما أظن فى حقبة من حقب الاستعمار ، فاتسعت رحابه ، وارتفعت سقوفه ، واحاطت به الافاريز الفساح من جهات ثلاث : بناء فخور معتد بذاته يضرب بأنفه فى السماء ، وينتحى جانبا من الطريق ، وتحف به أشجار الدردار والبلوط والصفصاف .. ويحدث أحيانا فى الصباح واكثر من ذلك فى المساء ، عند انحسار الشمس عن ذلك الجانب من القصر ، أن تخرج الى الافريز **امرأة** فتية ، بيدها تسبيح تعمل فيه أو كتاب ، وهنالك أرجوحة من أغصان الاناناس تبصرها من هنا .. وان الارجوحة لجد لائقة بالفتاة فى الثامنة عشرة ، وبالغدائر الذهبية والعيون السود والثياب الهفهافة الزمردية ، من طراز الحسان المصورات على خزف درسدن ، كأنها حسان عصر **لويس الرابع عشر** ، وكل هذه الملاحة تذهب الى الارجوحة ،

وتترنح جيئة وذهوبا ، كأنها ريحانة الاصيل ترف على الغدير .. وتطل النافذة على ذلك الافريز واطل انا كذلك .. !

وبعد . فكفى من هذا الهراء الذى لا يجمل بشاب من زمرة رجال القانون يصاحب اباه الشيخ المريض فى اجازة الصيف . ارسل الي سطرا ايها العزيز **جاك** ، وقل لى كيف انت . . صف لى ما تعانيه ، واسهب فى هدوء . وحذار ان تسب او تثور ، فاستعدى عليك القانون . . !

(٣)

من جون فنمنج الى ادوارد دلانى

١١ اغسطس

كان خطابك يا عزيزى « **نيد** » نجدة سماوية . وتصور جلس فراش مثلى لم يعرف **«يوم مرض »** قط منذ ولد .. ! ان ساقى اليسرى لتزن ثلاثة أطنان ، وانها لملفوفة بالكتان والقوابل كأنها المومياء ، ولاقبل لى بالحركة ، فما تحركت منذ خمسة آلاف سنة .. من زمان المومياء على ايام فرعون ..!

اننى ارقد من الصباح الى المساء على كرسى طويل احملق فى الشارع الساخن ، وكل احد ما عداى خارج من داره يروح عن نفسه ، ويخيل الي ان البيوت التى تلقانى بوجهها الحجرى الداكن من جانب الشارع الآخر توابيت اضرحة مرصوصة امامى .. ويسفو التراب على الالواح التى نقشت عليها اسماء المنتقلين الى رحمة الله ، وتنسج العناكب الساخرة خيوطها على ثقوب الاقفال .. وكل ماتراه صمت وتراب وخراب . . واقطع الحديث الآن لاحيى **واتكنز** بالجزء الثانى من **«قيصر بيروتو»** .. اخطأته .. واخال اننى استطيع ان اصيبه بنسخة من **سان بيف** او **القاموس العام** لو وجدته .. فهذه الكتيبات من

قلم **بازاك** لا تناسب كفى ، ولكننى مستهدفه مهما يكن من الامر .

.. ويخطر لى ان **وانكنز** بداعب مخزن الشيخ بما فيه من ودائع الخمور .. ان نوتة الشتاء تحتل المنظر امامى ، وان **خوفو** الفتى فى الدور الاعلى مشتمل بقماطه ، وان **وانكنز** لينتقل الى حجرتى بسحنته الشاحبة المنافقة ، مسحوبة كمنفاخ « الاكرديون » .. ! واننى لاعرف انه يبتسم طول الطريق على السلالم مسرورا بانكسار ساقى .. الم يكن كوكب نحسى فى اوجه ساعة هرولت الى المدينة لاحضر العشاء فى مطعم **دلمنيكو** ؟ اننى لم آت المدينة لهذا ، وما كان لى مارب الا ان أشترى فرس **لفنستون** الكميت ، وهانذا مقيد دون الوثوب على السرج شهرين ، وسارسل اليك **الفرس** بعنوان الصنوبرات . . اليس هذا هو اسم المكان .. ؟

ان الشيخ **ديلون** يخال بى مسا من الجنون ، وهو الذى يجننى بليمونه . وتصور مصابا بعقله يعالج **بالليمون** ! ..

هذيان !! وما بى الا القلق ـ قلق الشيطان ـ فى هذه القيود والقماقم ! وما كان هذا مما تعودت يوما من الايام ، وماظنك بانسان لم يعرف صداعا ولاوجعا فى سن مدى حياته ، يلقى نفسه مغروسا فى حجرة بالمدينة اسابيع ، وهو يستقبل لفحات انهواء الحار ؟ .. اتظنك تراه مبتسما متنعما سعيدا كما يرام ! . خرافه لاتعقل ، وما انا بمطيق ان الوذ بالسكينة والاطمئنان !!

ان خطابك اول شىء فيه عزاء وجدته منذ تكبتى قبل عشرة ايام . لقد استنهضنى الى السرور نحو نصف ساعة . ارسل الى رقعة كلما استطعت ، وكل شىء يغنى ان كنت تحبنى . وزدنى من اخبار **الفتاة فى الارجوحة** ، فقد كان كل اولئك ظريفا منك حقا : كان ظريفا تشبيهك لخزف درسدن وريحانة الغدير ، ولعل التشبيه مختلط بعض الاختلاط الا انه ظريف . ولا أظن لديك أثاث « فنان عاطفى » فى الدور الثانى ، وذلك يدل على ان المرء قد يألف حجرة الاستقبال فى دار صاحبه

سنوات ، ولا يدرى ماتحت سقفه الاعلى ، واخال ان علوك مشحون بالاوراق القضائية الجافة ، واسانيد الرهون والاقرارات ، وتتلقف ثم رزمة من المخطوطات .. فماذا ترى؟ ترى ثمت قصائد واغانى وموشحات ، وانك حقا لصاحب ملكة فنية قادرة على الوصف يا **!دوار ديلانى** .. و **«أتهمك»** انت بتاليف تلك القصص الغرامية التى تنشرها المجلات بغير امضاء .. !

ساستوحش كالدب الى ان اتلقى منك خبرا آخر ، فأخبرنى عن **صويحبتك** المجهولة على عرض الطريق . ما اسمها ؟ من هى ؟ من ابوها ؟ اين امها ، من عشيقها ؟ انك لاتستطيع ان تتخيل كم اجد فى هذا واشباهه من تزجية فراغ ، وكلما زادت تفاهته زاد حسنه !! وان اعتقالى قد اوهن ذهنى فاحسست ان ملكاتك الكتابية ذات بال ، واننى لانمو الى طفولتى الثانية ، ولن يمر بى اسبوع او اسبوعان حتى اشغل بخواتم المطاط ولعب المرجان .. ولتكونن كاس من الفضة عليها نقش مناسب تحفة لطيفة من عنايتك . واكتب مع هذا قبل كل شىء .

(٤)

١٢ اغسطس :

سوف يتسلى **الباشا** المريض . بسم الله . انه يأمر بهذا . فاذا اسرف القصاص فى الثرثرة المملة ، فغرارة وحبل ونوبيان ورمية الى البحر تجعله طعاما للاسماك . لكن الحق يا **جاك** ان مهمتى عسيرة ، وليس لدى هنا شىء الا حكاية تلك **الفتاة** على عرض الطريق . انها تترنح فى الارجوحة هذه اللحظة ، وانه ليعوضنى عن كثير من خسائر الحياة ان اراها حينا بعد حين قد لبست حذاءها الذى يلائم قدميها ملاءمة القفاز للكفين ، ثم تنطلق لشأنها . من هى ؟ وما اسمها ؟ ان اسمها **داو** ، وهى البنت الوحيدة للمستر **ريشارد . و . داو** الضابط السابق

والمصرفى الآن .. امها ميتة . لها اخ بجامعة **هارفارد** ، واخ اكبر منها قتل بمعركة « **فيراوكس** » منذ تسع سنين . وان **الداوين** هؤلاء قوم اغنياء ، وهذه هى الدار التى يقضى فيها الاب وبنته ثمانية شهور من الاثنى عشر ، واما بقية السنة فتقضى فى **بلتيمور وواشنطون** ... وشتاء **نيوانجلاند** كثير على الشيخ الكبير ! وتسمى الفتاة مارجورى — **مارجو داو** . . . اسم يرن فى الاذن غريبا لاول وهلة .. اليس كذلك ؟ لكنك بعد ان تكرره بين شدقيك ست مرات او نحوها تألفه وتحبه . ففيه رقة للذيذة .. فيه شىء من الاناقة ونفحة بنفسجية . ولا بد ان تكون فتاة ظريفة كى تدعى **مارجورى داو** ..!

لقد كان مضيفنا فى الصنوبرات شاهد القفص امام محكمتى الليلة الماضية ، ومنه سمعت هذه الشهادة . انه كان وكيلا على حديقة الخضر التى يملكها مستر **داو** ، وله علم بشئون الاسرة كافة خلال هذه السنين الثلاثين ، وغنى عن القول اننى سأتعرف الى جيرانى خلال بضعة ايام ، فلعله يقارب المستحيل قليلا الا التقى بمستر **داو** والآنسة **داو** فى بعض منازهى ورياضاتى . **والفتاة** تتخذ لها ممرا مختارا الى الشاطىء ، وساعترضها يوما والمس لها قبعتى ، فتحيينى **الاميرة** تلك اللحظة براسها الجميل تحية دهشة لاتخلو من ترفع !! وستصدمنى فى الواقع ، وكل هذا من أجلك ياعزيزى الباشا . فما أعجب ماتحدث الامور ! . . . قبل عشر دقائق دعيت الى الردهة ، ولاتجهل أنت الردهات فى منازل الريف على الشاطىء ، فانها على نوع ما بحرية برية ان صح هذا التعبير ، وفيها الصدف موضع المدفأة ، واغصان التنوب موضع المدخنة .. وثمة وجدت **ابى** ومستر **داو** يتبادلان ايماءة التحية والمجاملة على النهج القديم . لقد جاء يقدم احترامه الى جيرانه .. وهو رجل طوال نحيف يناهز الخامسة والخمسين بوجه أزهر ، وشارب مبيض كالثلج ، وعوارض على الخدين ، ويشبه مستر **دومبى** ، او يشبه مستر دومبى لو ان هذا قضى

سنوات فى الجيش البريطانى . لقد كان مستر **داو** ضابطا برتبة **العقيد** فى الحرب الاخيرة ، يقود الكتيبة التى كان فيها ابنه برتبة **ملازم** . ياله من فتى شجاع فى شيخوخته . كأنما تحتت فقاره من صخرة همبشير الجديدة ، وقد انهى الينا قبل مبارحته أمرا كالأمر العسكرى بالحضور فى الساعة المعينة لتناول الشاى ، وسيحضر الدعوة معنا طائفة من أصدقاء الآنسة **داو** نحو الساعة الرابعة ليلعبوا الكروكى على الساحة ، ويشربوا الشاى « البارد » على الافريز .. أترى أن نشرفهم بحضورنا ؟ .. ان **ابى** يعتذر بالمرض ، **وابن ابى** ينحنى بما فى وسعه من حركات التحية والعرف ويتقبل الدعوة !!

وفى خطابى التالى فرصة للافاضة فى الحديث . اذ أكون قد لاقيت الجميلة **الصغيرة** وجها لوجه . ان قلبى يحدثنى سلفا **ياجاك** .. وأزعم أن هذه الداو طير نادر ياصاح .. .. ادخر نشاطك يابنى حتى يأتيك خطابى التالى ، واكتب لى بأسهاب عن ساقك أيها العزيز .

(٥)

من ادوار دلانى الى جون فلمنج

١٣ اغسطس :

لقد كانت الصحبة على أتم ما يكون من الكآبة .. **ملازم** من البحرية **وقسيس** من الكنيسة الرسولية فى **ستيل واتر** ، وجلس مجتمع من **ناهانت** . ويلوح الملازم كأنه قد ابتلع زوجا من أزراره واحس بعسر الهضم بعد ابتلاعها ، وقسيس الكنيسة فتى متأمل مفكر من زمرة المتوقرين ، وحلس المجتمع أهزل من موجة الجزر الضعيف !.. أما النساء فأحسن كثيرا من ذاك : الآنستان **كنجزبرى** من فلادلفيا نازلتان بفندق الشاطىء ،

وهما فتاتان جذابتـــان . ولكن ما القول فى الآنسة **داو** ياترى؟

لقد انفض الرهط على الاثر عقيب تناول الشـــاى ، وبقيت لادخن سيجاراً مع العقيد على الافريز . وكان نظرى للآنســة كانما انظر الى صورة متحركة ، وهى تحوم حول الجندى العتيق وتؤدى له مئـــات من التوافه الجميـــلة !! جاءت بالســـيجار واشعلته باصابعها اللطـــاف ، باسلوب غاية فى الاناقة والرقة الساحرة ، وكانت تذهب وتعود فى نور الشفق الصيفى ، كانها فى ثيابها البيض وشعرها الذهبى طيف تولد من لفائف الدخان ، ولو انها تبخرت هواءاً كما يقال عن تمثال **غلاطية** فى المرحية ، لكان فى هذا مايحزن ، ولم يكن فيه مايستغرب .

ومن اليســـير أن تلحظ من النظر اليهمـــا ان اباها الشيخ يعبدها وانها هى تعبـــد اباها الشيخ ، ويخيل الى ان الصلة بين **أب** متقدم فى الســن و**فتاة** تزدهر فى مطلع الانوثة اجمل مايكون من الصلات ، لانها تنطوى على عاطفة خفية لاتحس فى صلة الأم بالبنت أو صلة الابن بالام... لكننا نغوص الآن فى العميق!

بقيت مع **الداوين** الى منتصف الحادية عشرة ، وشهدت القمر يطلع على الامواج ، واذا بالمحيط الذى يمتد فى ظلامه الهادىء حيال الافق كانما تحول بسحر ساحر الى ميدان متـــألق من الثلوج المتكسرة ، تتخلله خلجان فضـــية باهرة ، وعلى البعــد جزائر **شول** تتبلج كانها التـــلال الثلجية مقبلة علينا . منـــاظر القطب فى منتصف الصـــيف ! ياله من جمـــال يفوق وصف الواصفين !!

فيم ترانا نتكلم ؟. نتكلم عن الجو .. وانت ماذا لديك ؟لقد كان الجو على غير المرام فى الايام الاخـــيرة ، وكـــذلك كان الجـــو عنـــدكم ، وهـــآنذا منزلق من حديث الى حديث بغير كلفة . وقد أخبرت أصحابنا بحادثتك ، واخبرتهم كيف انها تكتب غزلنا للصيف كله ، وماذا كان من ذلك الغزل المـــأمول ، وعزفت على المفصل نشـــيدا احاديا بروق وشوق ، ثم وصـــفتك او على الاصح لم اصفك ، بل تكلمت عن ظرفك ، وعن صبرك وطول اناتك ، وعن شكرك الاخاذ للدكتور **ديلون** كلما الطفك بهداياه من الفواكه والثمار ، وتكلمت عن حنانك مع اختك « **فانى** » التى لم تسمح

لها بالبقاء معك فى المدينة لتمريضك ، وكيف أعدتها - ببطولة - الى **نيوبورت** ، وآثرت المقام مع **مارى** الطاهية **وانكنز** خادمك الامين . . ذلك الوانكنز الذى تعطف عليه وتوالبه ! ولو انك كنت معنا اذ تكلمنا عنك يا جاك لما عرف عمن نتكلم ، ولعلنى كنت أفلح فى المحاماة عن الجناة لو لم يتجه بى الاختيار الى فرع آخر من فروع القانون .

وسألت الآنسة **مارجورى** الوانا من الاسئلة « الرئيسية » عنك وعن احوالك ، ولم افهم تلك الساعة كما فهمت بعد انها كانت معنية بالحديث . فلما عدت الى حجرتى تذكرت كيف كانت تقبل مهتمة متطلعة بجيدها الناصع فى ضوء القمر مصغية لما أقول ، ويبدو لى اننى قد جعلتها تميل اليك ..!

ان الآنسة **داو** بنت تعجبك كثيرا ولا اكتمك القول : جمال بغير تكلف ، وخلق رفيع حنون اذا كانت الارواح تقرأ من صفحات الوجوه ... وكذلك يبدو على العقيد الشيخ انه انسان نبيل .

واننى لمغتبط ان اجد **الداوين** بهذا اللطف والدماثة ، فان الصنوبرات مكان موحش ، وذخيرتى جد قليلة .. وقد كان يوشك أن امل المقام هنا بغير صحبة غير صحبة السد والد الجليل . وصحيح اننى كنت خليقا ان اتخذ من الشيخ المريض الاعزل ... ولكننى لا اهوى المدفعية كما تعلم .. انا ؟ حاشاى!

(٦)

من جون فلمنج الى ادوار دلانى

١٧ أغسطس :

كثير على رجل لا يهوى المدفعية مثلك أن يحتفظ بهذه النار التى يصمينى بها من الداخل . لكن تقدم .. ان التهكم الساخر

درع نحاسية صغيرة قد تتصدع وتتشظى وتقتل المدفعى الذى يحتمى بها !

ولك أن تنحى على كما تشتهى، وليس لى ان أشكو .. اذ لا أعلم ماذا كنت صانعا لولا رسائلك ٠ انها تداوينى ، ولم يحدث منذ الاحد الماضى اننى قذفت **واتكنز** بكتاب واحد : من جهة لاننى تقدمت فى اللطافة والمسامحة بفضل تعليماتك، ومن جهة أخرى لان **واتكنز** قد استولى على ذخيرتى ذات ليلة، واعادها الى المكتبة، وانه ليتناسى على عجل تلك العادة التى تعودها ، اذ يقفز جانبا كلما رفعت يدى الى أذنى ، أو حركت ذراعى اليمنى أقل حركة! غير أنه لايزال يوحى الى الناظر علاقته بمخزن القوارير ٠٠ ولك أن تحطم واتكنز أو تمزقه ٠ الانك لن تفقد من حول شظاياه رائحة الشراب !

ند ٠٠ ! ان الآنسة **داو** تلك ـ لابد ـ شخصية ساحرة ، وأود لو أننى أعجب بها ،وقد أحسست بشىء يجذبنى اليها ، اذ قرأت كلامك عن الارجوحة فى رسالتك السابقة ، ولست مستطيعا أن أعلل ذلك أى تعليل ، وجاءت أحاديثك عنها بعد ذلك فزادت عندى ذلك الاحساس ، وتوهمت أنك تكلمنى عن امرأة رأيتها فى حياة سابقة ، أو حلمت بها فى هذه الحياة ، وأوكد لك أنك لو بعثت الى بصورتها الشمسية لميزتها بلمحة واحدة ٠ فعاداتها فى الكلام والحركة ، وهيئتها وهى مقبلة بجيدها ، وشمائلها على الاجمال كما تنم عليها أحاديثك ـ كل أولئك من المألوفات لدى ٠ أسألت كثيرا كما تقول ؟ أتتشوف الى أخبارى ؟ ان هذا لعجيب !

وانك لتضحك فى كمك أيها المتهكم الساخر الخبيث ٠ تضحك فى كمك اذ تسمع اننى أطوى الليل يقظان وقد أصبح نور مصباحى كوميض النجم البعيد، مفكرا فى الصنوبرات والايوان على عرض الطريق !! ما أبرد النسيم هنا لك فيما أتخيل ، وما أشوقنى الى نفحة الملح فى الهواء !

أصور لنفسى **العقيد** الشيخ يدخن سيجاره فى الافريز ، وأبعث **بك** وبالآنسة **داو** معك فى جولات على الشاطىء ، وأدعك أحيانا تدلف معها فى القمراء تحت الشجر ، فانكما الآن لصديقان

حميمان ولا شك تتلاقيان كل يوم ! وهل أجهل أساليبك ووحائدك ؟

ثم أرتد الى غاشية من غواشي القلق ، فأود أن أبطش بأحد من الخلق ، وأن أسألك : أشعرت بأحد قط يحوم حول الحمى ؟ أيكثر ذلك **الملازم البحرى** أو ذلك **القسيس** من زيارة الدار ؟ لا أسأل هذا لاننى أذوب شوقا الى خبر عنهما ، وانما الخبر عنها على ما أرى مما ينتظم فى هذا السياق .

وأعجب لك انك لم تتعلق بهوى الآنسة **ياند** .. وأما أنا فقد نضجت عندى الرغبة فى غرامها . وقد أشرت آنفا الى الصور الشمسية ، فهلا استطعت أن تحتال على اختلاس بطاقة من مجموعتها ؟ لاشك أنها تحتفظ بمجموعة صور . واننى لواعدك أن أعيد الصورة اليك قبل أن تفطن لغيابها ..

هل وصلت **الفرس** سليمة آمنة ؟ لتكونن فى الموسم المقبل علما من أعلام **سنترال بارك** !

آه ياساقى .. ! لقد نسيت ساقى .. ! انها الآن أحسن ولا تزال تتحسن .

(٧)

من ادوارد دلانى الى جون فلمنج

٢٠ أغسطس :

أنت على صواب فى تخميناتك ، فانى **وجيرانى** لعلى أحسن صلات المودة ، **والعقيد وأبى** يدخنان سجاريهما عندنا أو فى الافريز المقابل لنا ، وانا أقضى ساعة أو ساعتين كل يوم فى صحبة الفتاة ، وتزيدنى الايام تقديرا لجمالها ووداعتها وذكائها !

وتسألنى مابالى لم أتعلق بغرامها ؟ وسأصارحك **ياجاك** دون مواربة . فقد فكرت فيما سألتنى عنه ، وانها لشابة وغنية ومهذبة ،

ولها من الشمائل العقلية والشخصية ما لست اذكر له نظيرا فى جميع من عرفت من الفتيات . الا أنها تعوزها تلك الخصلة التى لابد منها عندى لاستثارة ذلك الضرب من الشعور فى نفسى ، وكل من أعوزتها تلك الخصلة المجهولة ، لن يكون فى وسع الجميلة أو الغنية أو الفتية أن تسلمنى الى هواها ..!

الا الآنسة **داو** . فلو أن سفينة جنحت بنا معا الى جزيرة خالية ـ ولتكن من جزائر خط الاستواء التى لاتزدان شواطئها بالصور والمناظر ـ لبنيت لها خصا من الغاف الشجر ، وقطفت لها الغذاء من الجوز والفاكهة ، وشويت لها الثمر الشهى ، واستغويت السلحفاة الاريبة فطبخت لها حساء منها .. ولكننى لا أعشقها ولا أكاشفها بأناشيد الغزل والهيام ، ولو مضى علينا عام ونصف عام . ويشوقنى أن أتخذ منها **أختا** احميها ، وأبذل لها النصح والمشورة ، وأنفق نصف دخلى على أثمان الانسجة من المخرمات ووبر الجمال ، ولكننا الآن لانزال على بعد من تلك الجزيرة عند خط الاستواء ..!

ولو لم يكن هذا شعورى لكان هناك عائق آخر دون غرامى بالآنسة **داو** . فلا مصيبة فى رأيى أعظم من مصيبة العاشق الذى يهواها . وساكشف لك **بافلمنج** عن أمر يدهشك اذ تعلمه ! وقد أكون على خطأ فى مقدماتى ، وعلى خطأ فى نتائجى ، ولك أنت أن تحكم على هذا وذاك ...

اننى ليلة عدت الى حجرتى بعد الانتهاء من لعبة **الكروكى** عندهم ، واستعدت فى ذاكرتى ما كان من انتباه الآنسة لحديثى وأنا اتكلم عنك ، (واظننى ذكرت لك ذلك) .. فى صباح تلك الليلة لدن ذهابى الى مكتب البريد ، لقيت الآنسة **داو** فى الطريق وصحبتها ذهابا وجيئة نحو ساعة ، فدار الحديث عنك مرة أخرى ، وعدت مرة أخرى ألمح ذلك الانتباه على وجهها ، وتكرر لقاؤنا عشر مرات ، فكنت أرى اننى لاأسترعى منها انتباها اذا لم يكن حديثنا **عنك** أو عن **أختك** أو عن شأن من شئونك ، وانها كانت تشرد بفكرها بعيدا من حديثى اليها ، وتلعب بصفحات الكتاب فى يدها على نحو يقنعنى بانصرافها عن الاصغاء الى ...

وجربت فى هذه الاحوال غير مرة أن أغير موضوع الحديث وأومىء الى صديقى **فلمنج** ، فاذا بالعينين الزرقاوين تقبلان على توا ، واذا هى مقبلة على الاصغاء !

فالآن ألا ترى ذلك من أعجب الامور؟ .. كلا انه ليس بالاعجب، فان وصفك لما سرى الى نفسك لمجرد الاشارة الى فتاة غريبة تجلس **فى أرجوحة** لا يقل عجبا عن ذاك ، ولك أن تخمن كيف كان اجفالى حين عبرت فى خطابك يوم الجمعة تلك الفقرة . فهل من الممكن أن يفترق اثنان على مدى مئات الاميال ثم يكون لكليهما من الايحاء المغناطيسى الى الآخر مثل هذا الاثر ؟ لقد قرأت عن أشباه هذه الظواهر النفسية ، ولكننى لم أصدقها ، وانى لتاركلك حل هذه المشكلة . أما أنا فمن المستحيل على - وان توافرت كل الظروف الاخرى - أن أحب فتاة لاتصغى الى حديثى الا اذا دار هذا الحديث على صديقى ..

ولم الاحظ أن أحدا يبدى اهتماما خاصا **بجارتنا** المليحة ، **فملازم** البحرية - وهو مقيم فى **ريفرموث** - يأتى مساء بعد مساء، **والقسيس** يأتى أحيانا ، ولكن زيارات الملازم أكثر ، وقد كان هناك بالامس ، ولا يدهشنى أن تكون له عين على **الفتاة** الوارثة .. الا انه غير خطر .. ومن عادة **الآنسة** أن تصوب سهام السخرية من حين الى حين ، ومن السهل على الملازم كما يظهر أن يتدرع لتلك السهام ..!

وأقول مرة أخرى انه ليس بالخطر ، وان كنت قد عرفت **امرأة** تسخر من رجل بضع سنوات ثم تنتهى بالسخرية الى الزواج ! ومن المحقق أن **القسيس** الكئيب ليس بذى خطر ، وان كنت أعود فأقول أيضا أن البعيد قريب ، وان القريب بعيد فى هذه الامور .

أما **الصورة** الشمسية ، ففى حجرة الاستقبال عند المدفئة صورة صغيرة ، يلاحظ اختفاؤها بنظرة واحدة لو أخذتها ، وسأعمل كل ما هو معقول من أجلك ، ولكننى لا أحب أن أمثل بين يدى المحقق هنا متهما بالسرقة !

استدراك – مع هذا زهرات من الخزامي أرسلها اليك ، وأنصح لك بالرفق في تناولها . لقد عدنا الى الحديث عنك أمس على حسب العادة ، وقد أوشك هذا أن يملني بعض الاملال !

(٨)

من ادوارد دلانى الى جون فلمنج

٢٢ اغسطس :

شغلني جوابك طول الصباح ، ولست أدرى ماذا أفهم .. فهل تعنى أنك جاد حين تقول انك تكاد تعشق **الفتاة** التي لم تبصرها مرة من قبل ؟ أتعني أنك مغرم بظل أو بخيال ؟ والا فماذا تكون الآنسة **داو** بالنسبة اليك غير هذا أو ذاك ؟

لست أفهمك انت ولست أفهمها هي .. كلاكما كائن أثيري يحوم في جو الطف وأشف من هذا الجو الذي تطيقه رئتاي الدارجتان . ومثل هذا اللطف الشفاف قد أعجب به ، ولكنني لا أفهمه . وانني لفي حيرة ، فنحن جميعا أرضيون من الارض ، ولكن أراني بينكما أعيش في عالم الارواح ، واخشى عليكما ان أصدمكما بكثافتي الخرقاء ! انني القدم **كليبان** بين الاطياف (١) .

واذا تأملت خطابك لم اجد من الحكمة ان أثابر على هذه المكاتبة .. لكن لا يا جاك . فانه لمن الخطأ ان استريب بالجانب المعقول منك في هذه القصة ، انك شغلت اهتمامك بالآنسة **داو** ، وتحس انها انسانة قد تعجب بها كثيرا اذا رأيتها ، ثم تظن مع هذا انك على احتمال عشرة الى خمسة قد تراها دون ما تصورت بكثير ، ولا تكترث لها بعد ذلك أقل اكتراث ، فانظر الى المسألة بهذه العين ، ولن تراني أخفي عنك امرا من الامور .

وركبنا أصيل امس **انا ووالدى** مع **الداوين** الى **ريفرموث** ،

---

(١) يشير الى كليبان في رواية العاصفة لشكسبير

وكان المطر الغزير فى الصباح قد لطف الهواء ووطأ ثائرة التراب ، والطريق الى **ريفرموث** قرابة ثمانية أميال تتلوى وتحف بها الاعشاب والشجيرات من جانبيها ، وما وقعت عينى قط على منظر أبهر من هذه الشجيرات ، واخضرار ورقها مع احمرار التوت عليها ، ونضرة ألوانها نقية مطلولة بعد مطر الصباح ، وكان **العقيد** يسوق المركبة ، والى جانبه **أبى** ، وكنت **أنا** والآنسة **داو** على المقعد الخلفى ، واعتزمت ألا أذكر اسمك فى الخمسة الأميال الاولى ، وسلانى أن اتعقب محاولاتها اللبقة لاغرائى بالحديث المعتاد ، ثم صمتت ، ثم عادت فجأة تطرب وتمزح ، ولم توفق فى توجيه هذه اللباقة الى توفيقها حين توجهها الى **العقيد** الشيخ ..! وان الآنسة **داو** لحلوة المزاج ، ولكنها تستطيع احيانا الا تروق وترضى ، وهى كالفتاة التى يقال عنها فى الاغنية: « انها **طيبة** طيبة طيبة حين تكون طيبة ، وانها لمزعجة حين لا تكون .. »

واصررت على عزيمتى ، ثم لنت بعض الشىء فى العودة ، وبدأت الحديث عن فرسك ، وهى تهم بتجربة سرج جديد عليها .. وهذه **الفرس** خفيفة بالنسبة الى وزنى ، وعلى فكرة : ان الآنسة **داو** جلست للتصوير أمس **فى ريفرموث** ، فاذا جاءت الصورة حسنة اخذت نسخة منها ، ونصل من ثم الى المقصود بغير حاجة الى جريمة ، ووددت لو تسنى لى ان أرسل اليك صورتها بحجرة الاستقبال ، فانها جميلة التلوين تريك مثال شعرها وعينيها ، مما لا يظهر فى الصورة الشمسية !

لا **ياجاك** .. **الخزامى** ليست منى . ورجل فى الثامنة والعشرين لا يودع رسائله الى رجل آخر هدية من الزهرات ، ولكن لا تبالغ فى تفسير مدلولها ، فهى تهدى الخزامى الى **الملازم** ، وتهديها الى القسيس ، واتفق يوما انها أهدت وردة من صدرها الى عبدك ، فمن سجاياها المرحة انها توزع الزهر كالربيع ..

ـ اذا لاحظت على رسائلى بعض التفكيك والاقتضاب ، فاعلم اننى لا اكتبها فى جلسة واحدة ، وانما اكتبها الفينة بعد الفينة كلما تهيأ المزاج ..

والمزاج الآن لا يريد أن يتهيأ .. !

(٩)

من ادوار دلانى الى جون فلمنج

٢٣ اغسطس :

عدت اللحظة بعد اعجب محادثة مع **مارجورى** . كادت تعترف لى بشغلانها بأمرك ، ولكن بأى حياء وأى وقار ؟!

ان كلماتها تروغ من قلمى اذ أحاول أن أسطرها على الورق ، والحق أن اسلوب القول ـ لا الكلمات المقولة ـ هو الذى يسترعى السمع والنظر ، وليس فى مقدورى تسطير ذلك الاسلوب !

وربما جرى هذا الكلام مجرى القصة كلها من الغرابة ، فتبوح الفتاة تلويحا ـ لا تصريحا ـ لانسان ثالث بحب الانسان الذى لم تره قط قبل الآن !!

غير أننى فقدت ـ بفضل معونتك ـ ملكة الاستغراب ، ولا أنظر الى الامور الا كما ينظر الناس الى مايشاهدونه فى الاحلام ! واما وقد رجعت الساعة الى حجرتى فالمسألة تعاودنى كالوهم البعيد ! وهذه الظلال الوارفة واليراعات الرفافة ترقص حول اشجار التوت ، وهذه **مارجورى** جالسة فى الارجوحة ـ اوهام فى اوهام !

جاوزت الساعة منتصف الليل ، ويغالبنى النوم فلا اطيق الاسترسال فى الكتابة ..

صباح الخميس :

سنح لوالدى فجأة ان يقضى اياما على البحيرات ، وسيمضى وقت قبل ان يصل اليك خبرمنى . ارى **مارجورى** تتمشى فى الحديقة مع ابيها . وددت لو كلمتها على انفراد ، وربما فاتتنى الفرصة قبل الرحيل ..

(١٠)

من ادوار دلانى الى جون فلمنج

٢٨ اغسطس :

كنت تنمو الى طفولتك الثانية . الم تكن ؟

ان ذهنك قدهزل حتى اكبرت من قدر ملكاتى الكتابية ! .. الم يهزل كما تقول ؟

لقد علوت فوق مرتفع السخرية الذى رفعتنى اليه برسالتك التى انعمت بها فى الحادى عشر من الشهر .. علوت هذا العلو حين لاحظت مبلغ الحزن الذى اوقعك فيه انقطاعى عن الكتابة اليك خمسة ايام ..

عدنا هذا الصباح من **ابلدور** تلك الجزيرة الساحرة ، واليوم فيها باربعة ريالات .

وجدت على مكتبى ثلاث رسائل منك ، ولا ريب انك لا تدع عنك بقية من الشك فى سرورى بالكتابة اليك وتلقى الكتب منك!

ليس على تلك الرسائل تواريخ ، وآخرها فيما احسب يحتوى عبارتين جديرتين بالتوقف لديهما ، ولاتؤاخذنى ياعزيزى **فلمنج** اذا قلت لك ان راسك يضعف كلما قويت ساقك ، وانت تسألنى النصيحة فى امر معلوم ، فاسمع منى هذه النصيحة ، واعلم انك لن تقدم على امر احمق من الكتابة الى **الانسة** بالشكر على ازهارها ، فانك لتجرح رقتها جرحا لاغفران بعده ولامسامحة ، وهى لاتعرفك الا من طريقى . فانت لديها فكرة او حلم فى منام ! حلم يوقظها منه اخف رجة ، ومن المحقق انك اذا اودعت رسالتك الى كلمة اليها فانى مبلغها بلا وناء . ولكنى لا اشير عليك هذه المشورة ..

تقول انك تقدر الآن على التوكؤ بين جدران حجرتك ، وانك تنوى ان تحضر الى الصنوبرات ساعة ينبئك **ديلون** بالقدرة على وعثاء السفر . مرة اخرى أنصحك ألا تفعل . ألا ترى أن كل ساعة من ساعات البعد تضاعف شوق **مارجورى**

وتضيف الى سلطانك عليها ؟ . انك ستعصف بكل شيء بهذه العجلة ، فانتظر حتى تشفى تماما ، ولا تحضر على اية حال دون أن تخبرنى قبلها ، فاننى لأخشى على حسب الظروف عاقبة المفاجأة .

وظاهر لى أن **الانسة** سرت بعودتنا ، فانها بسطت الى كلتا يديها فى أصرح صراحة ، ووقفت بالمركبة بعد الظهر هنيهة عند باب الكوخ ، وكانت قد ذهبت الى **ريفرمونث** من أجل الصورة التى أفسدها **المصور** لسوء الحظ بقطرة من الحمض تركها على الزجاج ، فاضطرت أن تجلس له جلسة أخرى .

تنبئنى فراستى أن هاجسا يشغلها ويقلقها ، وتلوح عليها لمحة شاردة ليست من طباعها . ولعلها هاجسة وهم عندى انا لا عندها .

واختم هذه الرسالة قبل أن أودعها الكثير مما أردت الافضاء به اليك . وسأصحب **أبى** فى جولة من تلك الجولات التى صارت اليوم دواءه الوحيد ... ودوائى .

(١١)

من ادوار دلانى الى جون فلمنج

٢٩ أغسطس :

أكتب اليك على عجل لأبلغك ما جرى هنا منذ كتبت اليك خطابى الليلة الماضية . اننى لفى أشد الارتباك ! وأمر واحد واضح أمامى ، وهو ألا تحلم بالحضور الى **الصنوبرات** ، فقد أخبرت **مارجورى** أياها بكل شيء ، وقد لقيتها هنيهة منذ ساعة فى الحديقة ، وغاية ما أستجمعه من عباراتها الملتبسة أن الحاصل هو ما يأتى :

« **أولا** » أن الملازم **برادلى** – وهو اسم الضابط البحرى – كان منذ حين يغازل **الآنسة** ويخطب ودها ، ولكن حظوته عند أبيها أكبر من حظوته عندها ، اذ كان هذا صديقا قديما لوالد الشاب ، وبالأمس لمحت الوجوم على وجه **مارجورى** ساعة وقفت عند بابنا ، وكان **الشيخ** قد فاتح **مارجورى** فى خطبة برادلى وزكاها ، كما استخلصت من مجمل الحال .

«**وثانيا**» قد صرحت **ماجورى** بنفورها من الملازم بصراحتها المطبوعة ، ثم كاشفت أباها بما فى نفسها ، ولا ادرى ماذا كشفت ، ولعله كان كافيا لايقاع **الشيخ** فى حيرة منها واثارة سخطه وغضبه !! وأظن أننى مشتبك فى المسألة ، وان **الشيخ** ناقم منى ، ولست أعلم لماذا ، وماسعيت برسالة بينك وبين **مارجورى** ، ولا كان فى مسلكى مأخذ ، ولا نسيت الحيطة والحذر ، ... ولست أرى أن أحدا ما صنع فى هذه المسألة شيئا ما ... اللهم الا الشيخ **العقيد** دون سواه ..

ويحتمل أن تنقطع العلاقة بين البيتين ...

وانك لقائل : الى الشيطان بالبيتين معا ! فانتظر منى أخبارا عن كل ما يجرى لدينا ، وسنبقى هنا الى الاسبوع الثانى من شهر سبتمبر . فاقعد حيث أنت قاعد ، أو لا تحلم على الاقل بالقدوم الينا ... ها هو ذا **العقيد** الشيخ قاعد فى الافريز يلوح عليه الشر ... ولم ألق **مارجورى** منذ فارقتها فى الحديقة ..!

(١٢)

من ادوار دلانى الى توماس ديلون بميدان ماريسون ، نيويورك
٣٠ أغسطس :

عزيزى **الطبيب** : ان كان لك أقل سلطان على **فلمنج** ، فأرجو

أن تستخدم جهدك فى كفه عن الحضور الى هذا المكان فى الوقت الحاضر ، وسأشرح لك الظروف التى دعتنى الى هذا الطلب قبل انقضاء زمن طويل ، وكلها مما يوجب عليه أن يجتنب هذا المكان !

ان ظهوره هنا يضره وينكبه !

وانك لتسدى اليه ، كما تسدى الى يدا مشكورة اذا أقنعته بالبقاء **فى نيويورك** أو الذهاب الى مصطاف داخلى .. وغنى عن القول انك لاتعرفه بطلبى هذا ولا تذكر له اسمى ، وانك لتعرفنى ياعزيزى **الطبيب** معرفة تؤكد لك أن رجائى هذا والتماسى منك المعاونة السرية يرجعان الى أسباب تقرها كل الاقرار يوم تطلع عليها . وسنعود الى المدينة فى الخامس عشر من الشهر القادم ، وسيكون عملى الاول أن أسعى الى مستشفاك وأطلعك على مايقنعك ان كنت قد أثرت فى نفسك حب الاستطلاع .

لقد تماثل والدى الى العافية ، فلا يحسب اليوم فى عداد المرضى ، ومع التحية والاجلال تقبلوا .. الخ .. الخ ..

(١٣)

من ادوارد دلانى الى جون فلمنج

٣١ أغسطس :

تسلمت الآن خطابك معلنا فيه عزيمتك الجنونية التى لاتثنى دون الحضور . وأتوسل اليك أن تتدبر وتفكر . فهذه الخطوة ضارة بمصالحك ومصالحها ، وستزود **الشيخ** بسبب مشروع للسخط عليها ! وانه على لطفه وحنانه عليها لحليق أن ينبعث الى اقصى المدى عند المعارضة والعناد ، ولن يرضيك ولا شك أن تجنى عليها سوء المعاملة بفعلك .. ذلك ما تعرضها له لامحالة بحضورك الى الصنوبرات .. ! وانه ليؤسفنى أن أضطر الى تفصيل

هذا كله لك ، فاننا لفى موقف دقيق ، وثق **ياجاك** أن أهون خطأ ليفسدن اللعبة كلها . ثق قليلا بحصافتى وحسن تقديرى ، وانتظر وأنظر مايكون ! ..

وبعد فاننى أفهم من **ديلون** أن حالتك لاتسمح برحلة طويلة ، وانه يرى أن هواء الشاطىء أسوأ ما تتعرض له الآن ، وانك تحسن صنعا بالذهاب الى الداخل ان كان لابد من ذهاب ، وتقبل نصيحتى وتقبل نصيحة ديلون .

(١٤)

برقيات

اول سبتمبر :

الى ادوارد دلانى

تسلمت خطابك . لعنة الله على **ديلون** . لابد من حضورى الى المكان .

الى جون فلمنج

أقعد حيث أنت .. ان حضورك لايجدى الا أن يربك الموقف ، فلا تتحرك قبل أن أعلمك ..

الى ادوار دلانى

سيكون حضورى سرا ، ولامناص من رؤيتها !

الى جون فلمنج

لاتفكر فى ذلك .. فلا جدوى . ان الشيخ قد حبس م فى حجرتها ، ولن تستطيع محادثتها!

الى ادوار دلانى

حبسها فى حجرتها .. يا لله .. تقرر موقفى ، وانى مسافر بقطار الثانية عشرة والدقيقة خمس عشرة ..!

الوصول

فى الثانى من سبتمبر سنة ـ١٨٧ ، عندما برح القطار محطة همبتون ، شوهد **فتى** يتوكأ على كتف تابع له ينادیه باسم واتكنز، خرج من الرصيف واستقل مركبة وطلب من السائق أن يذهب به الى الصنوبرات، فلما وصل الى الكوخ المتواضع على بضعة أميال من المحطة ترجل بمشقة ، وألقى بنظـــرة عجلى على الطريق وعليـــه دلائل الاهتمام الشديد بشىء معين يتفقده هناك ، وعاد يتوكأ على كتف من يسميه **واتكنز** ،ويمشى الى الكوخ المتواضع ويســـأل عن السيد **ادوارد دلانى** ، فأجابه **الشـــيخ** الذى فتح له الباب ان السيد **دلانى** قد ذهب الى **بوستون** أمس ، وان **جوناس دلانى** هو الموجود ،ويظهر أن هذا الخبر لم يكن فيه ما يسره ،وسأل : ألم يترك السيد **ادوارد دلانى** رسالة باسم **جون فلمنج**؟.. فقيل له: نعم. هناك رسالة باسم السيد **فلمنج** ، يتسلمها ان كان هو صـــاحب العنوان ، ثم غاب الشيخ لمحة وعاد برسالة ..

من ادوارد دلانى الى جون فلمنج

أول سبتمبر :

اننى لمضطرب لما صنعت ، فاننى يوم أن بدأت هذه الرسائل لم يكن لى من هم غير التسرية عنك فى مرضك . وقد طلب الى **ديلون** أن أحاول تسليتك فحـــاولت ،واحسبك قد نفـذت ببصرك الى جلية المسألة ، ولم يخطر لى قط انك تعير المسألة كل هذا الاهتمام **« وتأخذها جدا »** كما فعلت .!!

ماذا عسى أن أقول ؟ اننى مجنون . اننى منبوذ . اننى طـــريد كالكلب المســـعور . حاولت أن أخلق قصة تسليك ، واجتهدت فى الصقل والتحلية فنجحت ،ويل ! وبالغت فى النجاح !!

ان **أبى** لا يعلم حرفا من القصة كلها ، فلا تزعج الرجل . وقـد فررت بنفسى من **الصاعقة** الـتى تنقض على بمحضرك.. فياعزيزى **جاك** حنانيك . **لاعقـيد** هناك ولا **ايـوان** على عرض الطريق ، ولا **أفريز** ولا **أرجوحة** ، ولا **مارجورى**! داو .... !!

جورج آد

George Ade

١٨٦٦ - ١٩٤٤

أديب اللغة العامية ، والامثال أو العظات فى قالب النوادر والحكايات ، وله أمثال وعظات كثيرة يعنى فيها برسم الشخصيات الريفية ، وشخصيات الطلبة والطالبات ، ويتناول فيها مسائل النقد الاجتماعى بأسلوب الفكاهة والتصوير الهزلى ، ومن ثم يعنى بوضع المسرحيات المضحكة الملحنة الى جانب العناية بتصوير حياة الريف وحياة التلمذة .. وأشهر هذه المسرحيات « **سلطان سولو** » و « أرملة الجامعة » .

ولد فى « **انديانا** » وتعلم فى مدارسها ، وكادت قصصه تكون ترجمة لحياته فى سلك الدراسة ، وقد اشتغل بالصحافة والكتابة للنقابات ونظم الشعر ، وكتب فى النقد على طريقته التى تغلب عليها الفكاهة والمداورة بين الجد والتسلية .

ايقى هويتسلى

لجورج آد

قامت مسز **وللاس** فساعدت**زوجها** على خلع معطفه ، ووضعت راحتيها الدافئتين على وجنتيه المسفوعتين من مصافحة الرياح.

وقالت :

ـ ان لدى أخبارا سارة ـ !

ـ لعلها صفقة رابحة !

ـ « أوه . كلا . خادم جديدةوانى لاحسبها جوهرة . ليست بالصغيرة ولابالجميلة .وقدسألتهاهل تريد أن تبيت بضع ليال خارج الدار ، فقالت انها لاتخرجمساء مهما تكن الاسباب .. ماذا تظن فى ذلك ؟

ـ شيء لايكاد يصدق !

ـ هو كذلك . ولكن انتظرحتى تراها . لقد أتت الى هنامن مكتب التخديم حوالى الساعةالثانية،وقالت انها تريد أن تدخل المطهى حال وصولها ، وأنتلاتدرى كيف كانت حال المطبخ.. لقدمسحته ونظفته حتى عاد أنقىمن الدبوس !

ـ ومن أى بلاد ؟

ـ ليست من بلادما . انماهى محصول وطنى .. انها من الريف .. وخضراء . ! ولكنهاطيبة، وقد اطمأننت اليهاساعةان وقع نظرى عليها ،

ـ حسن ، أرجو أن يتحققظنك ، واذا كان هذا أمرها .فلم

لانعطيها ماتشاء من أجر ، ونضع لها الستائر فى حجرتها ، ونشترك لها فى كل ما فى السوق من مجلات القصص .

ـ حسبك . حسبك . انني ما اخالها ستقرؤها . انني كلما القيت نظرة الى المطهى وجدتها تكدح ، كأنها لاتكل ، ولا تفتأ تغنى مواويل **الريف** ..

ـ آه .. أهى تغنى ؟ اذن قد تخيب رجاءنا وقتا ما !

ـ هون عليك ، نحن نستطيع أن نغلق الابواب .

وكانت مائدة الطعام مهيأة مغرية بفرط نظافتها . وقد طافت السيدة **ولاس** بنظرة على الاكواب والآنية الفضية وأومات برأسها راضية قريرة . ثم لمست الجرس . ودخلت **الخادم** على الاثر .. كانت امرأة طوالا ، قد ودعت سن الصبا الباكرة .. وحدثت مفاجأة .

فان مستر **ولاس** أخذ يحملق فى الخادم الجديدة ، وينظر اليها كالمشدوه ! وصاح : « **يالله** !! »

واقتربت الفتاة كثيرا من المائدة ، حينما وقع ناظرها عليه ، فمال الاناء فى يديها ، وابتسمت مأخوذة ، وألقت الاناء على المائدة فى عجل .. !

ولم تطل حيرة مستر **ولاس** .. انه عاد فى هذه اللحظة بتفكيره الى الماضى . فقد نشأ فى بيئة ديمقراطية صغيرة ، ترفرف عليها روح المساواة !

قال : أليست هذه **ايفى هوتيسلى ؟!**

فاجابته بمثل صيحته : « **ياللسماء** » وكانت صيحتها بمثابة التأمين .

ـ ألا تعرفيننى

ـ ألست « **ولاس** » ؟

واذا بالسيدة **ولاس** تتراجع على كرسيها وتردد بصرها بين الخادم وبين زوجها ، وتحاول عبثا أن تفهم ماتسمع ... !

فما هى الا لحظة حتى رأت مستر **ولاس** يندفع على المائدة ويصافح الخادم الجديدة . فتمالكت صوتها ، واستطاعت ان تهتف :

ـ ماذا أرى ؟

ادركت مستر **ولاس** الحيرة ،واعجزته الحيلة ، فقدكان مترددا بين المسلك الذيوحيه اليه العرف فى مقام **السيد** ، وبين واجب الرعاية لصديقة قديمة ، وقال :

هذه**ايفى هويتسلى** من **برينرد** ، وكنت أزاملها فى المدرسة ، وكانت تزور منزلنا أحيانا · وانى لم أرها منذ زمن ···

ثم التفت الى **ايفى** وقال :

ـ اننى لم أعلم من قبل انك فى شيكاجو ···

قالت **ايفى** ، وهى مازالت حائرة ، وعلى بعد خطوات من المائدة:

ـ أجل **يا ادولاس** · اننى لاأحتمل الساعة هفة ريشة · ولم أكن أظن أنك أنت المقصود حينماسمعت اسم ولاس أول الامر ، وان كنت أعرف أنك ههنا · ولكن عرفت ذلك حينما وقع نظرى عليك أول لحظة ·

قال **ولاس** وقد تريث قليلا :

ـ كنت أظن أنك ما زلت فى **برينرد** ···

ـ لقد تركتها فى شهر نوفمبر منذ عام ، وحضرت لزيارة أسرة **مورث** · ولعلك تعرف أن **مورث** يشتغل الآن بوظيفة فى شركة السيارات ، وهو يزاول عمله على أحسن حال · ولم أشأ أن أكون حملا عليه ، فاتخذت طريقى وجعلت حملى على كاهلى ، ولم أجد فائدة فى عودتى الى برينرد لأشتغل بريالين فى الاسبوع !!

لقد وجدت عملا طيبا لدى مستر **ساندرز** موظف السكة الحديدية فى أقصى الشمال ،لكنى تركته لأنهم يريدون منى أن أقوم بتقديم **الشراب** ، وانى لأوثر أن أقدم **ضفدعة** ولا أقدم زجاجة من الجعة · ان الشراب كان السبب فى الخراب الذى حل **بجسى** ·· لقد ضاع سدى ، وارتحل مع فرقة **البهلوانات** حيثما ارتحلوا منذ سنين ····

قال مستر **ولاس** مسائلا :

ـ اذن تشتتت العائلة ؟

ـ لقد ذهبوا مع الرياح الأربع منذ ماتت **أمك** . ولا بد أنك تعلم أن **لورا** تزوجت من **أوهنت توماس** ، وتعيش فى حى **ميرفى** القديم . وانهم يفعلون ما فى وسعهم للبقاء فى صحبة **هنفورث** مع كسله واهماله ٠٠ !

ـ أهكذا ؟ حسن !

أتراه لقاء صديقين غائبين ، أهو عشاء هادىء فى بيت أسرة ؟ ان الحساء لينتظر ...

وأدركتهما السيـدة **ولاس** قائلة : حسبنا هذا الآن يا ايفى !

فصاحت ايفي : « آه ... » وتسربت الى المطبخ ...

قال مستر **ولاس** : معنى هذا اننا كنا أطفـالا نمرح معـا ، وكنا نعمل **الفطائر** من الطين معافى بركة واحدة ، ونجلس جنبا الى جنب فى مدرسة **برينرد** ، وهى من أسرة **هويتسلى** ..وكل من فى **برينرد** يعرف هذه الاسرة انهـا أسرة كبيرة ، ولكنهم أحقر من جرذان الكنيسة . وان فيهم لدماثة وطيبة ...

ـ **ايفى** . ايفى !! وهى تقول : اد !! ماهذا ؟

ـ اسمعى يا عزيزتى ٠٠ ليست هناك ألقاب فى **برينرد** ، وكيف لا تدعونى **باد** وما سمعت أحدا ينادينى بغير هذا النداء !

ـ عليها أن تناديك هنا بغيره . قل لها ذلك ٠٠

ـ الآن . لا تسألينى أن أتكلف فى خطاب أحد من أسرة **هويتسلى** فانهم يعرفوننى منذ زمن بعيد ،وطالما رأتنى **ايفى** فى المدرسة فى موقف السخرية ، وطالما زارت منزلنا كأنها فرد من أفراد الاسرة حين كانت والدتى تشكو وتحتاج الى من يعنى بها ٠٠واذا لم تخنى الذاكرة ، لقد كنت أصحبها الى معاهد الغناء والحفـلات . واننى لا أستطيع أن أتعالى عليها . اننى لا أستطيع ذلك بحال من الاحوال! واكره أن تعود الى **برينرد** وتقول انها قابلتنى هنا فى شيكاجو ، واننى بلغ منى السخف أن أنسى أيامنا فيما مضى . وأنت يا عزيزتى لاتعرفين تلك القرى !!

ـ كلا لم يكن لى هذه الحظوة!

ـ أجل انها لحظوة من بعض الوجوه . ولكنها تقترن بعقوباتها أيضا . فليست مجالا صالحا لتعليم من يريد أن يتخرج منها ظريفا من ظرفاء المجتمع !

ـ ليس من الظرف المصطنع أن تنبه الى الخطأ خادمة تناديك باسمك الأول **اد** . أوه . كيف هذا ، اننى ما اجترأت قط أن أدعوك بهذا الاسم !

ـ لانك لم تقيمى قط فى **برينرد** .

ـ وأنت تقول انك كنت تصحبها الى معاهد الغناء ؟

ـ أجل يا سيدتى منذ عشرين سنة فى **برينرد** ، أيدهشك ذلك؟ انك قد عرفت حينما تزوجت بى اننى من أبناء الريف ، ومن الذين شقوا طريقهم وجاءوا الى المدينة فى ثياب مجهزة . وانى لأعلم أن ماضى لا يرشحنى لأن أكون من النخبة المختارة أو من اعضاء دار الندوة .. وانه لحدث عظيم لو زججت بنفسى فى ميـــدان **السياسة !**

ـ اننى لا أنكر أن يكون لك ماض . وانما أقول لنفسى : ترى ما أظرف الموقف اذا أقمنا هنا سهرة عشـــاء وجاءتك تدعوك باسم اد ـ .. !

فضرب مستر **ولاس** على المائدة ، وانطلق ضاحكا ...

قالت السيدة **ولاس** : أظنك لا تكترث بهذا ؟

قال : ان **ايفى** لا تخل بواجب المقام هنا . ونحن فى **برينرد** قد نخالف التقاليد ، ولكننا قد نتعلمها هذا فى حينها !

ولمست السيدة **ولاس** الجرس فأقبلت **ايفى** ...

وانها لتقدم الصحفة التالية اذا بمستر ولاس يتعمد تشجيعها بابتسامة ودية ، وهى تسأله : هل ترد اليك صحف برينرد ؟

ـ أجل . كل أسبوع .

ـ لقد كانت هنـــالك أمراض كثيرة ، هذا الشتاء ، وكتبت الى **لورا** ان عمك **جو** كان معتلا ..

ـ أظن انه قد تماثل ، وعاد الى عمله .

– خير ! خير !

وقفلت عائدة الى المطبخ ...

ثم رجعت تغير الآنية لاحضار الحلوى ، وقالت :

– ان مورث كان يبحث عنك البارحة ، وقال انه لم يرك منذ أمد . ان لك هنا منزلا جميلا !

وما كاد العشاء ينتهي حتى كانت مسز **ولاس** قد عقدت عزمها على أن **ايفي** لا بد أن ترحل . وشعر مستر **ولاس** بما وراء ذلك الحديث العنيف الذي وجهته اليه زوجه ، وقال في نفسه لا بد لها أن ترحل ولكن بشيء من اللطف والكياسة ...

كانت **ايفي** قد انتهت من تنظيف الآنية ، ودخل عليها المطبخ مستر **ولاس** يبادلها الحديث **وزوجه** جالسة في الحجرة المقابلة تستمع الى صدى حديثهما الطويل وهما يتناولان ما مضى من تاريخ العائلة في برينرد ، ويتذاكران الحوادث التي ربما اتصلت بفطائر الطين على شاطىء البركة ، والحفلات التي كانا يشتركان فيها بالمدرسة !!

لقد كانت السيدة **ولاس** سليلة **تومبللي** من **بلثمور** ، وما كان احد من أسرة **تومبلي** له أقارب **بفرجينيا** ليطيق أن يتنزل الى منافسة خادم مطبخ أو يحلم بحدوث شيء من هذا القبيل ، فلم يا ترى تقلق مما يدور بين **اد وايفي** من الحديث؟

انما شعرت السيدة **ولاس** بكبريائها تنهار . فقد كانا في الليلة الماضية يتناولان العشاء مع سراة المدينة من **آل جاج** ، ومستر **ولاس** ملحوظ الجانب في ملابسه المسائية يلمع بهاء وأناقة بين السبعة الذين جلسوا معه على المائدة ، وكانت مزهوة به لا تفكر أنها بعد أربع وعشرين ساعة ترى خادما تخرج من المطبخ وتناديه باسم **اد** !!

واستمر الصوت الخافت يتتابع في حجرة المطبخ ، وودت السيدة **ولاس** أن تسير على أطراف قدميها لتسترق السمع أو تندفع الى المطبخ وتخرج مس **هوينسلي** باشارة موجزة وتعيدها الى مركزها الوضيع . ولكنها فكرت في أن مستر ولاس ربما أساء فهم مثل

هذه الحركة ، وربما غمرها بسخريته واتهمها بالغيرة · فاحتملت على مضض !

وكان مستر **ولاس** يقف بالباب وفى فمه سيجارة لم يشعلها، اذ كانت **ايفى** قد منعته أن يدخن فى المطبخ · فاستند الى الباب يفكر فى كلام يقوله ، ثم قال لها أخيرا :

ـ لماذا لا تذهبين يا **ايفى** الى **لورا** وتمكثين لديها شهرا أو نحو ذلك ؟ انها لتسر بهذا !

ـ أعرف ذلك **يا اد** · ولكنى لست **روكفلر** لأقضى شهرا بغير عمل ، واجرى من هنا لهناك لزيارة أقاربى · انى لا أود ذلك ولكن ···

ـ أوه · انى سأحضر لك تذكرة الى برينرد غدا ، وسوف لاتتكلفين شيئا هنالك ··

ـ كلا انها ليست **شيكاجو** ··هذه هى الحقيقة ·· ان ريالا واحدا يوصلنى الى هنالك ، ولكن ماذا تفعل **زوجتك** ؟ لقد أخبرتنى انها لاقت تعبا شديدا لانفرادها !

ـ أجل **يا ايفى** · الحق انك **صديقة** قديمة لى ، ولا أقبل أن أراك **خادما** مأجورة فى منزلى ··!

ـ كلا · **أظننى** الآن خادما ·· لقد كنت فتاة مأجورة عند **والدتك** · أما الآن فاننى خادم، ولايهمنى الاسم الذى تدعونى به مادمت أقوم بنفس العمل ·

ـ أنت تفهمين ما أعنى ، اليس كذلك ؟ فى أى وقت تريدين أن تحضرى الى منزلى تحضرين اليه كصديقة زائرة لا كخادم !

ـ دع هذه الحماقة **يا اد ولاس** · اننى أخدمك كما أخدم غيرك، وأخدمك أكثر من سواك ··!

ـ ولكنى لا أريد أن أرى **زوجتى** تلقى أوامرها لصديقة قديمة مثلك · لعلك تفهمين ما أعنى !

ـ لا أدرى · انى مستعدة للرحيل اذا قلت لى ذلك ··

– ها . ها . ها . سأحضر لك التذكرة وتذهبين الى **برينرد** غدا . أتعدينني بذلك الآن ؟

قالت وهي مستغربة ماتسمع :

– ان كان هذا رأيك فاني ذاهبة ...

– واذا عدت فانني سأجد لك ما شئت من الأماكن لتشتغلي حيث تشائين ...

فلما كانت الليلة التالية خرجت ايفي في مركبة وهي تعتذر عن هذه الرفاهية ، وقالت وهي تنظر الى فناء الدار :

– انهم سوف لا يصدقونني **!يا اد ولاس** عندما اذهب الى **برينرد** ...

– بلغيهم تحياتي . وافهميهم أنني على العهد دائما .

– سأفعل ذلك . أستودعكم الله .

– في سلامة الله .

وكانت السيدة **ولاس** تنظر من النافذة . وقد رأت مس **ايفي** تتوارى في المركبة ...

وقالت ! الحمد لله !

قال مستر ولاس – وقد كان فصلا مرحا بالنسبة اليه – :

– لقد دعوتها لزيارتنا عندما تعود .

– أو تأتينا زائرة ؟

– بكل تأكيد . لقد أخبرتها ! أنك تسرين برؤيتها في أي وقت .

– يالها من فكرة ! هل دعوتها حقا ؟

– بطبيعة الحال . وانى لعلى يقين بأنها ستفعل .

– وماذا أفعل **أنا** ؟

– أظنك تستطيعين أن تتدبري الامر ، وان كنت لم تعيشي أبدا في **برينرد** .

وعادت السيدة **ولاس** أدراجها ، وهي مزهوة بزوجها ، وقالت:

– سأحاول ذلك !

ويلاكاثر

Willa Cather

١٨٧٦ - ١٩٤٧

كاتبة شاعرة ناقدة ، أسلوبها من اجمل الإساليب ، وتعريفاتها التى تفرق بها بين الكتابة الصحفية والكتابة الادبية من ادق التعريفات ..

فالكتابة الصحفية فى رأيها كتابة كشف وتفصيل على وجه الصفحات والسطور ، بخلاف كتابة الادب التى توحى بالمضامين وتبقى لخيال القارىء منادح للشعور لاتستوعبها المحسوسات

وهذا مثال موجز لتفرقتها بين أغراض الكتابة واساليبها :

ولدت فى وشستر بفرجينيا، وانتقل بها ابواها الى الحدود الغربية ، وهى فى التاسعة ، ونمت وهى تختبر الحياة بين اقوام من امم الشمال والجرمان والكنديين الفرنسيين ، وكانت هى من أسرة منحدرة من أصول انجليزية ايرلندية الزاسية ، فتهيأت لها خبرة وافية لدراسة الامم والشخصيات قلما تتهيا لناشىء صغير فى وطن محدود ، وقد تعلمت من الحياة حتى دروس الكتب ، لانها نشأت فى أمكنة لاتتوافر فيها مدارس الاطفال ، فتلقنت من الاسرة وجيرانها مبادىء الكتابة واللغة، الى ان بلغت سن التعليم الجامعى فانتظمت فى جامعة **نبراسكا** ، وتخرجت منها وهى دون العشرين .

عملت فى الصحافة والتعليم، وشغفت بالموسيقى والسياحة ، وقرأت كثيرا من الادب السلفى ومن الادب الامريكى ، واعجبت بالشاعر الكبير **ويثمان** وبالروائى **هنرى جيمس** ، ولها كتاب عن الرواد اقتبست عنوانه من عنوان قصيدة **لويتمان** ، ولخصت فيه

سر اعجابها بهؤلاء الرواد الفاتحين للبرارى والمجاهل ، فقالت انهم هم القوم الذين جعلوا نشدان الثروة « نصرا اخلاقيا » ، لانهم يحققون « النجاح المادى » بخلق العمار بأيديهم وتذليل المصاعب بعزيمتهم ورياضة الطباع على الصبر والثبات .. وقصتها التالية عن « **مسألة بول** » نقد اجتماعى لحياة المدينة التى تستغوى الناشئة ممن فقدوا حنان الامهات ، وهى خير تطبيق لمذهب العلاج النفسانى الذى يداوى من العلة بكشف اسبابها ودواعى الوقوع فيها ، من غير تنبيه الذهن الى قصد التعليم والارشاد ، أو تبديل الوقائع للوصول بهذا التبديل الى موقع العظة والاعتبار .

ولعل القصة نفسها من مشاهداتها بين المدرسة واندية الموسيقى .. وقد عاشت للأدب والفن ، ولم تتزوج ، واختارها معهد الادب الامريكى عضوا له وهى فى الثانية والخمسين .

مسالة بول

كان بعد الظهر هذا هوالموعدالذى يتقدم فيه **بول** الىمجلس مدرسة **بتسبرج** الاعلىللمحاسبة على اخطائه المتعددة، وكان قد صدر الامر بوقفهمنذاسبوع ، وجاء ابوه الى مكتب المدرسة يعترف بحيرته فى امرولده ،ودخل **بول** حجرة المجلس مترفقا يبتسم ، وكانت ملابسهقد صغرت عنه قليلا ولون المخمل الذى فى قلابة المعطفقدنصل وتغير ، ولكنه علىهذاكان يبدو فى مظهر المتانق ، ويضع فصا من جوهر عين الهر فى قلادته المرقطة وقرنفلة حمراءفى عروته ، مما لاح كانه شىء لايناسب حالة القلق التىتعترىطالبا تحت شبهة الاتهام والعقاب !

وكان **بول** اطول من سنه ، نحيفا شديد النحافة ، مرتفع الكتفين ضيق الصدر ، تلمععيناه لمعة عصبية ، ويديرهما عامدا على نحو ينمعلى العدوانوالاجتراء من فتى مثله ، ولهما بؤبؤان واسعان كاعين المدمنينلبعض المخدرات ، لولا تلك السطعة البلورية التى لا تكونللمدمنين ..!

ولما ساله **الرئيس** : ماذا ساقه الى ذلك الموقف ، اجاب فى ادب جم انه يريد العودة الىالمدرسة . وكانهذا كذبا منه تعوده ، واعتقد انه لازم لاجتنابالصدام .. !

وسئل **معلموه** أن يشرحواشكاياتهم منه ، فبسطوها فى مضض واستياء ينبىء عنمسالة من غير المسائل المالوفة، وعددوا من التهم الاختلالوالقحة ، واحس كل منهم صعوبة تصوير المشكلة معهبالكلم الواضح المحدود ، فانما كانت المشكلة ضربا من التحدىالعصبى او ضربا من الازدراء الذى يشعرون انه يكنه لهماجمعين ، ولا يلوح عليه انه

يحاول اخفاءه اقل محاولة .. فاتفق مرة انه كان يلخص عبارة على السبورة ، فاقتربت منه مدرسته الانجليزية لتأخذ بيده فى كتابتها ، فارتد پول الى الوراء متبرما ، وثنى يديه وراء ظهره بعنف وشدة، واحست المرأة المذهولة انه لم يكن خليقا ان يؤذيها اشد من هذا الايذاء لو انه ضربها، وكانت الاساءة مصطبغة بالصبغة الشخصية التى لاتنسى ! وهكذا كان يغضب معلميه بأمثال هذه الاساءات ، رجالا ونساء ، ويشعرهم جميعا بنفوره واشمئزازه ، فكان فى حصة من الحصص يجلس ويظلل عينيه بيديه ، وفى حصة اخرى ينظر الى النافذة خلال الالقاء ، وفى غيرهما يعلق على الدرس تعليقا مقتضبا يشف عن السخرية !!

واحس اساتذته ذلك الاصيل ان اساءاته جميعا قد تلخصت فى ارتفاع كتفيه وتصدير القرنفلة الحمراء فى عروته ، فانهالوا عليه بغير شفقة ، وفى طليعتهم المدرسة الانجليزية ، وكان هو يستمع اليهم مبتسما وقد انفرجت شفتاه الصفراوان عن ثناياه البيض ، وكان من عادته ان ترتجف شفتاه ويرتفع حاجباه، اشارة من اشارات الاستخفاف غاية فى الاساءة والايذاء . وان غيره من الصبية الذين هم اسن منه لينكسرون وينفجرون بالبكاء فى مثل موقفه ، ولكنه هو لم تفارقه ابتسامته المتكلفة لحظة ، ولم يكن يظهر عليه من دلائل الامتعاض الا ارتجاف اصابعه وهو يعبث بأزرار المعطف ، او ارتجاف اصابعه التى يحمل بها قبعته !!

كان يبتسم على الدوام ويجيل لمحاته على الدوام ، باديا عليه انه يحس ان الناس يراقبونه ، ويجتهد فى استكناه شىء من وراء نظراتهم ، وكان هذا المظهر المتعمد بعيدا غاية البعد من مرح الصبا ، فكان من يراه يعزوه الى القحة والتكلف !

وفى اثناء المحاكمة روت **احدى المعلمات** عبارة وقحة وجهها اليها ، فسأله **الرئيس** : اتظن ان هذه العبارة مما يحسن توجيهه الى سيدة ؟ فما زاد پول على ان هز كتفيه وعقد حاجبيه، ثم **قال** : لاأعلم، فاننى لم اقصد المجاملة كما اننى لم اقصد سوء الادب ، واحسبه اسلوبا من الاساليب التى تعودتها غير عامد !

وساله **الرئيس** : الا ترى انه اسـلوب من الحسن تركه واجتنابه ؟

فابتسم **بول** وقال : اظن !

ولما قيل له انه يستطيع ان ينصرف، انحنى فى اناقة، ومضى .. فكان ذلك الانحنـاء الانيق منه كانه تكرار لفصل **القرنفلة الحمراء** !

وكان معلموه فى قنـوط ، وكانمـا عبر **معلم الرسم** عن شعورهم جميعـا حين قال انه يحسب فى طبيعة الصبى شيئـا غير مفهوم ، ولا يخال ان هذه الابتسـامة من محض القحـة وسوء الادب ، فانهـا محفوفة بعـارض من الغموض ، وليس الصبى قويا سليما . فلا بد من سر هناك !

وخلص **معلم** الرسم الى ملاحظة عن اسـنان **بول** البيضاء ولمعان عينيـه المغتصب ، وقال انه رآه يوما نائمـا فى المرسم ، فلفت نظره امتقاع لون وجهه ، وزرقة العروق مع الثنايا المحيطة بعينيه ، مما يستغرب فى مثل سنه ، وان شفتيه تختلجـان حتى خلال الرقاد .. !

وشـعر **المعلمون** ان **المجلس** يخامره الاسف والاسى ، وانهم غير راضين عن انفسهم لشعورهم بالنقمة من **صبى** كهذا، وانطلاقهم فى التهم وتسابقهم فى المطـاردة، وخطرت لاحدهم صورة **قطة** كان قد رآها فى الطريق يناوشها المطـاردون ويسـدون عليهـا الفجاج ..

اما **بول** فانه راح يهبط التل عدوا ويصفر بنشيد الجند فى رواية **فاوست** ، ناظرا خلفـه من حين الى حين نظرة مجفلة ، عسى ان يلمح بعض اسـاتذته وهو يراه فى خفته وقلة اكترائه، وكان الوقت قد تاخر اصيلا ، **وبول** صاحب النوبة فى الاستقبال **بقاعة كارنيجى** ، فاعتزم الا يذهب الى منزله للعشاء .

لم يكن الباب قد فتح حين وصل الى جانب القاعة ، وكان الجو قارسا خارجهـا ، فاعتزم الصعود الى رواق الصور الذى يخلو من الزوار فى ذلك الموعد ، وذهب الى حيث كـانت فى

الرواق نخبة من دراسات **رافلى** المرحة لشوارع **باريس** وصورة شفافة زرقاء أو صورتان من صور **البندقية** تعجبانه ، وسره ان يرى القاعة مصفرة الا من **الحارس** الهرم الذى كان يجلس فى ركنه وعلى ركبته صحيفة ، وقد اقفل احدى عينيه وظهرت فوق عينه الاخرى بقعة سوداء ! ..

واستولى **بول** على المكان ذاهبا آيبا يصفر فى ثقة وطمأنينة ثم جلس بعد هنيهة أمام صورة من الحجر المكسيكى ، وغاب عن نفسه ، فلما التفت الى ساعته يتعرف الوقت كانت قد بلغت السابعة ، فاسرع الى السلم وجعل يلعب وجهه سخرا أمام تمثال **أغسطس قيصر** البادى من حجرة النحت ، ويرمق تمثال **فينوس** شزرا حين عبره على طريق الدرج !

كان فى حجرة الملابس ستة من الصبيان حين وصل اليها ، فاخذ يولج نفسه فى كسوته مضطربا ، وكانت احدى الكسى القلائل التى توائم لابسها ، ويحسبها بول لابقة عليه ، وان كان معطفها المشدود يكشف عن ضيق صدره الذى كان دقيق الحساسية من نحوه ، وكان على الدوام يضطرب حين يلبس متخبطا على ايقاع الاوتار ونفخات الابواق التجريبية فى قاعة الموسيقى ، ولكنه فى هذا المساء لم يكن يملك نفسه ، فراح يعاكس الصبية ويناوئهم ، حتى رموه بالجنون والقوه على الارض وجلسوا فوقه . .

وهدأته هذه الرمية ، فاندفع الى مقدمة الدار يجلس القادمين المبكرين ، وكان مستقبلا مثاليا يجرى هنا وهناك مبتسما متلطفا ، لايستكثر تعبا فى عمله ، وهو يحمل من هنا رسالة ويحمل الى هنا برنامجا ، كأنها عنده متعة الحياة ، وكل من رآه فى شقة عمله احسوا انه صبى لطيف يذكرهم ويعجب بهم .. وينشط كلما ازدحمت الدار ، فتتورد وجنتاه وشفتاه ، وكأنما هو استقبال فخم ، مضيفه الذى يرحب به هو **بول** !!

وان الموسيقيين ليستوون فى مقاعدهم اذا بالمعلمة الانجليزية قد حضرت بتذكرة للمقاعد التى يحجزها احد اصحاب المعامل الكبار فى الموسم ، فارتبكت قليلا حين وقع نظرها على **بول** ،

وأسلمته التذكرة مترفعة ، ثم لم تلبث ان استحمقت من نفسها ذلك الترفع ، واجفل **بول** اذ رآها فهم ان يبعدها، مستغربا ان تكون هنالك بين هؤلاء الظرفاء والظريفات بملابسها الزرية، ولكن التذكرة ولاشك قد وصلت اليها من قبيل الرحمة والاشفاق ! وخطر له ذلك وهو يهيىء لها مكانا يحق لها أن تشغله كما يحق له حيث كان ..

ولما بدات الموسيقى غاص **بول** فى كرسى خلفى وغاب عن وعيه ، كما فعل منذ هنيهة فى رواق الصور ، ولم يكن ذاك لان الحان الموسيقى تعنيه اية عناية ، ولكنه استراح عندما سمع اول نفثة من آلاتها ، وشاعت فى حناياه خلجة منعشة ، خلجة كانها خلجة الجنى التى احسها الصياد العربى فى **القمقم**، وانبعثت فيه دفعة حية ، وتراقصت الاضواء أمام عينيه ، وسطعت القاعة برونق يفوق مدى الخيال، ولما اشتركت الاحادية (ترجمة لكلمة منولوجيست الذى يلقى دوره منفردا ..) بنغمة «السبرانو» استسلم **بول** لنشوته الخاصة التى تحركها فيه مثيلاتها .. واتفق ان المغنية كانت امراة المانية ليست على كل حال بالفتية فى ريعان الفتوة ، ولها أطفال كثيرون ، الا أنها كانت تلبس ثوبا من الحرير ، ويزدان راسها باكليل جميل ، وتحف بشخصها تلك الهالة التى تستعصى على البيان ، وتشف عن النضج والتمام ، وما تشعه عليها النظرات العالمية من أشعة تحجب عن بصره كل عيب مظنون !!

ان **بول** ليشيح فى نفسه الهياج والابتئاس عقب كل دور من ادوار الموسيقى ، فلا يهدأ حتى يذهب فينام ، وكان قلقه فى تلك الليلة خاصة أشد من قلقه فى سائر الليالى ، اذ كان يحس انه عاجز عن تسكين سورته ، وانه لا يطيق أن يترك تلك النشوة اللذيذة التى كانت عنده دون غيرها جديرة أن تحسب من الحياة ، وفى أثناء العزفة الاخيرة تسلل من المكان ، وبدل ملابسه على عجل ، وانفتل الى الباب الجانبى حيث تقف مركبة المغنية ، ثم راح يتمشى جيئة وذهوبا مسرع الخطا ، مترقبا أن يراها وهى خارجة ..!

***

وكان بناء «**شنلى**» من ثمة يتراءى فى شكله القائم ضخما

رصينا خلال الرذاذ ، تسطع الاضواء من نوافذه فى طباقه الاثنتى عشرة ، كأنها لعبة الورق تحت **شجرة** عيد الميلاد ، وفى هذا البناء يقيم كل ممثل وممثلة وكل مغن ومغنية من ذوى الصيت حيثما حضروا الى المدينة ، كما يقيم فيه ذوو المصانع الكبار أيام الشتاء ، وطالما وقف **بول** هنالك يتتبع الداخلين والخارجين ويتمنى لو يتاح له أن يعيش هناك ويودع المعلمين وشواغلهم المملة حيث يعملون !

ثم خرجت المغنية اخيرا يصحبها المدير الذى ساعدها وهى تركب ، وأقفل باب المركبة يحييها مودعا تحية ملؤها الود والعطف جعلت **بول** يسائل نفسه عساها كانت عشيقة له من قبل !.

واقتفى المركبة الى الفندق مهرولا كى يقترب من المدخل ولايكون بعيدا منه حين تهبط المغنية من المركبة ، ونزلت المغنية ثم اختفت وراء الباب الزجاجى الدوار حيث فتحه لها زنجى فى معطف طويل على رأسه قبعة عالية .. وخيل الى **بول** أنه هو ايضا قد دخل معها ورافقها على السلم الى الحجرة الدافئة الوثيرة والعيشة الوادعة الرخية ، وارسل خياله يتصور الصحاف اللامعة والقناني الخضر المثلجة التى يؤتى بها الى حجرة المائدة ، كما يراها فى ملاحق صحف الآحاد.. وانهمرت دفعة من الريح فجأة بسيل من المطر الغزير ، فارتاع **بول** اذ تنبه الى موقفه هناك على الحصباء، مبتل الحذاء لاصقا به معطفه المبلل الهزيل ! ورأى النور امام الملعب قد انطفأ والمطر يرسل بينه وبين النوافذ البرتقالية اللامعة ستارا من الماء .. وها هو ذا ينظر الى ما يشتهيه ماثلا امامه كأنه زفة ليلة **عيد الميلاد** السحرية وهو واقف حيث يصك المطر وجهه يتساءل فى قرارة خاطره : أتراه مقدورا له أن يقف ثمة ابدا يرتعد ويتطلع فوقه فى جوف الليل البهيم ؟

ثم استدار فمشى على رغمه الى ناحية الممر الذى تعبره المركبات ، ولابد مما ليس منه بد فى خاتمة المطاف : **ابوه** فى ملابس النوم على راس السلم ، واعذار ليست باعذار، وتلفيقات مخترعة لاتزال تتوارد على ذهنه، وجحرته العليا بورقها المصفر

الكريه على الجدران ، والمنضدة الصرارة الوضرة ، ومن فوقها صورة **جورج واشنطون** وصورة **جون كلفن** والكلمة المحفورة ، «اطعم خرافى» بلونها الاحمر كما كتبتها امه فيما يعلم ، وليس فى ذاكرته منها اثر .

وبعد نصف ساعة نزل **پول** من احدى مركبات شارع «نيجلى» ومشى متمهلا الى احد الازقة المتفرعة على الطريق العام، وكان هذا الطريق العام من الطرق المحتشمة ، تقوم مساكنه على نسق واحد حيث يعيش أصحاب الاعمال من الطبقة الوسطى بين ذويهم وأطفالهم ، الذين يذهبون جميعا الى مدارس الاحد ، ويستظهرون الاجوبة الدينية المختصرة ، ويحتفلون بدروس الحساب ، ويلوحون كمساكنهم أشباحا فى كل شىء وفقا للمكان الرتيب الذى يعيشون فيه !!

ولم يكن **پول** يذهب قط الى شارع كورديليا حتى أحس المطر قشعريرة من النفرة والكراهية، اذ كان بيته مجاورا لبيت القسيس .. فاقترب منه تلك الليلة خاصة يملؤه شعور متبلد بالهزيمة واحساس قانط بالرجعة الدائمة الى جو الدمامة والبذاذة الذى يطبق عليه كلما قارب بيته . وما انحرف الى شارع كورديليا حتى أحس المطر فوق رأسه ، وشاع فى حناياه ذلك الهمود الذى يغشاه على اثر كل ملهاة قاصفة من ملاهيه تلك ، كأنه الهبوط البدنى الذى يعقب كل اسراف ..!! سرر متواضعة ،وأغذية شائعة، ومسكن ينضح بروائح المطبخ ، ونفرة من كل ما لا طعم له ولا لون له ولا مزية فيه من انماط المعيشة المتكررة كل يوم على وتيرة واحدة ، واستولى عليه شوق جامح الى كل وثير مصقول ، والى الانوار الناعمة والرياحين النضرة المطلولة .. !

وكلما اقترب ناحية البيت تجسمت فيه تلك النفرة من كل ما تقع عليه العين هنالك ، من حجرة نومه الشوهاء ، وحجرة الحمام الباردة ، واجانتها الكالحة القصديرية (طشت الغسيل) ومرآتها المشدوخة والفوهات المثرنرة . وابوه هنالك على راس السلم يطل شعر ساقيه من قميص النوم ، وقد ماه فى مداسه المعهود من وبر السجاد !

لقد تأخر تلك الليلة عن موعده فوق ماتعود ، فلا مناص من الاسئلة والتأنيبات المألوفة . فتريث عند الباب ، وبدا له أنه غير مستطيع تلك الليلة أن يتعرض للموشح المنتظر ، وأن يتقلب على السرير الحقير . غير مستطيع ان يدخل ، وسيخبر أباه أنه لم يجد أجرة السيارة ، وانه وجد المطر غزيرا، فذهب مع صديق له الى منزله وبات لديه ..

الا أنه كان مبتلا مبترداً فدارحول المنزل الى خلفه، وعالج الدخول من احدى النوافذ فانفتحت ، وتسلق فى حذر ثم هبط من جدار قبو الطعام الى البلاط . وهنالك وقف يمسك انفاسه مذعورا من وقع حركاته ، فلم يسمع صوتا فوقه ولم يسمع صريرا على السلم .. ووجد على مقربة منه صندوق صابون فحمله الى شريط النور الذى كان ينفذ الى المكان من باب الفرن وجلس عليه . وكان من طبعه الفزع من الجرذان ، فلم يحاول أن ينام فى موضعه، بل جلس متوجسا ينظر الى الظلام ولا يزال على وجل ان يكون قد أيقظ اباه !

فى امثال هذه المآزق ، بعد التجارب التى تلف عليها الليالى والايام ، حول اوقات التقويم الموحشة ، اذ تصاب حواسه بالكلل ، يظل رأسه صحوا على الدوام .. ماذا لو كان **أبوه** قد سمعه وهو يتسلق الى النافذة واطلق النار عليه يحسبه من لصوص الليل ؟. بل ماذا لو كان أبوه اقبل نازلا وفى يده المسدس فصاح يبغى النجاة ، واجفل ابوه رعبا اذ يرى أنه أوشك أن يقتله ؟ بل ماذا لو جاء يوم بعدذلك فذكر أبوه تلك الليلة ، وود لو انه لم يكن سمع الصيحة التى كفت يده عن اطلاق النار ..؟ وعلى هذا الخاطر بقى پول يحبكه فى نفسه حتى الصباح ..

كان يوم الاحد التالى جميلا يسرى فى هوائه نفحة من بقايا الخريف الصيفى تدفىء جو نوفمبر القارس ، وكان على پول أن يذهب الى **الكنيسة** يوم الراحة كما هى العادة ، وكان من دأب سكان شارع **كورديليا** ايام الاحد المصحية ان يجلسوا بعد الظهر امام المنازل على مقاعدهم المنقولة ، ويتكلم كل منهم الى جاره على المقعد القريب أو ينادى بعضهم بعضا من شاكلته الى شاكلته فى الفة الجيران والاحباب . فيقعد الرجال على

الحشايا المزركشة التى توضع على الدرج الهابط الى الممشاة ، بينما يقعد النساء فى صدارات الاحد على الكراسى الهزازة فوق الطنف ، مظهرات غاية الرضى والغبطة بمجالسهن، ويلعب الاطفال فى الشوارع وهم كثار يخيل الى الناظر اليهم انه امام روضة من رياض الاطفال . وترى الرجال الذين على الدرج قد حلوا عرى قمصانهم ، ولووا اكمامهم ، وانفرجت سوقهم ، وامتدت اكراشهم امامهم ، وراحوا يتحدثون عن الاسعار اويروون النوادر المستطرفة عن لباقة رؤسائهم او اصحاب اعمالهم ، ويلتفتون لحظة بعد لحظة الى جمهرة الاطفال اللاغطين ، وقد تعالت اصواتهم الخنفاء ، ناظرين اليهم نظرات الحنان متفرسين اشباههم تتوارثها ذريتهم ، مستعيدين فى الذاكرة تبليغات الاساتذة عن درجاتهم المدرسية وتقدمهم فى الفصول ، مع ما يحكونه لهم من اساطير ملوك الحديد .

وجلس **بول** بعد الظهر يوم الاحد الاخير هذا على اسفل الدرج يحملق فى الطريق ،واخواته على كراسيهن يتحدثن الى بنات **القسيس** فى الدار المجاورة عما صنعن من القمص خلال الاسبوع ، وعما اكله بعضهم فى عشاء الكنيسة الاخير .. ويصنع البنات شراب الليمون اذا سخن الجو وبدت على ابيهن امرات الرضى والانشراح، فيحضرنه على الدوام فى قارورة حمراء تزينها الازهار على منديل مطرز الحواشى . وكان البنات يحسبنه لهوا ظريفا ان يمزح الجيران معهن حول ما فى لون القارورة من المعانى والاشارات .!

وفى ذلك اليوم كان والد بول على اعلى الدرج مشغولا بالحديث مع فتى يحمل طفلا فوق ركبتيه ، وينقله من ركبة الى ركبة لحظة بعد اخرى ، واتفق انه كان الفتى الذى تعود المعلمون ان يتخذوه مثلا يحتذى به بول ، محمر الطلعة مضغوط الفم ضعيف النظر يضع على عينيه نظارة يدور سلكها الذهبى على اذنيه ، وكان كاتبا لتاجر كبير من تجار الصلب ، معدودا فى الشارع من الشبان ذوى المستقبل ! ومن اقاصيصهم عنه انه منذ خمس سنوات ــ وهو الآن لايزيد على السادسة والعشرين ــ كان من شبان الهوى بعض الشىء ، فأشفق من عواقب المجون ، وبادر الى الزواج عملا بنصيحة رئيسه ، كبحالنزواته،

فاختار أول فتاة رضيته ، وكانت مدرسة نحيلة تكبره سنا ، وتضع مثله النظارة على عينيها، فولدت له حتى الآن أربعة أطفال كلهم قصار النظر على مثالها !

وفى ذلك اليوم كان **الفتى** يقص اخبار رئيسه الذى كان يومئذ يسيح على شواطىء البحر الابيض ويتلقى المعلومات يوما يوما منه عن سير العمل ، فيقول كيف انه يرتب اوقاته على اليخت كأنه فى البيت ، وكيف يشغل باملائه كاتبين على الآلة الكاتبة .. أما والد پول فكانت قصة حديثه عن مشروعات الشركة التى يعمل فيها لتسيير سكة الكهرباء بشوارع مدينة القاهرة ـ فجعل پول يصرف أسنانه ويتوقع أن ينقلب المجلس قبل أن يفضى اليه . بيد انه كان يحب أن يصغى الى تلك الاساطير عن **ملوك الحديد** ، يعيدونها من احد الى احد ، والى اخبار القصور فى **البندقية** وسفن اليخوت على شواطىء البحر الابيض ، وموائد اللعب فى **مونت كارلو** ، ويقع هذا الحديث موقع الارتياح فى مخيلته، ويشوقه مايقال عن موظفى الصندوق الفتيان الذين وصلوا من صناعة الصيرفة الى الشهرة، وان لم يكن من همه أن يعمل صيرفيا على صندوق .

وبعد العشاء راح مع اخواته يجفف الصحاف ، ويسأل اباه مضطربا : ايسمح له أن يذهب الى **جورج** ليستعين به على بعض مسائل الهندسة ، وسأله باضطراب فوق اضطرابه ذاك : ايعطيه اجرة السيارة ؟ واضطر الى اعادة السؤال الاخير لان اباه كان يكره ان يسمع سؤالا يتعلق بالفلوس كثرت او قلت .. فقال ابوه : اليس فى وسعه أن يذهب الى تلميذ قريب من الدار ؟ ثم نهاه ان يؤخر عمل المدرسة الى يوم الاحد. الا أنه اعطاه الاجرة المطلوبة .

ولم يكن ابوه فقيرا ولكنه كان يطمع ان يصبح شيئا فى العالم ، ولم يأذن لپول أن يعمل فى قاعة الموسيقى الا لانه كان من مذهبه ان يحصل الولد على بعض الكسب كائنا ما كان ..!

صعد پول قفزا على السلالم، فمسح من يديه وضر الصحاف وغسلهما بالصابون الذى يكرهه لرائحته الرديئة ، ورش على اصابعه قطرات من ماء البنفسج الذى يخفيه بقارورته فى درجه،

وغادر المنزل وكتاب الهندسة تحت ابطه .. وما كاد يفارق شارع **كورديليا** ويركب السيارة الى المدينة حتى نفض عنه فتور يومين كاملين ، وثاب كرة اخرى الى الحياة .

وكان رئيس فرقة الشبان التى تمثل فى احد المسارح بالمدينة من معارف **بول** ، وقد دعى الى الانشاد ليالى الآحاد كلما تيسر له الحضور ، وقد مضى اكثر من سنة على **بول** وهو يقضى كل وقت ممكن حول حجرة ملابس **شارلى ادوارد** ، وكان له بعض الحظوة فى صحبته ، لا لان الممثل الشاب لم تكن له طاقة باستخدام وصيف يساعده فى اللبس ، بل لانه انس من **بول** نوعا من « **الصلاح** » الذى يشبه ما يسمى فى عرف **الكنائس** بالهداية !!

وانما كان **بول** يعيش حقا فى **المسرح** وقاعة **كارنيجى**. اما ما عدا ذلك فللنوم والنسيان . ذلك كان « **سر** » **بول** الذى كان له فى نفسه ما لسر الغرام الخفى. وما هو الا ان يستنشىء نكهة العشب والطلاء والمساحيق المتناثرة ، حتى يحس احساس السجين اذ يتسم نسمات الحرية ويشعر من نفسه كأنه قادر على الكلم البارع والعمل العجاب ، ولا تكاد الفرقة الموسيقية تستهل العزف حتى تصدر منه السخائف والمضحكات ، وتلتهب حواسه ولكنه التهاب لذيذ !..

ولعله لاقتران الحياة الطبيعية بالقبح على الدوام فى نظر **بول** كان «العنصر الصناعى» ضروريا عنده للجمال ، أو لعله لامتلاء حياته فى غير هذه البيئة بمدارس الآحاد ، والاذكار الدينية ، وصغائر النفقة ، ونصائح النجاح فى المعيشة ، كانت هذه البيئة جذابة له بالحلل الانيقة التى يلبسها الرجال والنساء ، وبتلك التفاحات أو الثريات التى تلمع على الدوام تحت اشعة الضياء!!

ومن العسير ان نبالغ فى تصوير شعوره بالافق السحرى الحق كلما عبر باب المسرح ، فلاشك ان احدا من الرفقة لم يكن يتنبه لهذا الشعور فى طواياه ، وبخاصة **شارل ادوارد** ، فقد كان هذا اشبه بالاقاصيص القديمة التى كانت تحف باسم **لندن** الخفية ، وما احتوته من اولئك **اليهود** الخرافيين ذوى اليسار

الذين يلوذون تحت الارض بالسراديب ذات النخيل والاعشاب ، والنوافير والقناديل ، والحور الحسان فى الحلل والطيالس ، مقصورات تحت الارض لايبرزن الى النور . وكذلك كان **پول** يجد هيكله المسحور ، وبساطه الطيار ، وفص الامانى والاحلام ، بين تلك الشخوص والدواخين ، ويعاين فيها ما يحلم به فى شواطىء البحر الابيض السابحة فى الاضواء ..

ولقد حسب كثير من معلميه ان خياله قد اختل بقراءة الاساطير وغرائب الاقاصيص ، ولكنه فى الواقع لم يكن يقرأ الا قليلا او اقل من القليل ، ولم تكن الكتب الميسرة له فى البيت مما يغريه او يفسد عقل الفتى اذا اطلع عليه . اما الروايات التى كان بعض اصحابه يستميله اليها فقد كانت بغيته من امثالها تتحقق بالاصغاء الى **الموسيقى** : اى موسيقى من الفرق العازفة الى ارغن الطريق .. وكل ما كان يحتاج اليه شرارة تتقدح ثم يستولى خياله على حسه ويتكفل لنفسه بالصور والنوادر من خلقه وتوليده . كذلك لم يكن **پول** مفتونا بالمسرح على النحو المفهوم من هذه العبارة ، اذ لم يكن من امانيه ان يشتغل بالتمثيل ، ولا ان يشتغل بالموسيقى ، ولم تنبعث فيه رغبة قط فى صنيع من هذا القبيل ، وانما كان همه كله ان يرى وان يحاط بذلك الجو ، ويسبح على امواجه ، ويذهب مرحة فى اثر مرحلة بعيدا بعيدا من كل شىء !

وكلما قضى ليلة بين هذه المناظر عاد الى المدرسة اشد نفورا وكراهة مما كان .. ذلك البلاط العارى ، وتلك الجدران الجرداء ، واولئك القوم الذين لم يلبسوا قط حلة السهرة ، ولم يضعوا قط زهرات البنفسج فى عروة رداء ، واولئك النسوة فى مآزرهن الكابية واصواتهن الناشزة ، وجدهن الصغير حول قواعد الاجرومية والاعراب ! وكان لا يطيق ان يتخيل التلاميذ الآخرون انه يهتم جدا بهذه الخلائق ، ولابد له ان يوقع فى روعهم انه مستخف بهم ، وان مقامه بينهم انما هو محض سخرية ومزاح . وقد كانت عنده صور مهداة اليه من جميع اعضاء الفرق المسرحيين . يريها لزملائه ويحدثهم عن الفته لاصحابها اعجب

الاحاديث التى لا تصدق ، ويحكى لهم مايروقه عن صداقته للمغنيات اللائى يأتين الى قاعة **كارنيجى** ، وموائد العشاء معهن ، وباقات الزهر التى يرسلها اليهن . فاذا فقدت هذه الحكايات فعلها فى نفوس زملائه ، ولم يكترث لها سامعوه منهم ، ودعهم وانصرف ، وهو يزعم لهم أنه ذاهب الى سياحة بين **نابلى وكليفورنيا ومصر** .. ثم يعود يوم الاثنين التالى مبتسما ، شاعرا بموقفه ، معتذرا بمرض اخته الذى الجاه الى تأخير السفر وارجاء السياحة الى الربيع ..

وظلت الامور تزداد سوءا مع **پول** فى مدرسته وبين زملائه ومعلميه ، تستفزه الرغبة فى اشعار معلميه انه يحتقرهم وان له مكانة ومكانا بين سواهم ، فيقول انه لا يستطيع أن يفرغ وقته لهذه النظريات والقضايا ، ويضيف الى ذلك وهو يزوى حاجبيه ويمزج كلامه بتلك اللهجة المترفعة التى تحيرهم أنه مشغول بمساعدة القوم فى الفرقة الموسيقية ، وانهم اصدقاء له قدماء !!

ثم انتهت المسألة بذهاب **الرئيس** الى والد **پول** ، واخراج **پول** من المدرسة ليؤدى عملا من الاعمال ، وقيل لمدير قاعة **كارنيجى** أن يبحث عن حاجب مستقبل غيره ، وقيل لبواب المسرح الا يدخله اذا جاء ، ووعد **شارل ادوارد** على اسف منه الا يقابله بعد ذلك . وقد كانت **قصة پول** تسلية وفكاهة لاعضاء الفرقة حين سمعوا بها ، ولاسيما النساء ، فانهن جميعا نساء عاملات جادات يعملن ليعلن أزواجا كسالى أواخوة عاطلين ! وقد ضحكن كثيرا — وان يكن ضحكا تخالطه المرارة — لانهن دفعن الصبى على غير علم منهن الى اختراع تلك النوادر ، ووافقن ادارة المدرسة ووالد پول على أنه مثل ردىء ..

***

كان قطار الشرق يخترق عاصفة ثلجية من عواصف يناير حين اخذت أشعة الفجر الراكد تتسرب الى الانظار ، وصفر القطار على مسافة ميل من نيوارك . فانتفض **پول** على

مقعده حيث كان متحويا فى نومة قلقة ، ومسح بكفه زجاج النافذة واطل يستطلع ماوراءه ..

كان الثلج يتساقط لفة لفة على الارض المبيضة مما تراكم عليها وعلى الحواجز ، الا اطرافا من الحشائش الميتة تطلع رؤوسها من فوق تلك الثلوج المتراكمة. ولاحت الاضواء من المنازل المبعثرة، وراحت طائفة من العمال على الطريق تلوح بمصابيحها ...

ولم ينم **بول** غير قليل ، فاحس فى نفسه الكدر والتعب ، وكان قد عبر مسافة الليل فى مركبة صباحية ، لانه خشى اذا هو سافر بمركبة البلمان ان يقع عليه نظر رجل من رجال الاعمال فى **بتزبرج** رآه بمكتب **دنى وكارسون**، فلما ايقظته الصفارة اسرع بيده يلمس جيب صداره ويدور ببصره ، وهو يبتسم ابتسامة مترددة ... وكان الايطاليون الصغار الملطخون بالطين لايزالون مستغرقين فى النوم ، والنسوة الحشفات فى الممشى يغفرن افواههن ، وسكت حتى الاطفال الصاخبون الذين لاينقطعون عن البكاء ، فحاول **بول** ان يغالب قلقه ما استطاع .

فلما وصل الى محطة **چرسى** تناول طعام الافطار على عجل وامتعاض ، وهو لايكف عن النظر الى ماحوله ، ثم نزل بعد محطة الشارع الثالث والعشرين فدعا بسائق ، وركب معه الى دكان من دكاكين اللوازمات للرجال ، لم يكد يفتح بابه فى اول النهار، فقضى ثمة اكثر من ساعتين مدققا مبالغا فى تدقيقه ، ولبس كسوته الخارجية الجديدة فى المقصورة ، وطوى معطفه وسائر ملابسه فى المركبة مع قمصانه الجدد . ثم ركب الى دكان للقبعات والاحذية ، وكانت وجهته التالية الى « **تيفانى** » حيث انتقى بعض الفرش المفضضة ودبوسا للفاع لم ينتظر يثما تنقش على فرشته علامتها ، بل ذهب الى دكان الحقائب فوضع مشترياته فى اكياس متفرقة من اكياس الاسفار ...

كانت الساعة قد جاوزت الواحدة بقليل ، فركب الى « **والدورف** » وولج باب المكتب بعد محاسبة الحوذى ، وكتب امام اسمه انه قادم من واشنطون، وزعم ان والديه مسافران فى

الخـــارج ، وانه قدم لانتظـار وصولهما على الباخرة ، وحكى قصته هذه بغير ريبة ، فقوبلت بغير مشقة ، لانه عرض عليهم ان يدفع الاجر عنهما سلفا، واستأجر حجرة للنوم واخرى للجلوس مع الحمام !!

ولم يكن بول قد رسم هـذه الخطة للسفر الى **نيويورك** مرة واحدة ، بل مائة مرة ، وكان قد راجع تفصيلاتها مع **شارلى دوارد** ، وعنده فى دفتره بالدار صفحات وافيـة بوصف **فنادق** ـــويورك مقطوعة من صحف الآحاد .

ولما قادوه الى حجرة الجلوس التى اختارها فى الطبقة الثامنة، وجد كل شىء على مايرام ، لايعوزه من الصورة التى رسمها فى ذهنه الا الازهـار والرياحين . فدق الجرس للغلام وارسله فى طلب باقة منها ، وظل يحوم قلقا حتى رجع اليه الغلام ، فجعل يخلع ملابسه الجديدة ويجسها باصابعه فى ارتياح ، فلما جاءته البـاقة اسرع فوضعها فى الماء ،وغطس فى حمام سـاخن . ثم خرج من حجرة الحمام البيضاء متسربلا بملابســـه الحريرية القشيبة ، يلعب بأهـــداب ثوبه الاحمر ، وكان الثلج يتســاقط دراكا خارج النوافذ يحجب النظر حتى لايكاد يرى ماهنالك ،ولكن الهواء فى الداخـــل ناعم عطر ،فوضع البنفسج والنسرين على الكرسى الصغير بجانب السرير ، والقى بنفســه وهو يتنهد مستريحا ، ويجذب عليـه الملاءة الرومانية .. وكان متعبا بعـد الحركة المتلاحقة ،والتوتر اللاعج،والمسـافة الطويلة التى عبـرها خـلال الاربع والعشرين الساعة الاخـيرة ، حتى خلص الى نفسـه آخر الامر يفكر كيف كان ماكان ،وســكن الى أصـداء الريح والى الهـواء الدافىء وريا الازهـار المعطرة الندية ، فاسترسـل فى المراجعة والاستعادة بين اليقظـة والتهويم .

لقـد كان الامر مدهشا لفرط بساطتـه ، فانه لمـا أقصوه عن المسرح وقاعة الموسيقى ،وحرموه قوام حيـاته ، تقرر كل شىء فى عزيمته ، فلم يكن مابقى الامسالة فرصـة تنتهز فى أوانها ، وانما أذهلتـــه جرأته ، لانه كان يدرك أنه طريد الخوف والجزع ، لكثرة ماكان يلفقـه من الاكاذيب التى كان خوفه من افتضاحها يلاحقـه

ويطبق عليه ، ويشد عضلات بدنه ، فلا تزال تضيق به ثم تضيق ، ولا يذكر حتى الساعة زمنا لم يكن فيه خائفا من شيء من الاشياء ، وكذلك كان منذ طفولته يترقب ذلك الشيء المخيف وراءه أو أمامه أو على جانبيه ، فلم يكن له مهرب من الركن المظلم الذى لايجسر على مواجهته واستطلاعه ، ولكنه لايفتأ يتوهم أن أحدا يواجهه منه ويستطلعه .. وطالما فعل ماليس بالمستحسن أن تقع عليه عيناه وهو أعلم بما فعل .. ! أما الآن فقد استولى عليه شعور عجيب بالخلاص ، كأنما هو قد ألقى القفاز وتحدى ذلك الشيء المخيف وراء ركن الظلام !

على أنه لم يمض غير يوم واحد منذ كان يتلفت اليه وهو يتعقبه ويطارده . كان أمس عند الاصيل اذ أرسلوه بوديعة **دنى وكارسون** على حسب العادة ، وأمروه هذه المرة أن يدع الدفتر للموازنة ، وكان هنا لك أكثر من ألفى ريال محمولة ، ونحو ألف ريال من ورق العملة ، أخذها جميعا وحولها الى داخل جيبه ، واستخرج فى المصرف قسيمة ايداع جديدة ، وبلغ من هدوء أعصابه أنه عاد الى المكتب فأتم عمله والتمس الترخيص له فى الغياب يوم الغد — وكان يوم سبت — منتحلا لذلك عذرا مقبولا . وقد علم أن الدفتر لن يعاد قبل يوم الاثنين أو الثلاثاء ، وان أباه يومئذ يكون غائبا عن البلدة بقية الاسبوع ، ولم يداخله شعور التردد طرفة عين منذ وضع ورق العملة فى جيبه الى أن استقل القطار الى نيويورك !

وما أسهل ماحدث هذا كله . فالآن لا ايقاظ ولا أشباح تنتظره عند أعلى السلم ، وظل يراقب نتف الثلج من وراء النافذة الى أن استغرق فى السبات العميق .

كانت الساعة الرابعة بعد الظهر عندما أفاق من نومه ، فوثب فى قفزة واحدة .. لقد ضاع يوم من أيامه القلائل الثمينة ، فقضى نحو ساعة يلبس ويتأنق ويتطلع الى المرآة . وتم كل شيء على الوجه المطلوب ، فهو الآن ذلك الفتى الذى طالما تمنى أن يكونه منذ سنوات !

واستقل مركبة بعد نزوله ، فاتجه بها الى الشارع الخامس

نحو **المتنزه** . وكان تساقط الثلج قد خف قليلا ، وانطلق السابلة والمركبات يذهبون ويجيئون هنا وهناك فى شفق الشتاء، وظهر **الغلمان** بملابسهم الصوفية يجرفون الثلج من درج الابواب ، ولاحت دكك الشارع بألوانها معارضة للبياض من جانب الشارع ، وبدت فى الزوايا **حدائق** الرياحين مزدهرة وراء نوافذ الزجاج التى كان الثلج يتساقط عليها ويذوب فوقها : بنفسج وورد وقرنفل وليلاق ، تتألق على نحو أبهج جدا وافتن من معهودها، اذ كانت على غير العادة تتألق بين الثلوج، وكان المتنزه نفسه منظرا عجبا من مناظر الشتاء .. ! !

ولما قفل راجعا كانت فترة الشفق قد انتهت وتغيرت نغمة الشوارع والطرقات ، وعاد الثلج يتساقط دراكا وفاضت الانوار من الفنادق التى ارتفعت طباقها تتحدى الرياح الغاضبة من قبل المحيط الاطلسى ، وتلاحقت ارتال من السيارات تقاطعها عرضا ارتال اخرى من مفارق شتى فى الطريق ، وكان على باب فندقه نحو عشرين مركبة مما اضطر حوذيه الى التريث حيث يشاهد الصبية خدم الفندق فى اكسيتهم الملونة يعدون مقبلين مدبرين على البسط الممتدة من الباب الى الطريق ، وفى كل مكان من فوق ومن الدخل وعلى الجانبين ضجيج وزحام يكتظ بألوف من الخلائق الآدمية ، كلهم متلهف كلهفته على المتعة والسرور ، ويدور بعينيه فلا يرى ثمة الا دلائل الصولة والحول والطول ، تثبت ثبوت اليقين سلطان الثراء القادر على كل شىء . . ! !

وصرف **الصبى** اسنانه ، وضيق مابين منكبيه وانتابته نوبة ادراك وتصديق لما تمناه ، فهذا محور الروايات ، ومدار الاساطير ، ومادة العصب الذى يختلج بكل شعور يدور من حوله دوران الثلج المتساقط فى الهواء ، وكأنما هو هنالك وقود من الحطب فى اعصار . . !

ولما هبط **بول** من السلم لتناول العشاء ، قابلته انغام الموسيقى من فتحة المصعد تحييه ، فتقدم الى الرواق المزدحم ، وجلس على احد المقاعد عند الحائط يستعيد انفاسه ، وخطر له لحظة ان هذه الانوار ، وهذه الاصوات ،

وهذه الروائح المعطرة ، وهـذه الالوان المتعددة ، فوق طاقتـه ووراء قدرته على الاحتمال . الا انها لحظة .. لحظة ليس الا .. فانما كان هؤلاء جمهوره المختار كما قال لنفسـه ، وتمشى بين الأروقة متمهلا خـلال حجرات الكتابة والتدخين والاستقبال ، كأنه يستكشف الغرف والحجرات فى قصر مسحور مشيد ومسكون من أجله دون سواه !

ثم بلغ حجرة المائدة فجلس الى مائدة بجـوار النـافذة ، وفاضت عليه أحلامه تذهـله بلألائها من قبل هاتيك الازاهير النضرة ، وتلك المفارش الناصعة ، وتلك القـوارير الملونة ، وتلك الحلل الفرحة ، وتلك السدادات الخافتة وهى تتفتح ، وتلك الانغام المتـرددة من جانب الفرقة وهى تعزف لحن الدانوب الأزرق . فلما أضيف اليها شعاع قدحه المتدفق بشراب الشمبانيا المورد ، باردا فوارا ، يعلوه رغو الحباب ، غلا به العجب أن يكون فى الدنيا أناس يدينـون بالامانة والربح الحلال !!

هذا كل مايقتتل عليه الناس .. هذا كل مايدور عليه القتال .. لقد كاد يرتاب فى ماضيه ويتساءل : أكان قد عرف قط مكانا يسمى شارع **كورديليا** ؟ مكانا يتلاحق فيـه الأبناذ من أحلاس الشغل وراء سـيارة الصباح الاولى ؟ ماكان هؤلاء كما تخيلهم **بول** تلك الساعة الاكالمسـامير فى الآلة الكبرى ، يقززون الناظر بنثار الشعر على معاطفهم من أمشاط صغارهم ، ورائحة المطبخ فى ثيابهم .. شارع **كورديليا** !! آخ . ذلك شىء فى زمان غير هذا الزمان ، ومكان غير هذا المكان ، وهل اتى عليه حين من الدهر قط لم يعش فيه حيث هو عائش تلك الساعة ولم يسهر فيه غير سهرته تلك الليلة بعد الليلة ؟ وهل يعود على مدى الذاكرة الى بيئة غير تلك البيئة حيث يلمس ماهو لامسه الآن بين ابهامه وبنصره من ذلك القدح الدهاق !

ولم يدر بخلده قط انه متهيب او منفرد ، ولم تساوره رغبة خاصة أن يعرف احدا من هؤلاء الناس ، . كل ماكان يحيك بصدره أن يستمتع بالنظر والتأمل وان يشهد ذلك الموكب بعينيه ، وحسبه المنظر المعروض امامه ، فهو غاية مايصبو اليه !

وما دار بخلده كذلك انه متهيب او منفرد فى مقصورته

بدار الاوبرا ذلك المساء ، بل خلص تماما من هواجسه ومن نوازع التهجم بالاساءة كى يرى مخالفا لما حوله . بل كان يحس ان ماحوله الآن يفسره ويشرحه ويوائمه ، وما من احد يرتاب فى حلة الارجوان . فانما عليه ان يلبسها غير متفحم ، وهذا يكفيه ! عليه ان يرمق كسوته الانيقة ليكون على ثقة انه فى سمته هذا لن يتعرض للاستخفاف من احد او للنظر اليه من عل ..

وشق عليه تلك الليلة ان يفارق ردهة الجلوس الجميلة الى حجرة نومه ، فلبث برهة يرقب العاصفة الهائجة من نافذة البرج ، فلما ذهب الى الفراش اد ار النور عليه ، لما طبع عليه من الخوف من جهة ، ولكيلا يخالجه الشك طرفة عين اذا استيقظ انه سيرى هنالك ورق الجدار الاصفر وصورة **واشنطون** و**كلفن** فوق سريره .

واصبح يوم الاحد والمدينة غارقة فى الثلوج ، فتناول **پول** طعام الافطار متاخرا ، وصادفه بعد الظهر **فتى** طالب حديث من **سان فرانسيسكو** ، قادم الى البلد ، قال له انه افلت فى سبيل جولة احدية ، وعرض عليه ان يطلعه على اسرار الليل فى المدينة ، فذهبا معا الى العشاء ، ولم يعودا الى الفندق الا الساعة السابعة من الصباح ، وكانا قد ابتدأ الصحبة فى حماسة الشمبانيا ، ثم افترقا افتراقا فاترا عند المصعد ، فأسرع الفتى الطالب الحديث يدرك قطاره اذ قد **پول** الى حجرة نومه . فلما استيقظ حوالى الساعة الثانية بعد الظهر ، أحس الظما والدوار ، ودق الجرس للخادم يأتيه بماء مثلج وقهوة مع صحف **بتسبرج** .

ولم يشتبه به احد من جانب ادارة الفندق ، فانه مما يرى عليه قد احسن لباس كسوته فى لياقة وكرامة ، ولم يلاحظ عليه مايلفت اليه الرقباء بصفة خاصة ، وانحصر نهمه فى سمعه وبصره ، فلم يكن فى افراطه مايسىء الى احد . واسر ماكان يسره هنالك منظر الشفق الاشهب من نافذة حجرته ، ومتعته الهادئة بالازهار والملابس والايوان الواسع ، وسجارته ، وشعوره بالاعتزاز والوجاهة ، ولم يذكر انه شعر قط بمثل

هذا الوئام والسلام مع نفسه فيما مضى من حياته ، فان مجرد الخلاص من اضطراره الى الاكاذيب الحقيرة كل يوم ويوما بعد يوم أعاد اليه الثقة بكرامته ... وما كان يكذب من قبل بمشيئته واختياره ، حتى فى المدرسة ، لمحض اللذة ، الا ان يكون ذلك لفتا للأنظار والاعجاب ، ليؤكد لزملائه انه شيء آخر غير سائر الصبية من شارع **كورديليا** ، فهو الآن أوفر رجولة وأوفر اخلاصا وصدقا ، حين لا يشعر فى قرارة ضميره بالحاجة الى نفخة الابهة والادعاء ، أو الى « لبس الدور » كما كان أصحابه الممثلون يقولون .. وتوالت أيامه الذهبية دون ان تشوبها شائبة من ندم أو اسف ، بل كان يجتهد اجتهاده ان يستوفى كل يوم من أيامه الى الثمالة ..!

وفى اليوم الثانى لوصوله الى نيويورك وجد الحكاية كلها مستغلة مفصلة بكل اسهاب ، فى صحافة **بتسبرج** ، مما يدل على أن الحوادث المحلية المثيرة كاسدة فى تلك الايام . وقد أعلن مكتب **دني وكارسون** أن والد الفتى سدد الغرم ، وليس لدى المكتب نية المقاضاة ، وحودث **قسيس كمبرلاند** . فاعرب عن أمله فى استرجاع الفتى الذى فقد أمه ، وعزز هذا الامل تصريح من ناظر **مدرسة الاحد** ، وقد ترددت اشاعة فحواها أن الفتى شوهد فى أحد الفنادق بمدينة **نيويورك** ، فسافر أبوه شرقا ليبحث عنه ويعيده الى داره ....

وكان **پول** على أهبة اللبس للعشاء ، فجلس على كرسى يعييه الوهن فى ركبتيه ، ويسند رأسه الى يديه ، وخطر له أنه لشر من السجن أن يعود الى شارع **كورديليا** ، وتوصد عليه تلك البيئة أبدا بغير أمل فى مفارقتها . وتمثلت له المعيشة الرتيبة سنوات متتابعات ، لا تتخللها سلوة ولا نجاة ، وتمثلت له **مدرسة الاحد** ، واجتماعات الشبيبة ، والورق الاصفر على الجدران ، وفوط الغسيل المبللة بعد مسح الاطباق ، فهجمت كلها على مخيلته واضحة حيث تسقم وتقزز بفرط وضوحها وحياتها ، وعاوده الشعور القديم بسكوت الموسيقى والهبوط النفسانى الذى يستولى عليه كلما اقتربت نهاية التمثيل ، فتفصد جبينه عرقا ووثب واقفا ، والتفت الى المرآة . ثم ركن الى تلك العقيدة الصبيانية فى المعجزات التى كان

يركن اليها كلما قصد الى المدرسة خاوى الذهن من دروسه ، فارتدى ملابسه ، واندفع يصفر الى الرواق متجها الى المصعد ، ولم يكد يدخل حجرة العشاء ويندمج فى نغمات الموسيقى حتى انتعشت ذاكرته بتلك القدرة المرنة فيه على التفرغ للحظة الحاضرة ، والصعود معها الى حيث تصعد ، والعكوف عليها دون ماعداها .. واستعادت تلك الاضواء ، وذلك اللألاء والبريق ، وتلك المناظر والحواشى التى الى جانبها ، كل سلطانها الاول ، وتخيل فى نفسه انه صيد طريد ، وانه سيختم كل شىء أوفق ختام ، وشك أكثر من ذى قبل فى وجود شارع **كورديليا** ، فأسرف للمرة الاولى فى معاقرة خمرته ، ... أليس هو واحدا من هؤلاء القوم ؟ .. وجعل يرافق الموسيقى بنقرات عصبية ، ويقول لنفسه مرة بعد مرة ان الغنيمة تساوى ثمنها فلا أسف ولا ندامة !!

لقد سنحت له سانحة ، وهو كالنعسان من الخمار ، يستجيب لعزف القيثار ونشوة الشراب ، انها كان يمكن أن تدبر أحكم من هذا التدبير ، وانه كان أخلق به أن يركب احدى البواخر الى حيث ينجو من مخالبهم ، لولا انه لم يكد يسترسل مع هذه السانحة حتى تخيل العدوة الاخرى من الدنيا بعيدة بعيدة ليس لها قرار ، وعلم انه لم يكن مستطيعا أن يصبر حتى ينتقل اليها . فقد كانت لهفته سريعة عاجلة ، فلو انه اختار مرة أخرى ما يعمل لما اختار غير ما عمل ، وأجال عينيه فى حجرة المائدة اذ كان يغشاها تلك اللحظة دخان ذهبى رقيق ، فعاد يقول لنفسه : آه . ان الغنيمة قد استحقت ثمنها بغير كلام !

وأفاق صباح اليوم التالى على نبض اليم فى رأسه وقدمه ، اذ كان قد ألقى نفسه على الفراش بملابسه دون أن يخلع حذاءه ، فأحس ثقلا رصاصيا فى أوصاله وأعضائه ، ويبسا فى لسانه وحلقه ، وملكته نوبة من نوبات الصحو الذهنى من دأبها الانتنابه الا حين يعيى بجسده المتهالك وأعصابه المنحلة ، فاضطجع هناك وأغمض عينيه ، واستسلم لمد الحوادث يغمره ويحتويه ...

ان أباه فى **نيويورك** ...

لعله الآن يتنقل من هذا المنعطف الى ذلك المفترق ...

وتعاقبت أمامه ذكريات فصول الصيف المتوالية على المقاعد القائمة أمام الدور . فكأنما اغرقته هذه الذكريات فاثقلته بطوفان من المياه السود ، ولم يبق معه من المال مائة دولار ، بعد أن عرف الآن ـ فوق معرفته بذلك في كل زمان ـ أن المال هو كل شيء ، وانه السور الفاصل بين كل مايشتهي وكل مايكره ، ودارت البكرة الى نهايتها ، وكان قد فكر في ذلك منذ ليلته الاولى الفاخرة **بنيويورك** ودبر بعض التدبير لاطالة الخيط ماوسعه أن يطول ...

وهاهي تلك البقية ملقاة على المنضدة أخرجها بالامس بعد أن صعد على غير هدى من حجرة المائدة ، فكان مرأى المعدن اللامع يؤذي عينيه ، وينأى ببصره عنه ويخشى أن يلتفت اليه ... !

ونهض يتمشى بجهد أليم ، ينتابه من لحظة الى أخرى غثيان بغيض . انه الوجوم الآن مضاعفا يتزايد ويتجدد ، وكأنما الدنيا كلها قد أصبحت شارع **كورديليا** . الا أنه على نحو ما لم يكن متخوفا من أمر معلوم ، وكان على طمأنينة لانه على مايظهر قد نظر الى الركن المظلم أخيرا وعرف ..

لقد كان فيما رآه الكفاية من السوء ، ولكنه ليس من السوء بحيث كان يتوقع في مخاوفه الكثيرة . لقد وضح أمامه الساعة كل أمر ، وملأه الشعور بأنه قد استخرج منها أحسن مايمكنه ، وعاش تلك العيشة التي تمناها ، وقضى نصف ساعة يفتح حماليقه على **المسدس** أمامه ، ويثوب الى نفسه فيقول : كلا . ليس هذا هو الوسيلة ، ثم نزل واستقل مركبة الى العدوة ، ـ فانتقل الى الجانب الآخر الذي يلي السكة الحديد ...

واستقل مركبة أخرى وأمر الحوذي أن يساير خط **بنسلفانيا** الى ظاهر المدينة ، حيث تراكمت الثلوج على السكة الحديد وأطبقت على الحقول في الخلاء ، ولم تكن الحشائش الميتة والاعشاب الجافة تطلع من تحتها الا على بقعة هنا أو بقعة هناك ، وقد اشتد سوادها بازاء ذلك البياض ... .

فلما افضى الى الخلاء صرف الحوذي ومشى يتعثر على مدارج الطريق ، مشتت الذهن بين أمور مبعثرة لا ارتباط

لبعضها ببعض ، وخيل اليه انه يحتفظ فى دماغه بصورة واقعية لكل ما وقعت عليه عيناه منذ الصباح : فتذكر كل لمحة من ملامح **الحوذيين** ، وتذكر **العجوز** الهتماء التى اشترى منها الزهر الاحمر المعلق فى عروته ، وتذكر **العامل** الذى أخذ منه التذكرة ، وجميع زملائه فى معبر العدوة . . . وكلت قواه الذهنية عن مواجهة الواقع المشهود امام عينيه ، فاشتغلت بمتابعة هذه الذكريات القريبة وترتيبها وتصنيفها ، وكأنما اختلطت جزءا من اجزاء الدمامة والقبح فى تركيبة هذه الدنيا بكل ما رحبت ، مزيدا عليها صداع راسه ومرارة لسانه والتهابه ! وانحنى فتناول قبضة من الثلج ووضعها فى فمه ، ولكنه خيل اليه انه ملتهب كلسانه .

وبلغ الى هضبة تسير السكة تحتها بنحو عشرين قدما ، فتوقف وقعد ..

وكانت القرنفلة فى عروته تذبلت فمالت من البرد ، ولاحظ هذا كما لاحظ انطفاء لونها ونصول صبغتها ، وقام بخاطره ان الازاهير التى عاينها جميعا فى الليلة الاولى قد اصابها ما اصاب هذه القرنفلة منذ حين ، فما حياتها جميعا غير نفس واحد على الرغم من جراتها بالسخرية والتحدى على الشتاء وراء الزجاج ، وانها لفى النهاية لعبة خاسرة تنتهى اليها هذه الثورة على العرف المتواتر الذى يطرد عليه مسير هذه الدنيا ، ومد يده الى **زهرة** من تلك الازهار بعناية ورفق ، وحفر فى الثلج حفرة صغيرة ودفنها فيها . ثم استرسل يتامل هنيهة فى تلك الحالة الهزيلة غير شاعر ببرد الهواء ..

ثم ايقظه من ذهوله صوت **قطار** يقترب ، فوثب قائما على قدميه لايذكر شيئا غير ماانعقدت عزيمته عليه ، يخشى ان يفوت الوقت فلا ينجزه فى اوانه . ووقف يرقب القطار المقترب ، وقد اصطكت اسنانه وانفرجت شفتاه عن ابتسامة رهيبة ، والتفت مرة او مرتين الى جانبيه كانه يوجس هنالك من رقيب . فلما

حانت اللحظة المحتومة **قفز** . . . فلما سقط ومض فى ذهنه حماقة العجلة التى أقدم عليها بوضوح لا يرحم ، وانبسطت امامه مساحة ما تركه وما فاته ان يتمه فسيحة رحيبة .. ولمعت بين ثنايا راسه اوضح من كل وضوح زرقة البحر الابيض وصفرة رمال الجزائر على شاطئه !

أحس شيئا يصدم **صدره** .. احس بدنه مقذوفا فى الهواء يعلو ويعلو ، وتتراخى فى الوقت نفسه اوصاله وجوارحه . وتحطمت الآلة التى تصنع لذهنه الصور ! فارتجعت الصور المضطربة الى سواد .. وآب **بولل** مع الظلام الى قرار كل شىء!

ادنا فيربر

Edna Ferber

- ١٨٨٧

قصصية مسرحية، ولدت فى **مشيجان**، والفت روايتها الاولى وهى فى نحو الثالثة والعشرين ،ثم عـــدلت الى كتـابة القصص الصغيرة ، فاتخذت لها **بطلتها** من شخصية المرأة « **ربة الاعمـال** » باسم **أما مكسنى** Mcchesney

والفت قصصـــا أخرى جمعتهـا بعنوان « **الام أدرى** » ، وأصدرت خلال ذلك روايات مطولة أدارت أكثر موضوعاتهـا وموضـوعات قصصها الصـــغيرة على الفوارق الخلقية والاجتماعية بين الاجيـال المتعاقبة من النســاء عامة ، ومن الرجال فى بعض الاحـوال ..! وربما ألفت الرواية لبيـان هذه الفوارق فى أربعة أجيال متعاقبة! وقصتها التاليـة تلمس موضوع الاجيال من بعض نواحيـه ، وقد حولتها بمعاونة **جورج كوفمـان** Kaufman الى مسرحيـة ملحنه (سنة ١٩٢٤) .. وكان كتابها الذى ترجمت فيـه حياتها بعنـوان « ذخـــيرة خاصـة » ،وأصدرته بعدان جاوزت الخمسين، تطبيقا لدراسة الاجيال على نفسها من بعض الوجوه .

الشيخ مينيك

لادنا فيربر

Old Man Minick

By Edna Ferber

كانت زوجته تبالغ فى تدليله ، وتفرط فى مبالغتها . كذلك كانت ولا نكران !! اليك مثلا مسالة الوسائد : لقد كان مينيك الشيخ ينام وراسه مرتفع ، او هكذا كان يخال . كان يحب ان يرى الوسادتين الى جانبه على فراشه الكبير العتيق المصنوع من خشب الكريز .. ثم يغوص فيهما ويغط غطيطه بين الزفير والشهيق ، مسترخى الاسارير مستريح الجوارح للرقاد . . فاذا ما جاء الصباح كانت احدى الوسادتين ترى دائما على الارض ، اذ كان يلقيها هنالك . فلا تفتأ صباح كل يوم راقدة على الارض ، وقد صعرت وجنتيها البارزتين كانها تؤنبه الى جانب الفراش .

وكانت مدام مينيك تعرف ذلك ـ بطبيعة الحال ـ بعد ان رافقت سرير الكريز زهاء اربعين سنة ، ولكنها لم تنفس عليه قط هذه الوسادة ، بل كانت تلتقطها كل صباح وهى فى طريقها الى النافذة تغلقها ، وتعيدترتيب الفراش بالوسادتين كما فعلت بالامس ..

ويأتى دور النافذة ، فان مدام**مينيك** تحب ان تكون مفتوحة على مصاريعها . ولكن مينيك **الشيخ** على ادعائه انه رجل عصرى ، وانه من رجال الساعة على حد تعبيره ، كان يخشى هواء الليل ، ويتوجس منه ، ويقول ان هذا الهواء يخفى فى

طياته ادواء لا يتقى خطرها : من البرد ، والرطوبة ، والعفونة ، والحمى ، وسائر هـذه الامراض . .

ولـكن **مدام مينيك** كانت تراجعـه ، مؤكدة له أن هواء الليل كغيره من الاهوية ، ولم تكن **مدام مينيـك** امرأة جيزبونا لاتفقـه الامور ، فهى عصرية من قبيـل زوجها . فاذا ذهبـا الى الفراش كانت النافذة مفتوحة ،وما يزالان يتبادلان أطراف الحديث فى شتى الامور بهـدوء ودعـة ، كما هومالوف بين زوجـين عاشا معا فى سلام نيفا وأربعين عاما لاتشوبهاشائبة ، الا مايأتى من حين لآخر من شـجار يسـير كأنه توابل الطعام !

ـ لاتنسى أن تذكرينى أن أدعو **جيرسون** غدا ليصـلح القفل الذى فى الدور الاول . ان الصحف مستفيضة بأخبـار اللصوص . .

فتجيبه : سأفعـل اذا تذكرت ذلك .

وهى لاتنسى أبدا !

ـ **جورج دنتى** لم يحضر الينا منذ أسبوع . .

ـ آه يالهؤلاء الشباب . . هل ذهبت **الى كورتز** ودفعت اليـه خمسين سنتا لكى يدلك ؟

أو ! يالله . . لقد نسيت مرة ثانيـة . . وسـيكون أول ما أنا صانع صباح الغد . .

ويشمان رائحـة فيقولان : تلك رائحة منبعثـة من الافنية ، انها لشيكاجو . .

ـ لابد أن الرياح تهب غربا .

ثم يدنو الرقاد وئيد الخطى ،ولـكنهما يصابرانه شيئا فشيئا حتى يلقى أكنافه عليهما ، فيناما غير مستغرقين . .

وكثيرا مايستيقظ **مينيك** ويقوم من تحت أغطيته الى النافذة المفتوحة يغلقها ، فلايبقى منها مفتوحا غير قيراطين . وكانت مـدام **مينيك** تسمعه أحيانا ، الا أنهـا كانت عجوزا عاقلة تروض الامور بحكمة وروية . وكانت أعقل من أن تدع راحتها وسلامتها عرضة للكدر من جراء نافذة تغلق أو تفتح . ولطالما تبسمت فى شىء من الحرد تحت

أطباق الظلام ! ومامن علامة تدل على يقظتها اذ تفكر قائلة : ان النافذة المغلقة لن تقتلني على كل حال ...

وربما حدث من قبيل الجزاء ، ولكي تقنع نفسها انها ليست لعبة في يد أحد ، أن تتمهل حتى يغفو مرة ثانية وتنسل شيئا فشيئا نحو النافذة ترفعها قيراطا أو قيراطين .

يقول في الصباح وهو لا يحسن المداراة : كيف فتحت هذه النافذة؟

ـ النافذة ؟ انها كما هي منذ المساء، ثم تنحني فتلتقط الوسادة وتعيدها الى موضعها ..

وقلما كانا يطرقان حديث الموت ، فلا يسمع له ذكر بين هذا **الزوج** القرير العين ، الدائب على العمل ، الموفور العافية ، الذي يناهز السبعين، وبين تلك الزوجة الممتلئة التي ناهزت السادسة والستين ..

الا انه كان مفهوما كما هي العادة بين الزوج والزوجة ، ودون أن يصرحا به بينهما ، أن الشيخ **مينيك** هو السابق الاول ، لا لان أحدا منهما يريد أن يسبق أو يلحق ، بل يتفق أحيانا أن يهيئا العدة لقضاء الشتاء في **كليفورنيا** والبقاء هناك أبدا اذا راقهما المقام ، ولم يستشعرا الشوق الى **جورج دنتي** ، ودخان **شيكاجو** ، وضجة شيكاجو، وروائح شيكاجو ومافيها من زحام وأقذار . ولكن مقدار التأمين الذي يدفعه الشيخ **مينيك** كل عام ، يدل دلالة واضحة على انه يريد أن تعيش زوجته من بعده في أمن وراحة .. والدنيا مع ذلك ملأى بالنساء الارامل . وكل يرى ذلك . ولكن كم من الارامل الذكور ؟ انهم قليل عددهم . ان النساء الارامل تعد بالالوف ، يعيشن وحيدات أو يقمن في الفنادق ، أو عند بناتهن المتزوجات وأزواج بناتهن ، أو أبنائهن المتزوجين ، أو **أزواج** بناتهن . ولكن الحيرة كل الحيرة في حياة الرجال الارامل الذين في مثل حالتهن . أما السبب في ذلك فلا من يعرفه . ولم تتم رحلتهما الى **كليفورنيا** في عامهما ، . ثم جاء العام الذي تلاه غامضا محيرا **للشيخ** ، فاول مايذكر عنه أنه كان العام الذي هبط فيه سعر الاوراق المالية وقصم ظهور أصحابها . وقد ظهر أن **أسهم التأمين** لم تكن في واقع الامر الا زيفا لاقيمة له . لقد انصرف **مينيك الشيخ**

وانقطع عن أعمال الحياة المجهدة قبل ذلك بعام واحد ، ليعيش عيشة هادئة مطمئنة من ثمـــارعمله فى الحياة العامة نصف قرن كامل . وهاهو الامر يتكشف فاذا هـــذه الثمار قد اعتراها لعطب ، وتبين له انها لم تكن تحمل فى كيانها مايضمن لهـــا لبقاء . !!

وذهبت **مدام** مينيك ذات يوم نحو المدينة لتقابل الطبيب **مائيو** وتعرض عليه ماحل بها من الالم المبرح . وعادت الى المنزل وقد بدا على وجهها التغضن وأخذت تهذى وترتعد وتتجنب نظرات الشيخ **مينيك** .

وحلت الشهور التالية تحمـل معها مجموعة من الآلام : أشعة اكس، أمل، يأس ، مخدر، مسكن ، ثم موت ...

فلما انقضى كل شىء وقف **مينيك** الشيخ فى ذهول يقول :

ـ ولكننى كنت أحسب انى سأبقها !!

بيع المنزل الذى كان يقيم به فى شارع **اليس** قريبا من الحى التاسع والثلاثين بماقدر له من ثمن . فقد كان **جورج** يقول وهو يعرف مالا يعرفه غيره عن حقيقة أثمان العقار فى شيكاجو : يجب أن تقبلوا أى ثمن يدفع لـكم . فان الاثمان آخذة فى الهبوط ، وسترون صدق ماأقول . سوف لايحصل أحد على المال عدة سنين، وان شئتم فانظروا أثمان البيوت التى تليـكم ..

وكان **الشيخ مينيك** يقول ان **جـورج** على حق . كان يقول ان الناس عـــلى حق . ولم يكن من السهل ان تتبين فيه وفى وجهـه المتغضن ذلك الشيخ الكيس الذى كانت تدلله مدام **مينيك** وتدخل على قلبه السرور والابتهاج . كان يقول : أنت تعـــرف مالايعرفه غيرك **ياجورج**، أنت أدرى **ياجورج** . ولطالما كان يقف فى وجهه قبـل موت مدام **مينيك** ويقول له :اسمع يا بنى أنت لا تعرف كل شىء .

ولقد كان كل مابقى من المال لدى **الشيخ** بعد مادفع من أجر **للطبيب** وللمستشفى والممرضات والدواء ، وماهنالك من التكاليف التى لاتحصى ، مقدار خمسمائة ريال فى العام ...

قال **جورج ونتى** : سوف تقيم معنا يا أبتاه .

وقالت الما بنته المتزوجة :هذا خير ماتصنع ، وان كنت تعلم انني وفــريد يسرنا كثيرا أن تقيــم لدينا ٠٠٠٠

ـ ستيل ٠ آخر الدنيا ! ٠ كلا كلا !!

قال ذلك محتجا وقد علقــت كل وشيجة في جسمه بما الف من مقام ، ثم عاد يقول : ؟

ـ ستيل ؟ ٠٠٠ وفي السبعين ؟

ثم دار بعينين بائستين نحــو جورج وزوجتـــه نتي فقالا له مؤكدين : ستكون معنا ياأبتاه ٠

وانثنى يشكرهما ، واســتقر الامر على ذلك ، فعادت الما الى منزلها بين زوجها واطفالها ٠

وهــكذا اقام مع جورج ونتي في مسكنهما ذى الحجرات الخمس في شارع « ساوث بارك » الذي يمتد من وشــنجتون بارك حيث لاتوجد وسادة يلقيها على الارض ٠

لم ترفض نتي أن تعطيه الوسادة الزائدة ، فقد أخبرها انه يضع تحت رأسه وسادتين ،وقد أعطته وسادتين في الاسبوع الاول ، ولكنها كانت تجد احداهما تحت السرير ٠

قالت : كنت أظنك تنام عــلى الوسادتين ياأبتى ؟

ـ نعم هو ذاك ٠٠

ـ ولكنى أجد وسادة على الارض كل صباح ٠ أنت تلقى واحدة على الارض دائما ٠ الحقيقة انك تنام على وسادة واحدة !

ـ كلا ٠ بل وسادتين !

فلما جاء الاسبوع التالى لم يكن لديه غير وسادة واحــدة ٠ تبرم بالامر ، وراح يتقلب على فراشه القريب من المطبخ ٠ الا أنه تعود ذلك على مر الزمن ٠ تعود ذلك وان لم يسترح اليه كل الراحة ٠ ٠ ولكن ما الجدوى ؟

لم يكن فراشه بجوار المطبخ حقيرا كما تتوهم ٠ لقد كان في الحقيقة فراشا مكنونا أنيقا ٠ وكان في المسكن حجرة للجلوس ،وحجرة للنوم ، وأخرى للطعام ، ومطبخ ، وحجرة للخدم ٠٠٠

أما الحجرة المجاورة للمطبخ فهى المعدة للخدم ، ولاخدم عند نتى وجورج ، اذ كانت أعمال جورج قد أصيبت بالخسائر التى أصابت غيره ، وربما قالا له حينا بعد حين : وددنا لو كانت لنا حجرة أمامية لك يا أبتاه !! ولو أننا تحولنا الى حجرتك ، غير انها لاتتسع لاثنين ... كانا يقولان ذلك ويعنيانه ، أو يظنان أنهما يعنيانه . ويقول **مينيك** الشيخ : وأى عيب فى هذه الحجرة ؟ انها حسنة . انها ملائمة لاى ساكن . وكان فى هذه الحجرة سرير ضيق، أبيض الطلاء ، ومزينة ومنضدة . ولكن **نتى** وضعت لها الاغطية والستائر من الكريتون، ووضعت مصباحا صغيرا للقراءة على المنضدة ، ورتبت أدواته عليها ، وجعلت صورة **مدام مينيك** على المزينة . وقد بدت بفمها المطبق أصغر من سنها ، أو لم تكن هى صورتها الاخيرة ، فزينها **جورج** ونتى بأطار ، وجعلاها هدية المفاجأة **للشيخ** ، وطالما كانا يلحان على **السيدة** أن تتخذلها صورة شمسية ..

لم يهتم الشيخ **مينيك** كثيرا بهذه الصورة ، وان لم يصرح لهما بقلة اهتمامه . وما كانت به من حاجة الى صورة لقرينته . فلديه عشرات من الصور .. بل متحف كامل فيه الوف والوف يستعرضها وهو على وسادته الواحدة، ويستعرضها فى الظلام: باسمة ، عابسة ، غاضبة راضية، فهو فى غير حاجة الى صورة توضع فى اطار ...

لقد كانت **نتى** فتاة جميلة طيبة . وكان ينظر اليها كأنها بنت ناشئة وان كانت قد جاوزت الثلاثين . وقد تزوج **جورج ونتى** متأخرين ، وكان هذا هو العام الثالث لزوجهما . أما ابنته **الما** فقد تزوجت صغيرة . وظل جورج أعزب فى المنزل القديم بشارع **اليس** ، حتى بلغ السادسة والثلاثين . وكانت كل بنات صديقات أمه يحاولن أن يتصلن به ولكن على غير جدوى ..

وكان كبار السن ينصحونه بالزواج ، ولايزالون يحسون به منفردا فى هذا البيت الواسع ، لانه كان يصفر وهو يلبس ، ويغنى وهو فى الحمام ، ويرفع عقيرته بالغناء وهو هابط على السلم ، وينادى **أمه** سائلا : أين القمصان المغسولة ؟ وكان جرس

التليفون يستدعيه **وأمه** تهيىء له صحافا من الطعام المختار ، وربما قالت له الخادم : ماذا صنعت ياجورج ؟ لقد ملأت بالوضر بلاط مطبخي النظيف ... ثم تمسحه مفتونة بالنظر اليه ، بينما هو يقهقه ويزدرد الطعام من قدر أوحلة طبيخ !

أما **نتي** فكان في أمرها بعض الغرابة . كان **جورج** يشتغل بأعمال الاوراق المالية ، وهي تعمل معه في مكتب واحد . وانها الفتاة بضة غضة ، ساجية العينين ، تفتح الشهية كما كان الشيخ **مينيك** يقول ، ولها خلف رأسها ضفيرة معقوصة من الشعر الفاحم الجثل ، كساؤها ملبس مجهز بسيط ، وفهمها للاوراق المالية فهم رجال أعمال ، وان كانت غلبت عليها الانوثة في سائر أحوالها ، وقد حظيت عند الشيخ **مينيك** ، على خلاف امراته فانها لم تكن تحبها كحبه اياها ..

وتعودت **نتي** أن تدعوه **بوب**، وتغازله عابثة كمغازلة البنات للآباء . وربما طاب له أن يقرص ذراعها البضة ويجمش خدها الناعم ، فتضحك منه ، وتربت على كتفه ، وتنبسط تلك الكتف وتتحرك رأسه حركة فيها محاكاة للكلاب .. !

ويصيح الجالسون في الحجرة : أنظر **ياجورج** ان أباك سيغلبك على فتاتك حذار انك ستفقدها ! !

وتبسم **نتي** عن ثناياها ، ويضحك **الشيخ** مينيك ، ويغمز بعينيه مستريحا راضيا عن نفسه، وتقول **نتي** : انتما متفاهمون **يابوب** أليس كذلك ؟

كانت **نتي** في السنين الاولى من زواجهما تمكث في المنزل مبتهجة بمسكنها الصغير ، تتبادل مع العائلات الزيارة ، وتلعب البريدج ، ويبدو عليها حب الراحة والاستجمام ، والولع بصغائر الترف ، ...

وكانت هي وجورج متحابين متآلفين . أما قبل زواجها فقد كانت تسكن في بيت مستأجر في شارع ميشجان ، وهي الآن تقطب عند ذكره . ولم تحاول مرة ان تخفي حبها لحجراتها الخمس التي تجملها النظافة والسكون والاناقة : كانت حجرة الجلوس

مفروشة بالمخمل ، مظللة المصابيح بالحرير ، موزعة فيها هنا وهناك مناضد عليها الكتب والمجلات وعلب السجاير والحلوى : طراز حديث ، ومائدة حديثة فى حجرة الطعام ، وحجرة نوم من خشب الجوز الاحمر القاتم الناعم الملمس . وكانت تحبها . وانها لامرأة منظمة تضع كل شىء فى مكانه . وماتكاد تدنو الساعة الحادية عشرة حتى يكون هذا المسكن الصغير يلتمع نظافة وبهاء ، فلا بقعة ولا لوثة . وقد نضدت الوسائد ومسحت كسر الخبز ، ووضعت الخضروات فى الماء البارد ...

وينادى صوت من جانب التليفون : هالو .. هللو .. بيس .. أومنذ نضع ساعات . . لاشىء على الاطلاق ... اذا أراد **جورج** .. سأناديه وأسأله فى ذلك .. اننا لم نر أى فلم من الافلام منذ أسابيع ... سأطلبك بعد نصف ساعة .... كلا أنا لم أعزم على شىء ... نعم نتناول الطعام فى المدينة ... نتقابل الساعة السابعة !

وهكذا قضى على هذا **الشيخ** الحائر أن يندمج فى تلك الحياة الرتيبة المنظمة . فلم تعد **نتى** تناديه بوب . ولم يعد يحلم قط بأن يقرص ذراعها الغض أو يجمش وجناتها . فقد بدأت تدعوه **الاب** . وأحيانا بأبى **جورج** ، ويسمعها تقول فى التليفون : أنا لا أستطيع ، أنت تعلم ان **والد جورج** يعيش معنا ....

كانت **نتى وجورج** يتلطفان فى معاملته غاية التلطف ، وكانا يستبقيانه للجلوس معهما : لاتبرح مكانك معنا ! لماذا تعجل بالذهاب الى حجرتك ؟

ولقد تذكر أن **نتى** فى العام الماضى كانت تقول شيئا عن عودتها الى العمل ، فانها لم تجد ماتشغل به نفسها فى المنزل . ولقد ضاقت بالاجتماعات بعد الظهر واضاعة الوقت فى الخياطة والاكل ، ولاشىء سوى ذلك .. والقيل والقال ولعب البريدج . وانظر بجانب ذلك الى ماتستفيده من الاجر .. الا أن العودة الى الاعمال كانت فكرة نابية لاتطاق ، يستنكرها **الشيخان** الكبيران ، وجورج أشدهما استنكارا لها ، كأنها من العار ! وربما قال

الشيخان : يالشباب هذه الايام. فيم يفكرون !! أو يقول الشيخ : لقد كان لك فى مثل سنها أطفال!

لم **يرزق جورج** ونتى أطفالا. وكانت **نتى** فى أول الامر تقول :

اننى جد سعيدة . . أريد فرصة للراحة والاستجمام . لقد ظللت أعمل منذ كنت فى السابعة عشرة من عمرى، وأريد أن أستريح أولا ...

ثم مضت سنة وثانية وثالثة... ثم جاء الاب **مينيك** . .

كان لدى **مدام** مينيك فى بيتهما القديم بشارع **اليس** مخازن ملأى بالاطعمة والمآكل . وان كانت غير مسعثرة ، فانها كثيرة يشبعان منها شأن المسنين . وكان **مينيك** الشيخ على الاخص يحب أن يمضغ شيئا ، فياخذ من على الرف حفنة من الزبيب ومن الاناء حفنة من البندق ، ويلوك فى فمه قطعة من الحلوى . وقد يلتهم اناء من الحساء الساخن ! وقد يكون ذلك فى نهاية الطعام أو عند الظهر ، ويملأ جوفه من هنا ومن هناك . وتقول له مدام **مينيك** . . ماهذا ياجو ؟ انك لاتاكل ! ولقد يكون متخم الجوف وهى تقول له ذلك ، لانها كانت تحب أن تراه يأكل أكلا لما . . وانها لعلى خطأ بطبيعة الحال .

أما الامر عند **نتى** فجد مختلف. فالطعام عندها كاف ، ولكن بمقدار ، وعندها ان كثيرا من الاطعمة تعدل فى غذائها المقادير الكبيرة من شرائح اللحم . . كانت تعرف كثيرا من « أسعار » الحرارة ، والفيتامينات ، والمسائل الغامضة التى من هذا القبيل ، وتتحدث عنها فتقول ان هذا الطعام فيه كثير من سعر الحرارة ، وفى هذا الطعام كثير من الفيتامين . ولكن الشيخ **مينيك** لم يكن يقتنع بهذه الاغذية التى يقال انها تكمن فى طعامه ، فقد كان يفكر فى السبانخ كسبانخ ، والشرائح كشرائح ، وكان **الاثنان** يتناولان الطعام معا. لان **جورج** فى المدينة بطبيعة الحال ، وكان طعام نتى طعام أنثى : قليل من شراب التفاح ... فنجان من الشاى . قطعة من الخبز المقدد المتبقى من طعام الافطار . هذا طعامها فى غالب الاحيان ، بينما يلعق الشيخ **مينيك** قدحا مملوءا بالحساء الساخن، أو بيضة مشوية. وكثيرا ما كانت تغلظ عليه أن يتناول قطعة من اللحم البارد المتبقى من

الليلة الماضية ، أو بقايا الخضراو المكرونة . ويرى حول انائه الكبير أسطول من الآنية الصغيرة، المتجمد من المرق والتوابل ، يغوص بها وينقض في غير راحة وان كان يستلذ طعمها ! وقد ينظر اليها بشيء من الغيظ حين ينتهي من تناول طعامه ...

ـ ماذا تريد **يا أبي** . هل أستطيع ان أقدم اليك مزيدا من الطعام ؟

ـ كلا .. **يانتي** كلا .. انني مستريح .

وتنتهي من تناول طعامها وتجلس في انتظاره ...

كانت هذه العيشة المنظمة « العلمية » لا تضايقه ، فلما اقبل الشتاء بدا عليه كأنه قد استرد قوته ونشاطه .. فتى شيخ انيق محمر الوجه كالتفاحة النضيرة . . فيها بعض الغضون نعم .. ولكنها ما زالت مترعة بعصارة الحياة .

ويجدر بالذكر انه كانت في خده نونة تبرق على غير انتظار حينما يبتسم ، فتكسو ملامحه بشيء من الشيطنة الصبيانية تجتذب الناظر اليه ، ولا سيما النساء . ولقد كان اكثر ما يناله من تدليل السيدة **مينيك** شغفا منها بتلك اللمحة الصبيانية !

كان الربيع عنده ينبوع ثروة حية . ولكن هذه الشهور الستة التي قضاها مع **جورج ونتي** قد اشتد وقعها عليه . فلا تدليل ولا من يجعله شغله الشاغل . كان يجد اللطف والمودة ، ولكنه كان يشتاق العاطفة والحب . ثم لاتنس انه هرم ثرثارة لا يكف عن الكلام ..

ولقد كانت في منزله القديم بشارع **اليس** زيارات متبادلة بين الرجال والنساء ممن هم في سنه وسن السيدة **مينيك** ، وكانت له في هذه الاجتماعات خطب ومساجلات يسمعونها ، من موافقين ومخالفين ، لكنهم يلقونها باحترام على الدوام . سواء أكان يتكلم عن قيمة العقار الحقيقية ، أم عن الفساد الاجتماعي، أم عن تحريم الخمور ، أم عن شئون المصارف وتسعير العملة الاوروبية . وكثيرا ما يرفع عقيرته قائلا :

ـ اقول لكم انه لا بد من شيء يعمل قبل ان تثوب هذه البلاد

الى قرار يطمأن عليه فى شئونها المالية . كيف لا . . ؟ هاكم روسيا مثلا . .

أو يرفع عقيرته قائلا :

ـ يا لشباب هذه الايام . . ! انهم لايفهمون ما هو الاحترام. أقول لكم لابد من تغيير ، وسيكون هذا التغيير . . وانما يأتى به الجيل القديم ! ماذا يعرف هؤلاء الشباب عن مصاعب الحياة . . ؟ ماذا يعرفون عن العمل . . ؟ العمل الصحيح ! ! أكثرهم لم يستوف عمل يوم قط ، وكل مايفكرون فيه رقص وعدو ، وجولان ومعاقرة . . انظر الى زيهم . . انظر الى . . .

ويؤمنون على كلامه قائلين :

ـ هذا هو الواقع . . لقد كنت أقول ذلك امس .

ثم لقد كان له مشاركة فى الاعمال المالية منذ سنة أوسنتين، ولم يعتزل العمل الا استجابة لرجاء السيدة **مينيك** والاولاد حينما اقنعوه بالكف عن الجهد والتماس أسباب الراحة والتسلية . . والآن وقد استعاد صحته واسترد نشاطه شيئا فشيئا ، بدا يخرج فى نزهات صباحية . ومن ثم أخذ يعنى بملبسه وحسن هندامه . . وقد اعتاد ان يحلق لحيته بنفسه ، وظل مثابرا على هذه العادة . وكان يحتل حجرة الاستحمام بكل ما فيها ساعات طويلة من النهار ، مما كان يثير ثائرة **نتى** ، فتكاد تجن ، وان كانت لا تقول شيئا . . كان ينغمس فى الماء ويريقه، وينفخ ويتلبط ، ولا يزال له ضجيج مسموع ، ويتناثر منه رشاش المياه هنا وهناك ، ويبلل السقف والجدران ، فتناديه **نتى** من وراء الباب المغلق :

ـ أانت متعب يا ابتاه . . ؟

ويجيبها والمياه تتساقط من حوله : كلا يا بنية . .

ـ لم اكن اعرف . . ! لقد لبثت كثيرا . . !

انه لشيخ نظيف ، وان كان صداره أو سترته أو رباط عنقه لا يسلم من بقعة هنا ، ولوثة هناك . وكانت مدام **مينيك** تزيلها وهو يرتدى ملابسه أو يخلعها ، وتمسحها متذمرة

متبرمة لاهماله العناية بملبسه ، وانه لراض عن تبكيتها الخفى ، مستريح الى مافيه من امارات الاهتمام والعناية .

اما نتى فلم تكن لتزيل تلك البقع بنفسها على الاطلاق، وان كانت تقول له فى بعض الاحيان : اترك هذه البدلة يا ابى اذا سمحت لارسلها مع جورج الى « التنظيف » ... وسيحضر الرجل غدا .. فينظر الى ملابسه عاجلا ويزيل باظافره بقعة هنا وبقعة هناك ..

فاذا انتهى من ملبسه وهندامه ، انصرف الى الشارع الحادى والخمسين . فاذا جلس فى القطار اتخذ فى مجلسه هيئة الجد والانتظار ، كانه يسعى لمصلحة هامة ، فيطل من النافذة آنة بعد اخرى ، وينظر الى ساعته حينا بعد حين ، فيخيل اليك وانت تنظر اليه ان هذا الرجل الوسيم الذى تلوح عليه دلائل العناية بشأنه رجل من رجال الاعمال فى طريقه الى عمله بالمدينة .

اقام فى شيكاغو خمسين سنة ، فهو يذكر شارع الدواوين منذ كان حيا تعمره الاكواخ وتظلله الادواح . كذلك كان من مألوفاته كل ما يحيط به من زحام وضوضاء . اما الآن فربما بدا له ان طريق المدينة شاق خطر بين زئير القطارات المتتالية واصداء الابواق العالية ، وفرقعة المركبات .. مارستان يزعجه ويخيفه من امر شيكاغو تلك ! !

ويقفز الى الشارع كالارنب المذعور ، ناسيا حركة السيارات، غير آبه بما ينصب عليه من سباب ركابها: « ويلك.. ! فتح.. ! حاسب يا ... » ، ويأتى الشرطى اليه احيانا يعرض معونته ، فيرفض باباء ، ويخاطب ذلك الشرطى - وانه لرجل طوال جاد براء من صخب الشرطة على الجملة فيقول :

- اننى كنت اعبر هذه الطريق قبل ان تولد يا صاح .. ! فدعنى من مساعدتك ..! اننى لست هنا بالقدم المقبل من الريف ..

وانه ليزور دار العملة فيغتم ويحزن ، لان الاسهم لم تزل فى هبوط بعد هبوط ..

ان خمسمائته السنوية لمصونة، ولكن البقية ضائعة ابدا فيما يحسب . ويتجه نحو مكتب **جورج** وفيه نخبة انيقة من الشباب ، بين فتيان وفتيات ، فى تلك الحجرة الواسعة التى تفيض عليها الاضواء . وقد علقت على جانب من كل مكتب لوحة معدنية عليها اسم صاحبه : مستر **ادين** . مستر **سترلى** . مستر **جيمس** . مس **روش** . مستر **مينيك** ... »

ويبتدره **جورج** : «هلم يابنى . ما الذى اتى بك الى هنا ؟ »

ـ لا شىء .. لا شىء . كانت لدى بعض الاعمال الخاصة بالاوراق المالية ، فخطر لى ان امر بكم .. كيف تسير الاعمال؟

ـ سيئة .. !

ويقول الشيخ **مينيك** موافقا : اظنها كذلك . اظنها كذلك .

ولقد ود **جورج** لو انه لم يحضر اليه ، فلا قبل له بهذه الزيارات ، ولا سيما حين يدلف الشيخ **مينيك** الى المكتب الذى نقش عليه اسم **سترلى** او **اوين** او **جيمس**، فيومىء اليه اولئك الشباب بنظراتهم ، ثم يكبون على اوراقهم وملفاتهم . ويقف **مينيك** الشيخ ويزن قامته من فرعه الى قدمه، وينفث نفثة فى الهواء ، ويبدو ممتقع اللون قليلا ، متضائل الجسم تحت الاشعة المسلطة على الزجاج . ولعل منظره هذا من وحى المناقضة بينه وبين ذلك الشباب الوضىء ...

وتراه ينظر الى احدهم ويقول :

ـ هانت هنا اليوم يامستر **سترلى** .. كيف حالك .. ؟

وينصرف عنه مستر **سترلى** ، ولاينظر اليه وهو يقول :

ـ اننى على مايرام .. ليس عندى ما اشكوه ...

ـ حسن .. حسن .. !

ـ هل من شىء استطيع ان اؤديه لك .. !

ـ كلا . لا شىء على الاطلاق . انا حضرت لارى ابنى لحظة.

ويتمالك الفتى لهجته قليلا و**مينيك الشيخ** يترنح الى جواره ثم يلقى عليه نظرة عابسة قائلا :

ـ اجل أن ابنك مكتبه هنالك .. اظن هذا ...

وكان **لجورج ونتى** مناجاة ليلية حول هذه الزيارات، وتقول **نتى** فى لطف : ان زيارة الاصدقاء والاقارب ممنوعة فى المصرف، فهى على خلاف اصولهم وانظمتهم ، ولقد كانت كذلك حين كنت اعمل بها . ولم ازرجورج غير مرة واحدة منذ زواجنا .

ـ اجل .. اجل .. انه نظام الشغل منذ كان .. زحام وانهماك ولا متسع فى الوقت لغير ذاك ..

واشتد الشتاء هذا العام واربى على كل شتاء مضى بثلجه وقارس برده ، فاعتكف بين جدران المنزل بضعة ايام ... أن امراة فى مثل سنه كان فى وسعها ان تشغل نفسها بعمل نافع من الاعمال البيتية، وهى سعيدة راضية : ستارة تخيطها وتنسجها، اوحجرة تنظفها ، اوطعام تطهوه وتقوم بتحضيره اوفستان قديم تحيله جديدا ، او تستطيع ان تشغل نفسها فى استقبال اترابها .. ولكن شيخا مثل **هينك** لا يجد فى المنزل اعمالا تشغله ليحتمل البقاء فيه . انه لايقدر على اى عمل من هذه الاعمال الصغيرة .. دق مسمار فى الحائط مثلا ، او رسم صورة ، او عمل كائنا ما كان من هذه الهنات .. وان **نتى** لتستطيع ان تدق مسمارا خيرا منه ، وقد تاخذه من يده وتقول :

ـ لا يعنيك هذا يا ابتى ..

وتدقه بنفسها :

ـ اجلس انت واسترح .. اليس هذا وقت قيلولتك .. ؟

وتنتفخ اوداجه قليلا وهو يقول :

ـ النوم .. ؟ لقد استيقظت الآن من رقادى .. لا اريد ان اقضى حياتى نائما ..

كان **لجورج ونتى** بعض الاصدقاء يترددون عليهما فى المساء ، فيلعبان الردج او البوكر ، ويتبادلان معهم الاحاديث . . ويدعوه جورج : هلم يا ابى .. انتم تعرفون والدى؟ لاتعرفونه؟ ويجلس فى تردد، ثم يحاول أن يتكلم ويفيض كما كان يفعل فى منزله

القديم بشارع **اليس** : اريد ان اقول ان هذه الامة ستصل الى ... ولكنهم يستطردون فى احاديثهم ولا يأبهون لكلامه .. وربما قاطعوه واعرضوا عنه فى شىء من الادب .. وهكذا كان يجلس فى الحجرة كما مهملا .. وربما كانت الاحاديث تدور حوله وهو ضائع بينهم كل الضياع . ويلتفت اليه **نتى** و **جورج** من آن لآخر ، ويرفعان صوتهما (ولم يكن اصم ، وبذلك كان يفخر) :

ـ انهم يتحدثون عن هذا الامر يا ابى .. انهم يقولون ...

فاذا بدرت من احدهم نكتة، وانفجر القوم يقهقهون ، ابتسم وهو لايدرى ما يقال ، ويقلب نظره بين وجوههم واحدا بعد واحد ، وهو لا يدرى مايدور حوله. ثم اخذ من بعد يكثر الجلوس فى حجرة نومه ليدخن ، او يقرا صحيفة من صحف المساء . وقد توثقت الصلات بينه وبين الجارية الغاسلة فى هذا الشتاء . وهى تاتى لغسل الملابس داخل الحمام مرة كل اسبوع ، ولكنها تغشى المطبخ لتناول الطعام : جارية سوداء تلبس صدارا من الجلد ، ذات صوت خشن ، وعين نفاذة ، وقلب طيب .. وهو ينتظر قدومها دائما على الدرج ..

ـ او .. كيف حال السيد مينيك اليوم .. ؟ عجبا لك ايها السيد .. اننى لم ار رجلا فى سنك وفى مثل رشاقتك ولطفك! فيبسط كتفيه ويهز راسه عند سماع هذا الثناء الذى يندر ان يطرق اذنيه . وتستلقى **كنارى** برأسها الى الوراء ، وهى تقهقه بصوتها الاجش . ثم تجىء **نتى** تقول :

ـ ان كنارى تتناول عشاءها ، الا تقبل وتجلس فى حجرة الاستقبال .. ؟ سوف نتناول عشاءنا بعد نصف ساعة ..

فيتبعها طائعا .. ان **نتى** قداصبحت تنظر اليه كانه طفل متعب ظريف . طفل لا يكبر ابدا . واذا كانت تفكر فى هذا الراس الاشيب فانما تفكر فيه لتعطف على شيخوخته . وانها لاتدرى انه قد نفذ الى اغوارها وانه قضى بحكمه عليها فى غير رحمة ، فماكان لها ان تستشف ما ينطوى عليه هذا الراس من الراى الحصيف .

انه يعرف النساء .. ! انه كان زوجا لامراة . . وكان ابا لاطفال .. وهو ينظر الى هذه المراة ـ كنته ـ تروح وتجيء بين حجراتها الخمس ، وتفكر ما تفكر عن الابناء ، ويسمعها حينما تشرح آراءها فى الطفولة والاطفال ، وانهم لايصلحون الا على هذه الحال ، وتلك الحال ،ولا غنى فى تربيتهم عن المال .. اجل .. انه وزوجه كان لهما ثلاثة أطفال : **بول** الثانى وقد توفى فى الثالثة عشرة من عمره . وكانت ضربة قاسية . ولم يفكر يوما ما كيف يربى الثلاثة الآخرين . وما كان ليرسم قبل مولدهم خططا عن تربيتهم كيف تكون ، والنفقة عليهم من اين تأتى ..؟ ولكن هذه الخطط ترتسم بعد مولدهم على نحو من الانحاء ..

ان امر الاولاد يدبر بأى طريق . وهذه الكرة الحمراء من اللحم والدم تهتدى الى طريقها فى الحياة بغير تدبير . وهذا **جورج** حينما ولد منذ تسع وثلاثين سنة لم يكن ابوه وامه على حالة يحسد عليها انسان .

.. كان يجلس فى مكانه صامتا وقد اهملته **نتى** . الا انه ما فتىء يتفحص خبايا نفسها ،ويعرف مافى كلامها من التمويه : امراة غضة الاهاب . وسط بين الطول والقصر ، عريضة الردفين .. انثى مهيأة للحمل والولادة . وها هى ذى تعمل موظفة فى مصرف .. اكان فى التوراة ذكر لامراة تعمل فى المصارف .. ؟ هذه امراة خلقت لانجاب الاطفال ..

كان هذا تفكيره ، بينما كانت هى تظنه شيخا هرما لا يلقى اليه بال ، فلما جاء شهر مارس دعت **نتى** خياطة تقضى بمنزلها اسبوعا ، كما كانت تفعل مرتين او ثلاثا كل عام . . لها ملامح صقرية ، فى نحو التاسعة والاربعين ، وجهها كالقارورة الزرقاء، وعيناها ضاريتان : تخيط الثياب فى حجرة الطعام ، فيسمع فى البيت طنين آلة الخياطة والمقصات ، ولغط الاحاديث وحفيف الحرير ..فاتصلت الصحبة بينها وبين الشيخ مينيك ، فاصبحا صديقين . . وكثيرا ما كانت تستعين به على لف الخيط او سحبه ، وتطارحه الاحاديث ،حينما تخرج **نتى** فيما بين الثانية والرابعة بين الوجبات .. ويهز رأسه ويقول :

ـ لابد ان اتقاضى اجرا دائما على هذه المساعدة ..

ـ اظنك لست فى حاجة الى الاجر يا سيد **مينيك** . انك فى يسر ودعة ، على ما ارى .

ـ اجل اننى لاأستقل خمسمائة فى العام ، ولااشكو بحمد الله .

ـ الشكوى ! اننى لا أشكو . لوكان الامر امر شكوى لتغيرت الحال . فانا اواصل العمل طوال يومى لاكسب ما يقيم اودى ، واذا دخل الليل فلا يدخل على احد ..

ـ انت ارمل ؟..

ـ اننى اشتغل واشتغل منذ كنت فى العشرين من عمرى ، هذا كل ما لدى ، ثم الوحدة .. لاخالك تعرف ما الوحدة .

ـ انا لا اعرف ؟ وتسقط لفافة الخيط من يده ..

ثم تلقى عليه نظرة من تلك العين الضارية ، وتقول :

ـ ربما كنت تعرف ..

لا اظن المعيشة هنا بين الابن وزوجه مما يروقك ويلائمك مع مالديك من مال ؟ . اما انا فعلى الدوام ادبر مسكنى الصغير ، حتى استطيع ان اقول ان لى بيتا آوى اليه : حجرتان فحسب . وليس عندى ما يسلينى . الا انه بيت على كل حال .. اقضى ليالى فى مزاولة الطبخ . وليس عندى ما اشغل به نفسى ، ولكنى اجد ما يشغلنى . ان الطبخ هو الشىء الذى احب ان ازاوله .. الطعام الوفير هو مايحتاجه الناس ليقيموا اودهم ويحتفظوا بقوتهم ..

ولقد كانت اكلة **نتى** ضئيلة فى هذا اليوم .!!

ظلت **الخياطة** لديهم أسبوعا . وكانت تغتاب **نتى** فيقاطعها معترضا ، ولكن فى غير جد . فتسائله : هل تقدم اليك ماتشتهى من البيض واللبن ؟ هل تزودك بكأس من النبيذ المشعشع بالماء الساخن ؟ هل تواليك بالحساء والاطعمة الدسمة على اختلافها واللحوم والعصائد ؟ هذا مايحتاجه الناس حينما يتخطون سن الشباب ؟

ولم تكن تقول انه شيخ على الاطلاق . بل انه اكثر اشراقا من الصبية . وتكاد تصرح بانه اجمل من ابنه !

كان يتقبل هذا الكلام بنهم الجوعان . وفى اليوم الثالث من اقامتها بدأت تلقى عليه نظرات ذات مغزى وهى جالسة على مائدة الطعام . فلما جاء اليوم الرابع بدأت تضغط قدمه تحت المائدة ، وفى اليوم الخامس ، **ونتى** غائبة ، قامت وهى تتظاهر بانها تبحث عن قطعة من القماش ووضعت يدها على كتفه ثم عادت تضغطها قليلا ، ونظر اليها مرتاعا . لقد كانت تلك النظرات التى تلقيها عليه من فوق المائدة تتخطى راسه وتمر فى سبيلها ، والقدم التى تحت المائدة قد تمسه على غير عمد . ولكن هذا امر صريح لا مغالطة فيه . فوقف وقد اعترته رجفة ، واذا تلك الملامح الصقرية امامه وجها لوجه ..

قالت : انت فى حاجة الى من يحبك . انت فى حاجة الى من يعمل لاجلك ويحبك .

واقترب منه وجه **الصقر** قليلا ، ولكن كان يلمح بينها وبينه وجه السيدة **مينيك** ، غضا ، بضا ، صابرا ، مازحا .. فاشاح بوجهه فى حدة ، والقى يدها الدافئة بعيدا عنه — وكانت قد اخذت بيده ، وصاح بها :

— أيتها المرأة ايزابل !!

سمع الباب الخارجى يغلق ، ودخلت **نتى** ، فانصرفت المرأة مسرعة الى اعمالها . اما **مينيك** فارتجف وبادر الى حجرة نومه ..

قالت **نتى** ، وهى تضع اللفافة التى معها على المائدة :

— اجل . هل تناولت ما فى انائك من قطع الكباب ؟ لماذا لم تاكلى .

— اشعر باننى لست على ما يرام ، وان هذا الغذاء لا يلائمنى ..

— انها وجبة بسيطة . وليس فيها ما يتعب .

---

(١) امراة جريئة عاصية ، ورد ذكرها فى سفر الملوك من العهد القديم .

فلما جاء اليوم التالى لم تحضر لانجاز ما تبقى من عملها ، وابلغتهم بالتليفون بأنها مريضة .. !

فقالت نتى : انها فحة ! وانجزت بقية الخياطة بيدها على مضض ...

اما الاب **مينيك** فانه لم يقل شيئا ، ولكن عيناه كانتا تبرقان ، ويتهانف من آن لآخر ، مما ضايق نتى وان لم تنبس بكلمة . وهمس وكانه يخاطب نفسه وهو يقهقه : تريد ان تتزوجنى تلك المراة السليطة !!

***

لما كان آخر ابريل اكتشف **الشيخ** مينيك متنزه **واشنجتون** ناديه . ومنذ ذلك اليوم تغير مجرى حياته : انتهز غرة الربيع وشمسه المشرقة ليتنزه خارج البيت كما اقترحت عليه **نتى** ، وكانت تقول له : « لماذا لا تذهب الى المتنزه يا أبتاه ؟ ان الجو دافىء ، والشمس مشرقة تفيدك » ..

ولبس اثقل قميص لديه وارتدى سترة **چورج** الحمراء ، وفى الصدر منها علامة **س** . تشير الى براعته الرياضية ايام كان فى **جامعة** شيكاجو . وفوق كل ذلك معطفه الثقيل ، وفى يديه القفاز ، وهو يتوكأ على عصاه المتوجه بالراس السلوقى . ثم خرج بعد ان تزمل على هذا المنوال سائرا سادرا الى المتنزه ، فاذا هو يصيب هنالك حياة جديدة ! حياة جديدة فى حياة قديمة . فقد كان المتنزه حافلا بالشيوخ يحمل بعضهم العصا المتوجة بالراس السلوقى . ويرتدون ستر غيرهم وقمصانهم تحت المعاطف ، ويلبسون ملابس القطب الشمالى وان كان الجو صحوا . وقد بدت ايديهم وعظام خدودهم مصقولة ضامرة على الرغم من غضونها واخاديدها ، وظهرت فوق ايديهم وعلى جباههم رقطات رمادية ، وارتخت على كعوبهم جوارب رمادية او سمراء .

منذ هذا الصباح من شهر ابريل الى الشتاء كان المتنزه يرى وجه **مينيك** الشيخ كل يوم ، بل كل ساعة من ساعات النهار ، عدا وقت الطعام وساعة القيلولة القصيرة .. اما ماعدا ذلك فقد كان وقته كله مقضيا هناك .

ففى هذا المتنزه يجتمع مينيك الشيخ بأمثاله من الشيوخ ، ويجعلونه منتدى للمناقشات البريئة التى ينفسون بها عن انفسهم ..

ولم يمض وقت طويل حتى عرف أن المتنزه يجمع فريقين من الشيوخ :

الشيوخ الذين يعيشون مع ابنائهم المتزوجين وزوجاتهم ، او بناتهم المتزوجات وازواجهن .

والشيوخ الذين يعيشون فى النزل المعد لكبار السن ، وهو على مقربة من المتنزه ، ويراه الناظر اليه من خلال الاشجار.

اما الفريق الاول فهجيراهم من الحديث ، أى ديدنهم فى تكرار الكلام ، مايلى :

ـ « ان ابنى وابنتى يأبيان على ان اقيم فى مسكن عام . كلا ياسيدى انهما يأبيان الا أن اكون الى جوارهم وفى مسكنهم .. هؤلاء ابنائى وتلك خصالهم » !

اما الفريق الثانى فهجيراهم من الحديث غير ذلك .. يقول احدهم:

ـ « انا لا اقبل ان اعيش مع احد من ابنائى او بناتى ! الاستقلال خير من كل شىء . هذه طريقى وذلك مسلكى . لا اريد ان ارى احدا يرشدنى الى ما أفعل ومالا أفعل . ويعاملنى كأننى طفل صغير .. لست ملكا لاحد .. ادفع نقودى واعيش عيشتى » !!

ولشد ماياخذك العجب حين ترى الفريق الاول ، وعلى ملابسهم بعض البقع وقد تنسلت اطواقهم وراحوا يؤدون لكناتهم بعض الرسالات : رغيف خبز ، او بكرة خيط ، او يقودون الاطفال الكبار الى بركة البط ، وهم يمشون كالاطفال ، وهؤلاء الاطفال بينهم : لاتدرى أيهم يقود ، وايهم يقاد ؟

اما الفريق الآخر فتبدو احذيتهم نظيفة ، وتنظر الى ملابسهم القطنية فلا تجد عليها بقعة من الاوساخ ، فضلا عن ملابسهم الصوفية . ليس وراءهم تلك الواجبات الصغيرة التى يكلفها الفريق الاول . فراغ عظيم واحاديث عظيمة ، لم تكن مقصورة على المسائل الدولية فحسب ، بل كانت عالمية او

كونيـــة فى بعض الاحايين : ـالحرب ! السلم ! نزع السلاح ! الصين ! فقاقيع تتصـــاعد فى الهـواء ، ثم تنفجر ، ولا يبقى غـــير الزبد والرغاء . وكان فى هؤلاء الغذاء الصالح لمينيـــك **الشيخ** الذى صـــبر أمدا طويلا على غذاء الاطفال !

كان هذا الفريق يجتمع مابين الرابعة والخامســـة ، فى مكان يسمونه : تحت ظلال شـــجرة الصفصاف . ويكون اجتماعهم فى شبه منتدى ، يشـــتمل على فريق من الاشـــتراكيين وثوار الحجرات والمقاصير .. نسـق متصل من الاحاديث ، يظـلون منصرفين الى هذا عاما بعـد عام . . !!

وقد تعلم **الشيخ** مينيـــك امثال هذه الكلمات الطنـــانة : السادة .. الديمقراطية .. كدح الكثيرين لمنفعـة القليلين .. الطبقة .. الحـــاكم .. حرية القول .. الشعب .. الخ ..

كأن اصحاب العنـــاد منهم يثبتون عـلى لجـــاجتهم ، اما الضعاف فيحومون حول الحواشى ويلوذون آنة بعـد اخـرى بكنف حفيد واسع العينين . ولم تكن هـذه الاحاديث تصـــطبغ بالصبغة العامة ، ولا تحتدم جدا وحماسة الاحوالى الحادية عشرة من الصباح . اذ يتكوف هـؤلاء الشيوخ جماعات صـــغيرة من شخصين او ثلاثة أو اربعة ، على المقاعد الخشبية تحت الشمس . وتبدر منهم احيانا كلمات بذيئة ، غير حافلين **بالسيدات** الشيب اللاتى يستمتعن مثلهم بأشـعة الشمس ، ويرقبون **الفتيـــات** اللاتى يطفن بمقاعدهم ويعجبون نقاماتهن وكعوبهن الصقيلات !!

كان اليوم الذى يقضونه بتلك الضاحية القريبة ، من اسـعد أوقاتهم ، يتهانفون بينهـــم ، ويعلقون بمـــا يطيب لهـم من التعليقات الخبيثـة .. رءوس بيض ، وشيوخ متهدمون ، الا انه قد تخلفت فى عقولهم نزوات الذكران ! وكأنهم اطفال شياطين يلفون بينهم فى الخلاء !

وسرعان ماحصـــل **الشـــيخ مينيك** على مكان الصـــدارة فى الاحاديث التى كانت تدور هناك . . وانه ليحب الكلام دائمـــا . وكانت هذه السنة الاخيرة عنده بمثابة سجن لايطاق ..

فكر بادىء الامر مترددا فيمن هم على شاكلته ، ولشدما كانت تستثيره محادثات أولئك الشيوخ الذين يجلسون على مقاعدهم فى انتظار موعد الطعام يراقبون كل مايمر على اعينهم :

ـ هذا قارب لطيف . ثيلافى قارب !

ويسكتون لحظة ثم يضجون بالضحك !

وبعد خمس دقائق :

ـ انظر هؤلاء الجالسين على الحشائش ماخطبهم ، الا يحسون حرارة الجو ؟ .. هاهم ينهضون ..

وتمر فرقة من الفرسان بالطريق المقابل للبركة .. تسمع لها اصوات تفسد زهو الربيع . بينهم نساء يرتدين الثياب القرمزية او الخضراء النضرة تستوقف النظر .. :

ـ فرسان !

ـ اجل !!

ـ جو يلائم الركوب ..

وهنا رجل يصطاد السمك قريبا منهم :

ـ جو بديع يلائم الصيد !

ـ اجل ..

ـ كم الساعة ؟

وينتزع احدهم ساعة ذهبية كبيرة من جيبه :

ـ احد عشر ودقيقة ..

ويسحب الشيخ **مينيك** ساعة ثقيلة :

ـ عندى احد عشر !

ـ عندك تقديم على ماأظن ..

وكان مينيك الشيخ يشمئز من هذه الاحاديث ، ويتململ ويقول فى نفسه : ليست هذه احاديث ! هذا موت شقوى !

وان كان لايظهر امتعاضه . فاتصل بالفريق الآخر الذين كانوا يتباحثون فى تحضير الارواح . فاصغى اليهم ، ثم ابدى رايا قوبل بالاحترام ، ثم هوجم بعد ذلك بغير شفقة ، ورفع عقيرته بالكلام فاكتسب النقاش ..

قال احدهم :

ـ اظنك تسكن النزل . اليس كذلك ؟!

فأجاب الشيخ مينيك فخورا :

ـ كلا . اننى اعيش مع ابنى وزوجه . انهما لايرضيان بغير ذلك ..

ـ او .. انا احب ان اكون مستقلا ..

ـ الا تجد بعض الوحشة !؟

ـ تقول وحشة ، ايها السيد؟ قلت لى اسمك ؟ **مينيك** ؟ وانا اسمى **هيوز** . اننى لم اشعر بالوحدة طوال حياتى الا ستة اشهر عشتها مع ابنتى وزوجها واطفالهما الخمسة ... هذا ما اسميه وحدة ووحشة !!

وكان **جورج** و **نتى** يقولان له : لقد استفدت يا ابت من نزهتك فى الهواء الطلق .. وحقا قد بدا فى عينيه بريق ، وانتصبت قامته ، واشرقت بشرته . وكان ذلك هو اليوم الذى تناول فيه موضوع الهجرة فصيحا مفيضا فى الحديث .

وطفق مثابرا على المجلات والصحف ، ورسالة من هنا ورسالة من هناك ، ليحتفظ بمكانته ، ويتابع احدث الموضوعات .. واقبل يلتهم الكتب والنشرات التى تتناول شئون المال والشركات ، مما يجلبه جورج الى المنزل . فاصبح لديهم فى المتنزه مرجعا فى مشاكل المصارف والاسهم والاوراق المالية . ويقضى الاسابيع هو ورجل من رجال المصالح المتقاعدين يدعى **موري** فى مناقشة مسالة واحدة لايختمانها .!

واستراح **جورج** و **نتى** الى هذه النزهات . وظنا انه يقضى هناك ساعات مهومة مع اصدقائه الشيوخ ، لايبحثون فيها شيئا

ذا بال .. كان فى تلك الايام يلتهم وجباته من الطعام ، ولا هم له الا ان يملأ جوفه ويعب ملأه من الشراب !..

انتهى الصيف وانصرم ، واقبل الخريف يحمل هما جديدا للشيخ مينيك . أين يذهب اذا حل فصل الشتاء ؟ اليس مصيره الى ذلك المسكن ذى الحجرات الخمس يأوى اليه طوال النهار ؟ حيث الفراش الصغير وحيث العدم ؟ لقد دارت بخاطره اغنية كان الاطفال يرددونها قديما ويتغنون بها فى المدرسة. اغنية تفهة لاطعم لها ..:

« اين تذهب العصافير ؟

اننى أعرف . اننى أعرف ! »

لكنه لم يعرف . واستولى عليه رعب وفزع .. واقبل شهر اكتوبر وادبر ، واستحال فى اوائل نوفمبر الذهاب الى المتنزه حتى عند الظهيرة ، وحتى اذا ارتدى المعطف والصدار . واسود فى نظره لون الجليد الابيض ، وجعل يترقب مطالع اسماء يرصد الامطار والثلوج ..

وكان هناك دكان لبيع التبغ ، وناد للبليار على زاوية الطريق ، فكان يذهب اليه مع طائفة من زملاء المنتدى ، يقفون وراء اللاعبين ويرقبونهم وهم يلعبون ، الا انه كان شاغلا مملا ، وكان سكان النزل لايحضرون اليه ، فعندهم فى نزلهم حجراته المعدة للالعاب ..

وانصرف من تلك المغارة الغائمة بالدخان مهيض القلب واجم الجبين .. لقد حاول ان يواجه الشتاء فلم يستطع ، وكان يرتعد فرقا لما يلقاه ..

ثم بلغ المسكن ، فذهب الى الباب الخلفى كدابه كل يوم ، وكان حذاؤه مبتلا موحلا . وان البسط فى المنزل لنظيفة من الطراز الحديث . وانه ليجد الباب الخارجى مفتوحا فيذكر ان اليوم هو يوم **كنارى** تحت السلم . ويخلع حذاءه فى المطبخ ويدخل حجرة الطعام ، ويستمع الى اصوات ، فاذا **نتى** مع زوار من صديقاتها ، لعلهن فى دعوة شاى .. ويعود ادراجه الى حجرته ، فيستوقفه ذكر اسمه على لسان نتى ويسمعها تقول :

لولا أن والد مينيك معنا لكان لى أولاد .... ولكن كيف ووالد مينيك يقيم معنا ؟ ليس لدينا متسع ، ولانستطيع أن نستأجر مكانا أوسع مع ماهو معروف من ارتفاع ايجار المساكن . ان مسكننا بهذه الحال لايصلح لان يربى فيه طفل .. وقد تفاهمنا على ذلك أنا وجورج .. ماظنكن ، مادام والد مينيك معنا فلانستطيع . لاأعنى اننا نستعمل حجرة الخدم لهذا او لذاك من الشئون اذا رزقنا طفلا ، ولكن يجب أن يكون لدى أحد يساعدنى حينذاك ، وفى هذه الحال يجب أن يكون لدينا حجرة زائدة ...

وظل هنالك فى حجرة الطعام ساكنا لايتحرك . وكان يحس قشعريرة تدب فى أوصاله وكأنما قد تخدر . الا أن ذهنه كان فى نصب واصب : الامر واضح كل الوضوح ، ويكاد صوابه يطير !! وعلى الرغم من هذا النصب الواصب كان يتضح أمامه **شبح الموت** . فقد كان الموت أول ماخطر له فى تلك اللحظة ، وماأهونه اذن . الا انه لم يكن يحب أن يموت . عجبا انه لم يكن يحب أن يموت ... كان يهوى الحياة .. : المتنزه ، الاشجار ، المنتدى ، الحديث . وكل ماهنالك .. ان **نتى** فتاة طيبة .. ولكن على **الشيخ** أن يخلى مكانه للشباب ، ان لهم الحق فى أن يولدوا .. ربما كان هذا عذرا آخر .. لقد انقضت أربع سنوات منذ تزوجت . لماذا لايكون ذلك منذ ثلاث سنين .. حق فى الحياة .. حق فى الحياة .

تسلل الى المطبخ ، ولبس حذاءه ، وخرج فى الظلام ، عصر يوم من أيام نوفمبر القاتمة ، ثم عاد ولما تمض ساعة ، ودخل هذه المرة من الباب الامامى ودق الجرس .. لم يكن معه مفتاح ، ولم يحدث أن كان معه مفتاح على الاطلاق . . كأنه طفل من الاطفال لا يأتمنونه على مفتاح ، وكانت صديقات **نتى** خارجات فى تلك اللحظة فانتشر أريج العطر ونكهة الشاى والطلاء ، فاستنشاها بارتياح .. قلق .. كيف حالك يامستر مينيك ؟ كيف حالك ؟ كيف تقضى هذه الايام ؟

وابتسم بسرور وهو يخلع معطفه الثقيل والقميص الاحمر المكتوب عليه علامة **س** . وقال : كيف أقضيها ؟ أقضيها على نية الانتقال !

قالت **نتى** وقد نظرت اليه مرتاعة : على نية الانتقال يا أبتى ؟

ـ ان الشيوخ يجب أن يفسحوا فى المجال للشباب . هذا قانون الحياة . أجل ياسيدتى .. الاطفال الجدد . الجدد .. !

قالت **نتى** ، وقد احمر وجهها خجلا : ماذا حدث يا ابتى ؟

ـ لقد وقعت على اتفاق للاقامة فى النزل اليوم ، وسأنتقل اليه فى الاسبوع القادم .

والتفتت اليه السيدات وقد تبسمن ، ودنا منها الشيخ **مينيك** ، وربت على ذراعها الغض ، وقرص خدها ، وهزه قليلا ..

قالت **نتى** مبهورة : لا أدرى ماذا تعنى ؟

قال **مينيك** الشيخ : أجل انك تعرفين :

وكان فى طيات تعبيره مسحة من الصرامة وان شيبت لهجته بنغمة المزاح .

لما دخل المنزل ، كان فريق من القوم يجلسون أمام الموقد فى حجرة الاستقبال ، وقد بدت عليهم أمارات الصحة والنشاط . فحيوه بلطف على عادتهم معه حينما كان يقبل عليهم بالمتنزه ... :

ـ استمع يا مينيك . ان **موري** هنا يقول ان الصين يجب أن تضم الى حلف الدول الاربع ، ويقول: .. وسلك الشيخ **مينيك** حلقه وقال :

ـ هاكم الصين بأجمعها ، فخذوها بأراضيها الشاسعة وتجاربها ومنابعها الصافية العذراء .. !

ووقفت أمامه خادم تفاحية الوجنة ترتدى حلة سوداء وميدعة بيضاء وقالت له :

ـ ان مدير النزل ينبئك ان حجرتك على استعداد . أتحب أن تراها الآن ؟

ـ انتظرى دقيقة واحدة يا بنيتى ...

ونحاها جانبا باعتداد الرجل الذى يدفع خمسمائة ريال لاستقلاله وحريته . وهمت الفتاة بالمسير ، فناداها :

ـ استمعى يا فتاتى الصغيرة ! استمعى أيتها الفتاة الصغيرة !

ولما التفتت اليه . قال :

أبلغى مدير المسكن أن يحضر لى وسادتين لفراشى . وسادتين . أتفهمين ؟

ـ أجل ياسيدى ، وسادتين . لقد فهمت ! ... .

ستيفن فنسنت بنيت

١٨٩٨ - ١٩٤٣

من سلالة اسبانية ، ومن اسرة أدباء وشعراء ، وله أخ وأخت شاعران أديبان ، وأجداده الاولون جنود عسكريون .

ولد فى بيت لحم (**بنسلفانيا**) ، وتخرج من جامعة **يال** ، ثم حضر بعض الدروس فى **السربون**، ونشر أول ديوان له : « قصائد فى المناجاة الاحادية » أو المنولوجات ، وهو فى السابعة عشرة ، وكان مثلا من الامثلة النادرة على النجاح « الرسمى » والنجاح الشعبى معا ، فاحرز جائزة بولتايزر، واحرز الجائزة القومية للشعر ، وعين وكيلا لمعهد الفنون القومى ، وراجت كتبه بين طبقات القراء على ندرة رواج الملاحم والمقطوعات الغنائية فى العصر الحديث ..

شاعر فى نظمه ، وفى اختيار الموضوعات لقصصه ، وأكثرها من المأثورات الشعبية التى يلتقى فيها الواقع بالخيال وتتقارب فيها آيات البطولة وخوارق الطبيعة ، ومذهبه فيها أن خلق الاساطير غير مقصور على خيال الاقدمين ، فان الاحياء يحفظون من المرويات المأثورة عن ابطال التاريخ القريب تحفا من هذه النوادر التى يزخرفونها بحلية الاعجاب وروائع الخيال ، فلا يقفون بها دون شأو الاقدمين فيما يروونه عن الابطال من أنصاف الاناسى والارباب .

وهو مولع بنوادر التاريخ الامريكى وتراجم أبطاله : طريقته فى سردها ، شعرا أو قصة ، أن يحليها بالطرف الشائقة ، وأن تكون هذه الطرف لبا من لبابها ، ولا تكون كما قال « كالزبيب فى الفطيرة » يحليها ولا يدخل فى خبيزها . وله ملحمة شعرية بعنوان « رفات جون براون » تعد نموذجا لهذه الطريقة ، يروى

فيها قصة الحرب الاهلية ويصور فيها أشخاص **لنكولن ودافيزولى وجاكسون** ، ويبدأها من النزاع على تجارة الرقيق ، ويختمها بحوادث سنة ١٨٦٥ . وقصته النثرية التالية نموذج آخر لهذه الطريقة فى القصة القصيرة التى يرويها عن المأثورات الشعبية ، ويقارب فيها على أسلوب « الشعبيات » بين آيات البطولة وخوارق الطبيعة كما تقدم ، فالبطل فيها خطيب أمريكا الاشهر **دنيال وبستر** ، يغلب كيد الشيطان ببلاغته ، ويسلط بيانه القاهر على عقول المحلفين المختارين من اشرار الجحيم ، فيسحرهم وينسيهم شرورهم ، ويبعد مابينهم وبين الشيطان ، فيبطلون دعواه ، وينقضون وثائقه وينصرون عليه غريمه الحائن (١) فى يوم القضاء .. وقد وضعت هذه القصة فى القالب التمثيلى ، ثم فى قالب المسرحية الغنائية .

ومن الالفة بين فنه وبين الاذواق الشعبية انه كان ينظم القصائد التمثيلية للاذاعة ، فيستزيده المستمعون ، وكانت كتاباته التاريخية تطبع وتتداول بين الجنود وجمهرة القراء ... وهو من الشعراء القلائل الذين استطاعوا التوفيق بين أذواق الخاصة وجمهرة القراء ، وساعده على ذلك انه كان كما قال « يكتب عن الماضى ويتحاشى أن يفسده ، بأن يعاش من جديد » .. وانما يكتبه ليصل بينه وبين المستقبل بحلقة من الواقع تلتقى بطرفين مختلفين .

(١) الذى جاء حينه أو جاء اجله .

الشيطان ودانيال وبستر

بقلم ستيفن فنسنت بنيت

انها **قصة** يروونها فى أقاليم الحدود حيث تلتقى **مساشويست بفرمونت وهامبشير** الجديدة ·

نعم . ان **دنيال وبستر** ميت، أو هم على الاقل قد دفنوه، ولكنهم كلما سمعوا الرعد على مقربة من **مرشفيلد** قالوا انكم لتسمعون صوته القاصف فى أجواز الفضاء، ويقولون انك اذا ذهبت الى قبره وناديت : «دانيال وبستر . دانيال وبستر » اخذت الارض ترتجف، والاشجار تترنح ، وسمعت بعد قليل صوتا أجش يسأل : أيها الجار · كيف حال الاتحاد ؟ وخيرلك اذن أن تجيب قائلا : « ان الاتحاد قائم كما قام ·· أساس من الصخر وغشاء من النحاس · واحد متحد غير منقسم ·· » والافانه ليستطيع أن يشق الارض ويخرج منها ·· أو هكذا على الاقل كنت أسمع منهم فى صباى·

واعلم انه كان يوما ما أكبر انسان فى البلاد ، ولم يتول الرياسة مرة ، ولكنه كان أكبر انسان ، وكان فى البلاد ألوف يؤمنون به بعد ايمانهم بالله القدير ، ويروون أقاصيصه ، ويتحدثون بأخبار عنه على نمط تلك الاخبار التى نسمعها عن آباء التوراة وشيوخها الابدال ·وانهم ليؤمنون انه اذا قام خطيبا برزت النجوم والازياج من السماء، وانه خطب مرة « ضد » نهر من الانهار فغاض فى أسفل الارض ،وانه كان اذا خرج يتمشى فى الغاب بصنارته قفز السمك الى جيوبه ، لانه يعلم أنه لامنجى له منه ، وانه اذا دافع عن قضية ،ففى وسعه أن يهز أوتار الابرار ويسيطر على الاصداء فى جوف الرغام ··

هكذا كان **الرجل** ، وكذلك كانت ضيعته فى **مرشفيلد** على قياسه ، تلائمه وتوائمه · فكان الدجاج الذى يربيه كله لحم

أبيض الى الرجلين ،وكانت أنعامه ترعى كما يرعى الابناء ، وكان الكبش الكبير الذى سماه جالوت ذا روق كقوس النصر ، فى قدرته أن يعشر نعاجه من وراء باب حديد .

على أن **دنيال** لم يكن من أولئك السادة الكسالى أصحاب الضياع، بل كان يعرف كل شيء عن الارض وينهض ليتفقد شغل الحقل على ضوء الشموع ! رجل له فم كفم الكلب الضليع ، وأنف أشم كالطود، وعينان كجذوة النار . ذلك هو **دنيال وبستر** فى ريعانه، ولم تدون أكبر قضاياه التى تولاها على صفحات الكتب ، لانه كان يساجل فيها الشيطان دقة بدقة .. وهذه هى كما سمعناها مرات بعد مرات :

***

كان هنالك رجل يسمى جابيز ستون يقيم فى « **كورنرز** » بهمبشير الجديدة . ولم يكن رجلا رديئا ـ على فكرة ـ ولكنه كان سيىء الطالع ، يزرع القمح فيبتلى بآفته ، ويزرع البطاطس فيبتلى بآفتها ، وأرضه من أجود الارض ولكنها لا تسعده أو تغنيه ، وله زوجة كريمة وأطفال ، ولكنه كلما رزق طفلا قل رزقه ، واذا أثمرت الحجارة فى حقل جاره فالصخور فى حقله تتقد ، واذا كان له حصان متوعك باعه بحصان مختلج وأدى عليه فرقا للبائع . وتلك شنشنة معهودة فى بعض عباد الله .. بيد أن **جابيز ستون** ضجر يوما من هذا النصيب الموكوس كله ، وحدث ذلك اليوم انه كان يحرث أرضه فاصطدم المحراث بحجر وأقسم ماكان ذلك الحجر فى الارض بالامس ، وانه لينظر الى المحراث اذا بالحصان يسعل ذلك السعال الذى ينم على المرض ، ويستدعى اليه البيطار ، وعنده فى البيت طفلان مصابان بالحصبة، وزوجة تشكو ، وعلى أصبعه هودمل .. لقد كان هذا كالحصاة التى تقصم الظهر عند **جابيز** . فقال وهو قانط يدير بصره فيما حوله : لقد عانيت مايكفى المرء أن يلقاه ليبيع الشيطان **روحه** . وانى لبائعها ان شاء بفلسين !

ثم تنبه فعجب لنفسه كيف عن له خاطر كهذا ، ولكنه ـ وهو من صميم **همبشير** ـ لا قبل له بالرجوع فى كلام ، وحان المساء فلم ير على غاية مد البصر علامة على أنه قد سمع وهو يناجى نفسه تلك المناجاة . فشعر بالفرج لانه كان رجلا صاحب دين وتقوى . الا أن الخبر يسمع عاجلا أو آجلا كما قيل فى الكتاب . فلما كان

الغد على موعد العشاء شوهد **زائر** غريب ، رقيق الكلام ، فى الملابس السود ، يسوق مركبة ذات عجلتين ، ويسأل عن **جابيزستون** .

وزعم **جابيز** لاهله أنه محام أتى اليه فى أمر وصية ، بيد أنه قد عرف من هو ، ولم يعجبه مرآه ولا ابتسامته بين أسنانه ، وكانت أسنانا بيضا كثيرة، يقال انها كانت مصفوفة تملأ كل فكيه ، ولكنى لا أراهن على صدق ماقالوا .

ولم يعجبه الرجل **الغريب** كذلك بعد أن رأى الكلب ينظر اليه فيعوى ويهرب الى الدار ،وذنبه بين رجليه . غير أنه قال كلمته فلم يسعه أن ينقضها ،وذهبا معا خلف المخزن فعقدا الصفقة بينهما ، وكان على **جابيز** أن يجرح يده ليكتب توقيعه **بدمه** ، فأعاره الزائر الغريب دبوسا من الفضة ، ثم اندمل الجرح نقيا ، ولكنه خلف فى موضعه ندبة بيضاء .

وعلى **غير العادة** جرت الامور رخاء بعد هذا مع **جابيزستون** ، فسمنت أبقاره ، ونشطت خيله ،وحسده الجيران على وفرة غلاته، وسلمت مؤونته وحدها مما يصيب مؤن الآخرين ، وسرعان ماأصبح من أغنى ذوى اليسار فى الاقليم،فاقترحوا عليه أن يرشح نفسه للنيابة عنهم ففعل ، وتشاور الناس فى انتخابه عنهم شيخا للولاية ، وشاعت السعادة فى بيته ، فكان أهله جميعا أسعد من القطط الصغار فى دار اللبان . الا **جابيز ستون** نفسه ، فلم يكن بالسعيد .

ولقد رضى عن حاله خلال السنوات القلائل الاولى .. فان توفيق الحظ شىء يذهل المرء عن كل ماعداه !

نعم ان الندبة الصغيرة كانت تنكأه قليلا بين حين وحين ، وكان الزائر **الغريب** فى المركبة ذات العجلتين يعاوده فى موعده لا يتأخر عنه طرفة عين . الا أنه فى السنة السادسة حضر الزائر الغريب فذهب السلام من ضمير **جابيزستون** الى غير رجعة مع محضره المريب ..

أقبل الزائر **الغريب** من جانب الضيعة السفلى يضرب حذاءه بقضيب فى يده،وكان حذاء أسود جميلا ، لكنه لم يكن يروق **جابيزستون** وبخاصة موضع الابهام .. وبعد أن قضى سحابة النهار جعل يقول للسيد **ستون** :

ـ حسن .. حسن .. ياسيدستون . انك لمجدود ، وان هذه الضيعة التى اراها لك لهى ثروةقيمة .

قال **ستون** : على كل حال أنها تعجب بعض الناس ولا تعجب أناسا آخرين ... وان **ستون** كما لايخفى لهمبشيرى صميم !

ـ كلا .. كلا .. لاحاجة بك الى بخس عملك .

كذلك كان جواب الزائر **الغريب** وهو يكشف بابتسامته عن اسنانه ، ثم استطرد قائلا :

على أننا نعلم ما حصل ، فانه قد حصل كله وفقا لما تعاقدنا عليه ، فاذاحان الموعد السنةالمقبلة لم يكن لديك ما تندم عليه

قال **ستون** : أتتكلم أيهاالسيد عن ذلك الاتفاق ؟

والتفت حوله كمن يستغيث بالارض والسماء .

ثم قال : اننى أوشك أن أجد فيه موضعا أو موضعين مما يريب !

وصاح الزائر **الغريب** صيحة ليست بالمستحبة على كل حال : مما يريب ؟

قال ستون : أجل . فاننا فى هذه الولايات المتحدة ، وانا رجل متدين .

ثم تنحنح وقال مجترئا : أجل يا سيدى . اننى لاوشك أن أرتاب كثيرا فى اعتماد هذا الرهن أمام القضاء ...

فأجابه الزائر **الغريب** : هناك قضاء وقضاء ...

وسمع لاسنانه هدير وهو يقول : على أننا قد نلقى نظرة على الاوراق !

ثم أخرج من محفظة جيبه الحافلة بالورق وثيقة قرأ عليها اسم **«شروبن سليتر ، ستيفنز ستون»** وتلا منها مفتتحها : « أنا جابيز ستون . أتعهد لمدة سبع سنوات» ثم استطرد قائلا : انها مطابقة للاصول القانونية تماما فيما أحسب !

بيد أن **جابيز ستون** لم يكن يصغى اليه ، وكان يلمح شيئا بارزا من المحفظة السوداء : شيئا يلوح كشكل الفراش وليس به .

ويهمس حين أنعم ستون فيه النظر همسا كالصفير الا انه انساني في نغمته : **جارى ستون** جارى ستون . اغثني بالله . أنجدني !

وان **جابيز** ليهم ان يتحرك اذا بالزائر **الغريب** ينفض من جيبه منديلا كبيرا، ويلف به ذلك المخلوق، ويقبل على المنديل يربطه من أطرافه ..

ـ آسف لهذه المقاطعة . لقد كنت أقول ...

ولكن **جابيز ستون** كان يرتجف من فرعه الى قدمه كالجواد المجفل ، ثم تمالك نفسه وقال :ذاك هو ستيفنز البخيل وأنت تقبضه في منديلك ... !

فاضطرب الزائر **الغريب** قايلاوجاراه قائلا : نعم هو ستيفنز ، وقد كان على أن أودعه صندوق المجموعات ...

قال ذلك متهانفا ، ثم استمر يقول :

ـ ولكن المجموعة فيها ودائع من صنف آخر ، ولا أحب أن أزحمها . لاباس . لاباس . هذه عواض قد تحصل من حين الى حين ...

ـ لا أدرى ماذا تعنى بهذه العوارض ، ولكن هذا هو صوت ستيفنز البخيل ، وليس هو بميت ، ولقد كان في خفة القار ورشاقته منذ قليل .

ـ أحى هو ؟ اذن فاسمع ..

وسمع في تلك اللحظة ناقوس يدق ، وأصغى اليه **جابيز** ستون وجبينه يتفصد بالعرق ،لانه علم أن دقات تنعى **ستيفنز** البخيل .

قال الزائر متنهدا : هذه الحسابات القديمة لابد لها من تسوية ، وانى لابغض ختامها ،ولكن الشغل شغل ، ولا حيلة فيه !

وكان المنديل في يده لايزال ، وغشيت نفس **جابيز** وهو ينظر الى المنديل يضطرب ويصطرع،وسأله بصوت مبحوح : أتراهم كلهم بهذه الضآلة ؟

– ضالة . آه اننى أدرك ماتعنى .. كلا . بل هم يختلفون وجدج الزائر **الغريب** بعينيه وتكشفت اسنانه وقال :

– لاتقلق يامستر **ستون**، فانك انت طراز ممتاز ، ولن آمن عليك خارج الصندوق ، وخذ مثلا انسانا **كدنيال وبستر** .. اننا نبنى له بداهة صندوقا خاصا ، ولانحتوى مع هذا جناحيه .. انه ولا شك لغنيمة نفيسة . وليتنا نفضى اليه فى طريقنا .. أما انت يا مستر جابيز ، فكما كنت اقول ...

وقبل أن يتم جملته صاح به جابيز ...

– ابعد هذا المنديل ..

واخذ يلح ويتوسل ، فكان اقصى ما وصل اليه تأجيل ثلاث سنوات مع بعض القيود والشروط ...

***

وأنت أيها القارىء لا تستطيع أن تعلم كيف تمر السنوات الاربع سراعا الا اذا وقعت فى ورطة كتلك الورطة ، وأبرمت اتفاقا كذلك الاتفاق ، ففى الاشهر الاخيرة من هذه السنوات كان **جابيز ستون** قد اشتهر بين ارجاء الولايات كلها ورشحه الكثيرون لمسند الحاكم عليها ، وما كان ذلك الا كالرماد والتراب بين فكيه ، لانه كان يفكر كلما طلع عليه الصباح يوما قائلا لنفسه : هذا يوم قد مضى واقتربنا الى الموعد ، وكان يقول لنفسه كلما آواه الفراش ليلة : هذه ليلة تنقضى ! وتحضره رؤية المنديل الاسود وروح ستيفنز البخيل تضطرب فيه . حتى برم بهذه الهواجس آخر الامر وعيل بها صبره ، فامتطى حصانه فى الأيام الاخيرة من السنة الاخيرة وركضه الى جانب **دانيال** وبستر ، لان دانيال قد ولد فى **همبشير** الجديدة على مدى اميال قليلة من « **كروس كورنرز** » وعرف عنه انه كبير العطف على جيرته الاقدمين .

ووصل الى **مرشفيلد** فى الصباح الباكر ، ولكن **دنيال** كان قد نهض من فراشه ، وراح يناقش عمال الزراعة ويصارع الكبش «جليات» ويروض جوادا جديدا ، ويستعد بخطاب للرد على **چون كلهون** .. فلما سمع أن قادما من همبشير الجديدة يريد أن يلقاه اخلى نفسه من كل شىء على عادته فى هذه الاحوال ، ودعا **جابيز**

الى مائدة افطار لايقوم بها خمسة من الرجال الاشداء ، واستعاد تاريخ حياة كل رجل وامرأة فى « كروس كوركز » ثم سأل : ماذا يستطيع أن يعمل لخدمته ؟

قال **جابيزستون** : انها قضية رهن ..

ـ حسن .. اننى منذ عهد بعيد لم أدافع فى قضية رهن ، ولست الآن على العموم أشتغل بالقضايا فى غير المحكمة العليا . غير أننى أساعدك فى قضيتك بما أستطيع .

قال **جابيزستون** : اذن يعمر قلبى الرجاء لاول مرة بعد عشر سنين ، وقص عليه قصته باسهاب وتفصيل ..

وجعل **دنيال** يمشى جيئة وذهوبا وهو يستمع اليه، وقد عقد يديه وراء ظهره ، وطفق مرة بعد مرة يطيل النظر الى الارض كانما يثقب اديمها بمثقب . فلما فرغ جابيز من قصته أشرق وجه **دنيال** بابتسامة كالصبح ومال اليه قائلا : لقد أسلمت مقادك حقا **للشيطان** أيها الجار . ولكننى أقبل قضيتك ..

فلم يكد **جابيز** يصدق أذنيه ، وصاح مبتهجا : تقبلها ؟

قال **دانيال وبستر** : نعم . ان عندى نحو خمس وسبعين مسالة أتولاها ، وعندى مسالة التفاهم على مساومة **ميسورى** ، ولكننى ساقبل قضيتك ، فان لم يكن رجلان من **همبشير الجديدة** كفؤا للشيطان فخير لنا أن نترك البلاد للهنود الحمر وننصرف منها ..

ثم صافح **ستون** وهز يده سائلا : أأنت على عجل ؟

قال **ستون** : الواقع اننى عملت حساب الوقت .

قال **دانيال** : وستعود أسرع مما أتيت . وأمر أتباعه بشد حصانه المسمى بالدستور ، وحصانه المسمى بالبرج ، الى المركبة ، وكلاهما رمادى وقائمة من قوائمه الاربع بيضاء .. أما السرعة فتلك سرعة البرق المدهون .

ولست أريد ان أصف كيف عم السرور والابتهاج كل فرد من افراد اسرة **ستون** حين رأوا انهم مستضيفون **دانيال وبستر** العظيم فى دارهم ، وكان الهواء قد اطار قبعة **ستون** فى الطريق، فلم يكترث لذلك ، واذن لاهله جميعا بعد العشاء أن يذهبوا لينا موا لانه سيعمل مع السيد **وبستر** فى شغل خاص، فدعتهما السيدة **ستون** الى الجلوس فى ردهة الاستقبال ، ولكن السيد

وبستر قال انه يفضل الجلوس في المطبخ لانه يعرف ردهات الاستقبال . وكذلك جلسا في المطبخ منتظرين وصول الزائر **الغريب**، وبينهما الابريق على المائدة، وفي الموقد نار لامعة ، وكان موعد مجيئه عندما تؤذن الساعة بمنتصف الليل ...

ومامن أحد يتمنى صحبة هي امتع من الجلوس الى **دانيال وبستر** وابريق . الا أن ستون كان يزداد غما كلما نبضت الساعة نبضة من نبضاتها ، وكانت عيناه تحومان يمنة ويسرة ، ولاتشتهي نفسه قطرة يذوقها من ذلك الابريق الذي عنى بملئه وتحضيره ، فلما دقت الساعة النصف بعد الحادية عشرة مد يده يعتصم بذراع مستر **وبستر** وجعل يناديه : سيد وبستر . سيد وبستر ! . وجعل صوته يرتعش ويتكلف الجرأة اليائسة، ثم قال : بحق **الاله** ... شد حصانيك وانج من هذا المكان بأسرع ماتستطيع ..

قال السيد **وبستر** : انك قد اتيت بي ايها الجار من مكان بعيد كي تقول لي انك لاتستريح الى صحبتي .. !!

قال ذلك ساكن الجاش مقبلا على الابريق !

وعاد **جابيز** يقول بصوت كأنه الانين ، يالي من تعس !

... لقد اقحمتك في حبائل الشيطان ، وها أنا ذا أعرف حماقتي وجهلي . فليذهب بي الشيطان ان شاء حيث يشاء ، فاني أهل لما يصنع بي ، وفي وسعي أن أحتمله ... أما أنت أيها السيد فانك ملاذ هم بشير الجديدة، وحارس الاتحاد ، ولايصح أن يصل اليك .. كلا . كلا . لايصح أن يمد يده اليك !

ونظر **دنيال وبستر** الى الرجل الوجل ، قد احتواه شعاع النار، واستولت عليه الرجفة ووضع يده على كتفه وهو يقول له :

– انني لشاكر لك أيها الجار لطف شعورك . ولكن ألا ترى ان هنا ابريقا لم أفرغ منه ؟ . انني ماتركت عملا قط بدأته دون أن أفرغ منه أيها الصديق !

في تلك اللحظة سمعت دقة عنيفة على الباب ، فقال **دنيال وبستر** ببرود : آه . ادخل ..

فدخل الزائر **الغريب** . ولاح في شعاع النار طويلا بملابسه السود ، ولاح تحت ابطه صندوق أسود تتخلله خروق ، فلما وقعت

عين **جابيز** على الصندوق بدرت منه صيحة خافتة وقبع فى ركن من الحجرة ...

قال **الزائر** بادب جم: أحسبنى أرى السيد **وبستر** !

ولكنه مع أدبه هذا كانت عيناه تلتمعان كالثعلب فى الغاب !

قال **وبستر** : نعم .. وكيل **جابيز ستون**. فهل لى أن أسالك عن اسمك ؟

قال : لقد عرفت بأسماء كثيرة. ولعل اسم «**خربوش**» يلائمنى هذا المساء ، فهو الاسم الذى ادعى به فى هذا الاقليم ..

ثم جلس الى المائدة وصب لنفسه قدحا من الشراب . . وقد كان الشراب باردا فى **الابريق** ولكنه تدفق منه الى القدح كالدخان ..!

واستانف الزائر **الغريب** قائلا وهو يبتسم ويكشف عن أنيابه :

ـ والآن ارجو ـ وانت مواطن تحترم القانون ـ أن تمكننى من حقى ....

وبهذا ابتدأت **المساجلة** ، ولم تزل تحتدم وتعنف كلمة بعد كلمة ....

لقد تعلل **جابيز ستون** ببعض الرجاء فى أول الامر ، ثم لم يلبث أن رأى **دنيال** يتراجع فى نقطة بعد نقطة حتى انزوى الى ركنه ، ولم ترتفع عيناه لحظة عن الصندوق الاسود ، اذ لم يكن ثمة أيسر شك فى مضمون الوثيقة وصحة التوقيع ، وهو أخطر ما فى الموضوع .. !

وطفق **وبستر** يتلوى وينقبض ويقرع المائدة بيده ولا يزيد على ذلك ، وعرض على الزائر **الغريب** أن يصطلحا على المساومة ، فلم يقبل عرضا من عروضه ، وكان من حججه أن البضاعة زادت فى الثمن ، وان شيوخ الولايات يساوون ثمنا أكبر من الثمن المتفق عليه ، فتشبث الزائر **الغريب** بالنص الحرفى ولم يتزحزح عنه قيد شعرة ....

لقد كان **دنيال وبستر** فقيها ضليعا ، ولكننا نعلم من هو فقيه الفقهاء ، كما وصفته الكتب ، فبدا ـ لاول مرة ـ أن **دنيال وبستر** لقى **نده** فى الميدان !

وتثاءب **الزائر** أخيرا وهو يقول :

ـ ان جهودك الحارة لمصلحة موكلك تشرفك ياسيد **وبستر** ،

ولكنك اذا كنت قد استنفدت الحجج التى عندك ولم تبق فى جعبتك حجة تضيفها ، فاسمح لى أن أقول اننى مستعجل !

فاضطرب **جابيز ستون** ،واكفهر وجه **دنيال وبستر** كأنه الغمامة المرعدة ، وصاح بالزائر **الغريب** :

ـ مستعجل أو غير مستعجل ، انك لن تظفر بالرجل . ان السيد ستون رعية أمريكية ، ومامن أحد من هذه الرعية يساق كرها الى طاعة أمير أجنبى ، وقد حاربنا انجلترا فى هذا السبيل سنة اثنتى عشرة ، وسنحارب جهنم كلها مرة أخرى فى هذا السبيل !

وصاح الزائر **الغريب** :

ـ اجنبى ومن قال اننى اجنبى ؟

قال **وبستر** : حسن اذن فاننى ماسمعت قط أن الشيطان تنتمى الى الوطنية الامريكية !

فأجابه الزائر **الغريب** بابتسامة من ابتساماته المخيفة ، وهو يقول

ـ ومن أحق منى بالانتماء اليها ؟ فقد كنت معكم حين حدث اول عدوان على الهنود ، وكنت معكم حين اجتلب أول زنجى من افريقية .. و ... وبعد فهل خلت منى كتبكم وحكاياتكم وعقائدكم من أول الهجرة الى اليوم ؟ اليست سيرتى مقروءة فى كل بيعة من بيع انجلترا الجديدة ؟ نعم ان الشماليين ينسبوننى الى الجنوب ، والجنوبيين ينسبوننى الى الشمال ، ولكننى لست بهذا ولا ذاك ، وانما انا امريكى مخلص مثلك ياسيد **وبستر** . ولست احب أن افخر عليك ، فانما اقرر الواقع حين اقول أننى اعرق منك فى هذه البلاد ..!

وانتفخت العروق فى جبهة **دنيال وبستر** وهو يتحدى الزائر **الغريب** قائلا :

ـ اذن نحتكم الى الدستور ، ومن حق موكلى أن يحتكم اليه ...

قال الزائر **الغريب** :

ـ ان القضية قلما تستحق أن تعرض على محكمة من المحاكم الاولية . والحق اننا قد تأخرنا ، وهذه الساعة ...

قال **دنيال وبستر** فى انفة وغضب :

ـ لتكن ماتكون . انهامحكمةامريكية علىاية حال ، ومحلفون امريكيون . لنكن محكمة الموتى. فاننى واثق من النتيجة ..

ـ لقد قلتها انت !

كذلك كان جواب الزائر **الغريب** ، وهو يومىء بأصبعه نحو الباب ، فاذا بالريح تعزف خارج الباب ، ويسمع معهاوقع اقدام ، ثم اقبلت من الباب اشباح مميزة بأشكالها تحت جنح الليل، ولكنها تخطو فيسمع لمسيرها وقع غير وقع اقدام الاحياء .. !

وصرخ **جابيز ستون** : يالله!من هؤلاء القادمون فى مثل هذه الساعة ؟!

فادركه الزائر **الغريب** منهكما هؤلاء هم **المحلفون** الذين طلبهم السيد **دنيال وبستر** .

ثم رشف من قدحه الملتهب بضع رشفات ، وعاد يقول : معذرة لهم ان قدم منهم واحد اواثنان . لقد كان خليقا بهم ان يقدموا منذ حين ..

وفى تلك اللحظة تلهبت النارزرقاء اللهب ، وانفتح الباب وولج منه اثنا عشر شخصا واحدا فى اثر واحد ..

لئن كان **ستون** قد اسقمه الدهر من قبل ، لقد عمى من الدهر حين بصر بهؤلاء . فقد كان منهم **والتر بتلر « الموالى »** للدولة الانجليزية الذى اثار الخوف واضرم الحريق فى وادى موهاك ايام الثورة ، وكان منهم **سيمون جيرنى** الخائن الذى كان يشهد مصارع البيض فى النار، ويهلل مع الهنود لمرآهم وهم يحترقون ؛ وانك لترى عينيه الخضراوين كأنه القط المستوحش، وعلى قميصه نقيع الدم ، ولكنه ليس بالدم من غزلان الصيد . وكان منهم الملك **فيليب**(١) متجبرا متكبرا كما كان بقيد الحياة ، وعلى راسه اثر الجرح الذى اصماه وارداه ؛ وكان منهم **ديل** الحاكم الفظ الذى حطم عظام الناس على دواليب العذاب ، وكان منهم **مورتون** من **مسرى** مونت الذى ازعج اقليم **بليموث**

---

(١) زعيم تولى قيادة قبائل من الهنود الحمر

بوجهـــه المحمـر ـ المليح ـ وبغضائه للصالحين ، وكان منهم **تيتش** القرعـان الدموى بلحيته السوداء متجعدة على صدره ، وكان منهم الاب المـوقر **جـون سميث** بيديه الخانقتين وجلبابه السويسرى بتمشى برشاقته التى تمشى بها الى المشنقة ، ولمايزل فى عنقه أثر الحبل ، وفى احدى يديه منديله المعطر ..

دخلوا واحدا فى اثر واحد الى الحجـرة ، ولم تزل عـلى وجوههم قترة الجحيم ، وقدمهم الزائر **الغريب** بأسمائهم وافعالهم ولم يكذب فيما عزاه اليهم . فقد كان لهـم جميعـا ادوارهم فى البلاد ..

وسأل الزائر **الغريب** متهكما ، وقد استووا على مقاعدهم :

ـ ايرضيك هـؤلاء المحلفون ياسيد **وبستر** ؟

فتكلل جبين **وبستر** بالعرق ، ولكنه قال بصوت واضح :

ـ راض كل الرضى ... وان كنت لا ارى بينهـم القـائد **ارنولد** ..

قال الزائر الغريب : ان **بنـديكت ارنولد** مشـغول بعمـل آخر ! ..

ثم اسـتطرد قائلا وعينـاه تسطعان بالشرر :

ـ انك تطلب قاضيا فيمـا احسب ، وأشار بأصبعه اشارة اخرى ، فاقبل رجل طوال عليه ثياب المطهرين ، وفى عينيه لمعة التعصب الاعمى يتمشى الى كرسى القضاء ويستوى عليه ..

قال الزائر **الغريب** : ان القاضى **هـاثورن** مطلف مدرب ، تولى رياسة **المحكمـة** التى فصلت فى قضايا السحر بمدينة **سـالم** ، وقد ندم غيره بعد ذلك ، ولكنه معاذ الله ان يندم كمن ندم ..

قال **القاضى** الصارم : أيندم على تلك الفرائض المبجلة ؟ .. حاشا لله . بل الشـنق لهم أجمعين . نعم أجمعين .. وغمغم بينه وبين نفسه بنغمة قارسـة سرت مسرى الثلج المميت فى مفاصل **جايز ستون** ..

ثم بدأت المقاضاة ، ولم يكن فى طوالعها مايبشر المدعى عليه بالخير ، فلم يحفل **جايز** نفسه بشهادة تزكى دعواه ، وارسـل

بصره مرة الى **سيمون جيرتي** فصرخ مجفلا ، وأخذوه الى زاوية الركن ، حيث كان يجلس ، فأجلسوه فى شبه اغماء ..

ولم تتعطل المقاضاة مع هذا، فانتظمت على نظام غيرها من القضايا . وكثيرا ماوقف **وبستر** فى تجاربه الماضية بين أيدى محلفين قساة ، وقضاة غشمة ، ولكنها فى هذه المرة كانت أصعب تجاربه ، ولم يجهلها ..

واستووا هنالك على مقاعدهم، تلتمع أعينهم ، ويسمع امامهم من حين الى حين صوت الزائر **الغريب** الناعم اللين ، يجاب كل اعتراض له بالقول ، ولا يجاب الاعتراض من جانب **وبستر** بغير الرفض والاعراض .. وماذا ينتظر من خيرة يختارها السيد **خربوش** ؟

ثم جاء دور **دنيال** أخيرا ، وقد حميت قريحته كالحديد فى الاتون ، فلما تحفز للكلام ازمع النية على ان يسلخ ذلك الزائر **الغريب** سلخا ، ويعوذ بكل حيلة من حيل القانون لتجريحه وتجريح المحلفين على السواء ، ولم يبال أن يتهم باحتقار المحكمة ، أو بما يصيبه من جراء حملته ، ولم يبال كذلك ما يصيب **جابيز ستون** وانما جن جنونه ولم يفكر فى شىء غير ما ينوى أن يقول ، ومن عجب انه كان كلما فكر فيه شق عليه ان يستجمعه فى ذهنه على وتيرة متلاحقة .. ثم حان وقت النهوض للكلام فنهض على اهبته للابراق والارعاد وصب اللعنات وادحاض الشبهات ..!

وقبل البدء بالكلام جعل يقلب نظره بين وجوه المحلفين ووجه القاضى ، كدأبه فى هذه المواقف ، ولاحظ البريق فى أعينهم ، فاذا به ضعف ما كان ، واذا بهم جميعا متكئون الى الامام ، كأنهم كلاب الصيد قبل عثورها على الثعلب ، وقد تكاثف امامه ضباب الشر فى الحجرة وهو ينتقل بينهم ببصره ويتأملهم واحدا بعد واحد . فوضح له ماهو مقبل عليه، ومسح بيديه على جبينه كما يصنع الرجل قد نجا وشيكا من السقوط الى هاوية فى الظلام.

لقد جاءوا ، فى الحق ، من اجله **هو** ، **لا** من أجل **جابيز ستون**، وعرف ذلك من بريق أعينهم ومن منظر الزائر **الغريب** ، اذ يخفى فمه بيده هنيهة بعد هنيهة ،فلو أنه حاربهم بأسلحتهم لوقع فى قبضتهم ، وكان على يقين من ذلك ، وان لم يكن فى وسعه ان يقول لك كيف سرى اليه ذلك اليقين ..!

لقد كان غضبه وخوفه هما البريق الذى يسطع فى تلك الاعين ، وكان عليه ان يجلوهما أو تضيع الفضية ، فتمهل قليلا وعيناه السوداوان تتقدان كجذوة الفحم الحمراء ، **ثم اخذ فى الكلام ..**

بدا على مهل ، وان كانت كل كلمة من كلماته مسموعة واضحة ، وكثيرا ماكان يقال عنه انه يستنزل معازف الصالحين والملائكة حين يشاء . ولا يكلفه ذلك الا ان يفتح شفتيه .. غير انه لم يستهل مقاله بالثلب والادانة ، وقصره على بيان الامور التى تصبح بها الامة هى الامة والانسان هو الانسان .. وكان استهلاله بتلك البسائط السهلة التى يعرفها كل احد : نضرة الصباح اذ أنت فتى فى مقتبل العمر ، ولذة الطعام اذ انت جائع تشتهيه ، واليوم الطالع الذى هو خلق جديد اذ انت طفل صغير ، .. واستولى عليهم ولوى بهم فى يديه ، وكانت تلك اشياء حسنة مستحبة لكل احد ، ولكنهم بغير الحرية مرضى مهازيل . فلما عرض فى كلامه لاولئك الذين استعبدوا ، وللأخزان التى تجلبها العبودية ، كان لصوته رنين كدق الاجراس . .

وراح يترنم بامريكا ، وبمن صنعوا امريكا . ولم يكن حديث جعجعة من غير طحن ، بل كان حديث الواقع كما تراه ، وكان يسلم وقوع الخطأ حيث وقع ، ولكنه يبين للسامع كيف نما من الخطأ والصواب ، ومن جوع الجائعين وعذاب المضطهدين ، خلق جديد : خلق قد اشترك فيه كل عامل غير مستثنى منهم خونة ولا منكرون ..

ثم استطرد من كلامه الى **جابيزستون** فوصفه بصفاته ، ومثله لهم على مثاله : رجل من سواد الناس طارده نكد الطالع ، فتمنى لو يبدل طالعا أسعد واجدى ، ولهذا التمنى يراد اليوم ان يحل به العذاب الواصب ابد الآبدين ودهر الداهرين . وان **جابيزستون** مع هذا لرجل طيب لا يخلو من جانب خير وصلاح ، ولعله كذلك لايخلو من شدة واسفاف ، ولكنه بعد هذا كله انسان ..

وانه لمن المحزن ان يكون الانسان انسانا ، ولكنه كذلك فخر وكبرياء ، وقد اراكم جانب فخره وكبريائه حتى لا خفاء .

فانه لفى الجحيم نفسه لن يكون الانسان انسانا الا ادركتم ماهو عليه ..

ولم يكن **دنيال** يتشفع لاحد خاصة ، وان رن صوته فى اسماعهم رنين الارغن . انما كان يروى قصة الانسان فى مساعيه وعثراته من أوائل خطاه فى رحلته الابدية ، ومامن شيطان يستشف سريرته فى ذلك الجهاد ، فما تتاح هذه القسمة بمساعيها وعثراتها الا لانسان .

وكادت النار فى الموقد أن تخمد ، وكاد نسيم الفجر أن يهب قبل طلوع الصباح ، ولاحت بواكير النور فى الحجرة حين فرغ **دنيال وبستر** من الكلام ..

لقد عاد بكلماته قبل الختام الى أرض **همبشير الجديدة** ، والى بقعة الارض التى يأوى اليها كل فرد منها ، ولا يهون عليه أن يفرط فيها ، ورسم من كل أولئك صورة موموقة ، فاستعاد لكل سامع من أولئك المحلفين ذكريات طال العهد بنسيانها ، اذ كان من أسرار صوته أن يسلك سبيله الى القلب ، وفى ذلك كل مزاياه وكل قواه ..

كان صوته فى مسمع هذا كالغابة وخفاياها ، وكان صوته فى مسمع ذاك كالبحر وأغواره ، وكان أحدهم يسمع منه صرخة من اعماق مته الغابرة ، وكان غيره يبصر منه منظرا مستحبا لم يبصره منذ حين . الا أنهم جميعا يحسون منه مايحسون ..!

ولم يدر **دنيال وبستر** فى ختام كلامه أكان قد أفلح ام لم يفلح فى انقاذ **جابيزستون** ، ولكنه كان يدرى أنه صنع المعجزة وأطفأ ذلك البريق ، بريق البغضاء فى أعين **القاضى والمحلفين** ، فأصبحوا تلك الساعة أناسى مرة أخرى ، وعلم هو انهم عادوا كما خلقهم الله أناسى من أبناء آدم وحوء ..!

قال **وبستر** : ان الدفاع يستريح ..

وظل قائما هنالك كالطود الاشم : اذناه تتجاوبان بأصداء كلامه ولا تسمعان شيئا آخر غير تلك الاصداء ، الى أن سمع القاضى **هاثورن** يقول :

المحلفون ينفردون للتشاور فى القرار .

ووقف **والتر بتلر** فى مكانه ،وعلى وجهه سرور كاب تخالطه الكبرياء ، وقال :

أن المحلفين قد انتهوا الى قرار ..

ووجه نظرته الى الزائر **الغريب** فى قرارة عينه ، ثم قال :

القرار لمصلحة المدعى عليه **جابيز ستون** » .. !!

واختفت الابتسامة من وجه الزائر **الغريب** ؛ ولم يتلعثم **والتر بتلر** أو يتراجع ، بل مضى يقول :

ـ « .. على انه قرار لعله لايطابق البينات كل المطابقة ، ولكن بلاغة **دنيال وبستر** جديرة بالتحية والاكبار ، حتى من زمرة المنبوذين المنظرين (١) .

وارتفع فى تلك اللحظة صياح الديك يشق سماء الصباح ، وانقشع **المحلفون والقاضى** من الحجرة كما ينقشع الدخان ، فلا اثر ولا خبر . والتفت الزائر **الغريب** الى **دنيال وبستر** يبتسم له عن خبث وخداع ، ويقول :

ان الماجور **بتلر** قد وصف بالشجاعة من قديم ، وماحسبته قط بهذه الشجاعة التى شهدتها الآن ، وعلى كل ياسيد **وبستر** تقبل منى تهنئة الشريف للشريف ...

قال **وبستر** : قبل كل شيء ناولنى من فضلك هذه الوثيقة ومد يده فأخذها ومزقها ،واحسها حامية فى يده لفرط دهشته ... ثم قال :

ـ والآن فانى أقبض عليك انت ، وامتدت يده كأنها الشرك القابض على الوحش ، فقبضت على ذراع الزائر **الغريب** ، ..

ولم يكن يخفى عليه ان الشيطان تنزف قوته اذا انهزم فى نضال على حسب الاصول ، ورأى تلك الساعة أن « السيد **خربوش**» يعرف ذلك أيضا ولا يخفى عليه ..

واخذ الزائر **الغريب** يتلوى ويتملص ولا نجاة !.. وطفق يقول ويحاول الابتسام ، وقد شحب لونه واصفر وجهه :

ـ مهلا مهلا ياسيد **وبستر**.ان هذا الامر مضـ ...مضحك

---

(١) الذين يشبهون ابليس فى انه من المنظرين ـ بفتح الظاء .

.. وانى لاعدك بسداد اجر الدفاع عن طيبة خاطر ، ان كان هذا ماتعنيه ..

قال **وبستر** : نعم ، وانك لفاعل ..

ثم هزه هزا عنيفا حتى اصطكت اسنانه ، وامره ان يجلس الى المائدة فيكتب على نفسه عهدا لايعودن الى مضايقة **جابيز ستون** ولا احد من اهله وتابعيه، ولا احد على الاطلاق من هم بشير **الجديدة** الى يوم الدين .

قال : اننا اذا احتجنا الى هاوية الجحيم فى هذا الاقليم، فنحن صانعوها بأيدينا ، ولا حاجة بنا الى معونة الغرباء ..

وصاح الزائر **الغريب** متأوها : آخ . انهم مادخلوا المصيدة قط سمانا . ولكننى ...موافق !

ثم قعد على كرسيه وكتب الوثيقة ، ويد وبستر آخذة بطوقه لاتفلته ..

قال الزائر **الغريب** : والآن .ايمكننى ان اذهب ؟ ..

قال ذلك فى ذل ومسكنة ،وبعد ان فرغ **وبستر** من مراجعة الوثيقة والتحقق من مطابقتها للاصول ..

واجابه وبستر بعد ان هزه هزة اخرى :

ـ اذهب ! واعلم اننى لازال مفكرا فيما ينبغى ان اعمله معك، فانك قد سددت حساب القضية ولم تسدد بعد حسابك معى ، واحسب اننى ساعود بك الى **مرشفيلد** ، فعندى هناك كبش يناطح الحديد ، وسأطلقك فى حقله وارى ماهو صانع بك ..

عندئذ تقدم الزائر **الغريب** متوسلا متضرعا ، وبلغ من مسكنته فى توسله وتضرعه أنه ألان قلب **وبستر** ، وهو بطبيعته رحيم كريم ،فاذن له بالانصراف ، وبدا على الزائر **الغريب** انه جد شاكر مغتبط بالنجاة ، فأراد أن يعرب عن شكره وامتنانه ، وقال **لوبستر** انه سيخبره الساعة بطوالعه فى المستقبل ، وقبل **وبستر** منه ذلك ، وان لم يكن ممن يصدقون هذه الطوالع ، الآن الزائر **الغريب** يخالفه بداهة فى هذه الخصلة .. !

وتناول الزائر يد **وبستر** يتفحص خطوطها وعلاماتها ، فأنباه بأمور ذات بال ولكنها كانت جميعا من أنباء الماضى ، فقال له **وبستر** :

ـ ذلك كله صحيح . فحدثنا عن المستقبل ان استطعت .

فتهانف الزائر الغريب تهانف الرضى وهز رأسه قائلا : ان المستقبل ياسيد **وبستر** على غيرماتقدر . انه مظلم . وان لك لمطمعا كبيرا ياسيد **وبستر** .

قال **وبستر** بعزم وثبات :نعم لى هذا المطمع الكبير . . وكان معلوما عند الناس جميعاانه يرشح نفسه للرئاسة ..

قال الزائر **الغريب** : انها لتبدو فىمتناول يديك ، غير انك لا تنالها . وسينالها من هم دونكوتعبرك أنت الى غيرك .

قال دنيال : وان يكن فسوف ابقى كما أنا **دنيال وبستر** .. وبعد .. ؟

قال **الزائر** وهو يهز راسه :

ـ لديك ولدان قويان تهيىءلهما طريقا يشقانه الى المجد ، ولكنهما يقتلان فى الحرب ولا يدركانالامل فىالعظمة المنشودة..

قال **وبستر** : يقتلان أو لايقتلان . انهما ـ على كل ـ ولداى .. وبعد .. ؟

قال **الزائر** : انكالقيت بالخطب الطنانة ، وسوف تلقى غيرها.

فلم يزد **وبستر** على أن قال **مستزيدا** : ايه .. !

فمضى الزائر يقول : بيد انالخطاب الاخير الذى سوف تلقيه سيقلب عليك كثيرا من أنصارك، وسينبزونك بالنعوت ، ويزعمون ـ حتى فى انجلترا الجديدة ـ أنك انقلبت على عقبيك وبعت وطنك ، وتعلو اصواتهم عليك الى ان يدركك الاجل المحتوم .

قال **وبستر** : ان كان ماقولخطاب صدق ، فلاعبرة بما يقوله الناس . ثمحدج الغريب بنظره فتقابلت النظرتان ، وسأل **وبستر** بعد ذلك :

ـ اتراني وقد جاهدت فى سبيل الوحدة اعيش حتى اراها وثيقة قوية امام دعاة الفرقة والشقاق .. ؟

فأجابه الزائر **الغريب** :

ـ لن ترى ذلك فى حياتك ، ولكنها قضية مكسوبة ، وستفلح بعد موتك ، ويتصدى الالوفلنسير بها علىنهجك ، ويتمثلون فى جهادهم بكلماتك ..

قال **وبستر** :

– ولم اذن أيها المسخ الشائه تختال وتحتال فيما تهذر به من طوالع الحال ؟

وانفجر مقهقها وهو يفوه بهذه الكلمات . وعاد يقول :

– اغرب من هنا قبل ان ادمغك بسمة لا تمحى . فانني بحق الولايات الثلاث عشرة لاذهبن الى الهاوية نفسها ، لانقذ وحدة الامة . ثم رفع قدمه ليضرب بها **الزائر** ضربة تقتل الحصان المتين ، لولا ان الزائر الغريب هرول هاربا وصندوق التحصيل تحت ابطه ، فلم يصبه الا بطرف الحذاء .

ولمح **جابيز ستون** يتحفز للنهوض مفيقا من اغمائه الطويل فقال :

دعنا نرى ماذا بقى فى **الابريق** .. فان الكلام طول الليل يجفف الحلوق ، وارجو ان ننعم بقطيرة لذيذة فى طعام الصباح أيها الجار .

ومنذذلك اليوم يمر الشيطان **بمرشفيلد** ، فيزور عنها متجنبا ، ولم يشاهد بعدها يوما فى ولاية **همبشير الجديدة** ...

ولست أتكلم عن **مساشوست** او **فرمون** .. !

المعاصرون العالميون

كتاب القصة الصغيرة العالميون كثيرون بين الامريكيين ، ولكن أشهرهم بين أبناء القرن العشرين ثلاثة ، كلهم ولدوا فيه أو قبله بنحو سنتين ، وكلهم يتناول بالقصة الصغيرة مسائل كبرى تعم بنى الانسان ، ولاتخص البيئة الامريكية عامة أو البيئة الامريكية فى أقليم من أقاليمها ·

هؤلاء الثلاثة هم **فولكنر** المولود سنة ١٨٩٧ **وهمنجواى** المولود سنة ١٨٩٨ **وشتينبك** المولود سنة ١٩٠٢ ، فهم جميعا كما تقدم من ناشئة القرن العشرين ·

***

ولد **وليام فرنسيس فولكنر** فى **أكسفورد** بولاية **مسيسبى** من ولايات الجنوب ونشأ فى أسرة زراعية خملت بعد نباهة وثراء ، فلم ينتظم فى التعليم ، وتغير اتجاهه بين الصناعات غير مرة فى تعليمه الاول ، فلما نشبت الحرب العالمية الاولى تطوع فى فرقة الطيران الكندية ، ثم قاتل فى الميدان الفرنسى مع فرق الطيران الانجليزية ، ثم عاد الى وطنه بعد الحرب ، فحضر بعض الدروس فى الجامعة نحو سنتين ، وعمل كاتبا بمصلحة البريد من سنة ١٩٢٢ الى سنة ١٩٢٤ ، نظم فى خلالهما الشعر ، وأصدر ديوانه الاول واتجه الى كتابة القصة ، فكانت قصصه الاولى سيرة محلية متتابعة تتمثل فيها أحوال الاسر المتداعية من زراع الجنوب ···

وليس من الحق أن تنسب شهرة **فولكنر** الى سبب واحد ، أو الى أسباب عدة محلية من الاسباب التى تعنى أبناء الاقاليم الجنوبية دون سواهم ، فالواقع أن موضوعات **فولكنر** هى موضوعات القرن العشرين جميعا ، وان كانت بيئتها محصورة فى أقليم واحد · فقد شغل القرن العشرون فى العالم بمشكلة العصبية العنصرية

وتفاوت الاقوام بحسب الاصول البشرية ، وشغل كذلك بمسالة الجنس ودراسة عوارضه من الوجهة النفسية ، وشغل بمسالة الجريمة وطبيعة الانسان أمام نوازع الفطرة ودواعي المجتمع ، وشغل بكيان الاسرة ومتاعب الثروة في بيئات الزراعة والصناعة ، ومايلازم كل بيئة من ضرورات الاقتصاد والاجتماع . وهذه الشواغل جميعا تعرض لفولكنر في قصصه الصغيرة وملاحمه الكبيرة بغير قصد الى الدعاية أو لشرح المذاهب والآراء من طريق الحوار والتعليق . فمزية **فولكنر** الكبرى أن مشكلة الحياة عنده « **انسانية** » ملازمة لطبع الانسان وكيانه ، فردا متشابها أو متقاربا في كل مجتمع وكل حقبة . وقد منحته لجنة نوبل جائزتها عن سنة ١٩٤٩ وقالت عن سبب اختصاصه بها انها تمنحها اياه « لقوته واستقلاله الفني ... » وقال هو في خطابه الذي القاه عند تسليمه الجائزة ان « **العاطفة الانسانية** » هي مدار كل عمل باق من أعمال الفنون .

نشأ **فولكنر** شاعرا كمعظم أدباء الجنوب في نشأتهم ، ثم اصطدم خياله بغاشية من اليأس ، وراعته رذائل العيش وجرائمه ، فصورها كما هي غير ملطفة بمس الرجاء أو مغالطة الفكر والشعور . الا أنه قد ثاب الى شيء من الثقة بالانسان ، كما يؤخذ من خطابه في لجنة نوبل ، ومن مضامين كلامه في « الصلاة على روح راهبته » ... وخلاصة ما ثاب اليه أن الانسان جدير أن يتغلب ، وليس قصاراه أن يصبر ويبقى ، وأنه يبلغ سلام الروح من طريق الألم والمحنة ، وجملة قوله « انني أرفض أن أتقبل نهاية الانسان .. » .

قال الكاتب الفرنسي **مارسل ايميه Aymé** في فصل كتبه عما يراه القراء الفرنسيون في **فولكنر** : في هذا البلد ، حين يصف كاتب متدين مثل **مورياك** صورة الآلام الانسانية القانطة ، ترى أن الابطال حل بهم البلاء لانهم لم تحضرهم بركة الله ، وأن الالوان أمامك قاتمة حالكة في واقع الحياة . ان الله على العموم غائب من تلك المشاهد في رواياته . أما في قصص **فولكنر** فالأمر على خلاف ذلك ، كلما تجسمت القسوة والشناعة وسفك الدم في تصوير أبطاله ، كان الشعور بوجود الله أمس وأدنى .. »

***

أما زميل **فولكنر** في الشهرة العالمية - **أرنست ميلر همنجواي** - فقد ولد بولاية **الينواز** وتعلم بمدارسها ، وانتظم في سلك التعليم الى الدراسة الجامعية ، واشترك في الحرب العالمية الاولى

مع فرقة الاســـعاف ، ومارس الصحافة وكتابة القصة الكبيرة والصغيرة ، وتطوع لتأييد الجمهورية فى حرب أسبانيا الاهلية ، ونال من التقدير ما لم ينله كاتب قط فى مثل سنه ، فكتب النقاد والمعجبون عنه المصنفات المطولة ، يعلقون بها على سيرته وأسلوبه وسمات فنه وموضوعات قصصه .. والراجح فى رأينا أن **همنجواى** يعجب قراءه ونقاده بقدوة شخصه فوق اعجابهم بجودة فنه ، وانه اتخذ فى حياته مثالا يفتدى به كل امرىء عالج أن يحل مشكلة الحياة بالفكر فلم يجد لها حلا حاسما يركن اليه بكل عقله وضميره . وقد يقال عنه انه حل مشكلة الحياة بالرياضة الدائمة ، وهى عندى تشمل حركة النفس وحركة الجسد ومذاهب العرف والاخلاق . فكن « **رياضيا** » فى سلوكك ولا عليك بعدها أن تهتدى بفكرك الى الحل الذى يبطل فيه الخلاف ، وخالف ان شئت من شئت ، ولكن كما يختلف الرياضيان ، فلا يتطلب أحدهما من نفسه أن يكون على الحق كله ، ولا يتهم خصمه انه يستأثر بالخطأ كله .. وليس معنى ذلك أن **همنجواى** لا يفكر ولا يستخدم فكره ، وانما معناه أنه يعتمد على الفكر فيما يمكن عمله ، وفيما يترجمه بفعله ، حركة أو عاطفة أو لعبا تراض به النفس على نشاطها ، ولا يجدى فى عرفه أن تتطلب من الفكر غاية وراء هذه الغاية . وحياته كلها تطبيق لهذا المذهب ان صح فيه أنه مذهب يضاف الى المذاهب الفكرية ، فهو يخرج للصيد ويصارع الثيران ، ويطارد السباع فى أدغال أفريقية ، ويجوب البحار والسهوب ليتمرس بمصارعة العناصر ومصارعة الحيوان ، ويجعل عمله كله رياضة ، كما يجعل رياضته عملا حيثما استطاع . وهذه خطة جرى عليها منذ شبابه ، ومكنته من الجرى عليها قوة الحيوية فى بنيته ، ثم كادت تصبح عنده « دينا » بعد أن تمرس بمشكلات الحياة .

ومما لاشك فيه ان أسلوبه الكتابى من أسباب الاقبال على مطالعته واستحسان فنه كيفما كان الموضوع .

ويأتى ثالث هذين نمطا مخالفا لكل منهما فى أدبه ووجهته وسيرة حياته ، فليست آفات النفس ورذائل المجتمع هم « **شتينبك** » وهجيراه فى قصصه **كفولكنر** ، ولا هو ممن يغرقون شكوكهم وقضاياهم العقلية فى دوامة من الحركة الرياضية

كهمنجواى ، ولكنه يكتب احيانا ليصلح كما صنع بروايتيه «عناقيد الغضب والمعركة المريبة ، وكلتاهما كان لها اثر عاجل فى انصاف العمال المهاجرين **بكليفورنيا** ، ويكتب احيانا ليثير الثائرة على طغيان الفتح والاستبداد كما صنع بروايته « القمر ينزل » التى حيا بها الامة النرويجية فى مقاومتها للسيطرة النازية.. وابطاله كلهم ارضيون واقعيون تتساوى عنايته بهم على اختلاف الطبقات . وهو مع مساهمته فى تأييد بعض المذاهب ومقاومة بعضها لايذهب الى حد الاستغراق والحصر ، سواء كان من المناصرين أو المنكرين . وقد زار روسيا واصطحب معه مصورا خاصا لالتقاط المناظر والشخوص ، ثم كتب رحلته فلم تعجب انصار المذاهب ذات اليمين ولا ذات اليسار ، وكتب فى ختامها يقول ان اليسارى يحسبها حملة على روسيا ، واليمينى ، يحسبها تشيعا لها وتعصبا على ماعداها ، ولابد ان يقال فيها شىء كهذا لانها سطحية . اما خلاصة القول فى الروسيين فهم ناس كسائر الناس ، بينهم اشرار ولاريب ، ولكن الطيبين من جمهرة الشعب أكثر من الاشرار.

وربما كان من اسباب القبول الذى يناله بين القراء انه يروى الحسن كما يروى القبيح ، ويصور خشونة الحياة وفظاظتها كما يصور طيبها ورفاهتها ، ويحتفل ببلاغة التعبير أحيانا ، ويجنح به الى مسحة من الرمزية احيانا أخرى . وقد يكون الاعجاب به وبزميليه علامة على وجهة واحدة فى تفكير قرائه واحاسيسهم ، فان الاعجاب بهم جميعا دليل على افلاس الدعوة الى مذهب واحد من المذاهب التى تحاول حل مشاكل المجتمع وتفسير الغاز الحياة . **وشتينبك** على الخصوص يثبت الالغاز كما هى ويزينها بالجانب الفكاهى والجانب الساذج على الفطرة فى شخوص رواياته وابطال رحلاته ، ومنهم من يتكرر فى سلسلة من القصص الصغيرة ، كالصبى الفلاح **جودى** بالاعيبه وثرثرته وفضوله ، فيمثل للقارىء صورة من صور الناشئة الريفية يكاد يلتقى بها فى كل مكان .

ولد **جون ارنست شتينبك** **بكليفورنيا** سنة ١٩٠٢ ، وتعلم بجامعة **ستانفورد** على غير انتظام ، واستطاع بكتابته القصصية والصحفية ان يكون اقليميا وامريكيا وعالميا فى وقت واحد

لانه نظر الى مسائله من زاوية العطف الانسـانى ولم يقيدها بحدود الاقليم والساعة ، وان كانت ازمات الكساد مدار حملة الاصلاح التى شغلته فى اكثر من رواية كبيرة واكثر من قصة صغيرة .

وقد اشتهر فى العالم غير هؤلاء الثلاثة من الكتاب الامريكيين طائفة كبيرة من الادباء ، ولكن هؤلاء الثلاثة فى باب القصة الصغيرة « تشكيلة » كافية تحيط بكل متجه ملحوظ فى العهد الاخير ؛ وهم الطرف الآخر الجدير بأن يقابل فى هذا العصر طرف الرواد والاقطاب من امثال **ارفنج وبوومارك توين ودربزر** من أواسط القرن التاسع عشر الى اوائل القرن العشرين .

وردة لأميلى

بقلم وليم فولكنر

A Rose For Emily

(١)

لما توفيت السيدة **اميلى** جريرسون خرج لتشييعها عامة اهل المدينة . قام الرجال بهذا الواجب بعامل المحبة والاحترام لذلك الاثر الذى طوته يد المنون. وتبعهم النساء غالبا بعامل الفضول لاستطلاع منزلها من الداخل ، ذلك المنزل الذى لم ير فيه أحد منذ عشر سنوات ..اللهم الا خادما عجوزا يجمع فى هذا البيت بين مهنة البستانى وعمل الطباخ .

كان منزلا كبير الاركان مربع البنيان يخيل اليك انه كان فيما مضى متألق الجنبات ، تزينه القباب والطنف ذوات الابراج على طراز القرن السابع عشر . وقد اقيم فى شارع كان يعد من اهم شوارع المدينة. الا انه قد طغت عليه الآن حظائر السيارات ومحالج القطن ، وعفت على كل ما فيه ،حتى تلك العناوين الفخام التى كانت تحل فى ذلك الجوار..ولم يبق غير منزل السيدة **اميلى** الذى ظل قائما على رغم البلى فى اصرار وعناد بين مركبات القطن ومضخات البترول : قذى بين اقذاء ...وهاهى السيدة **اميلى** قد رحلت من هذه الدار لتلحق بمن سلفوا من أصحاب تلك العناوين الفخام ، وهم رقود فى مقابرهم تحت أشجار الصنوبر الساحرة ، حيث مثوى جنود الاتحاد الامريكى الذين لاقوا حتفهم فى معركة **چيفرسون** ...

كانت العناية بالسيدة **اميلى** تقليدا وواجبا وضربا من الرعاية، وفرضا يتوارثه الناس فى المدينة منذ عهد **الكولونيل سرتوريس** ذلك الحاكم الذى اصدر امره ذات يوم عام ١٨٩٤ الا تخرج الى

الطريق امراة من الزنوج بغير ميدعة ، وظل يعفى أميلى من الضرائب ويصرف لها معاشا منذمات ابوها ، وماكان معنى هذا ان السيدة اميلى تتقبل الصدقة.. كلا . بل كان **الكولونيل سرتوريس** قد ابتدع قصة ليفهم الناس أن والد السيدة **أميلى** سبق فاقرض المدينة قرضا وانها تختار هذه الطريقة لسداده .. ولم يكن لينخدع بهذه القصة غير رجل من ذلك الجيل الذى عاش فيه **الكولونيل سرتوريس** ولم يكن ليصدقها من النساء غير امراة واحدة ...

فلما انصرم ذلك الجيل وجاء بعده جيل له أفكاره وآراؤه ، وتغير الحكام ومشايخ البلاد ، ظهر بعض التذمر من جراء هذا التدبير ، فانفذ اليها رجال الادارة فى بدء السنة اعلانا يطالبونها بالضرائب . وحل شهر فبراير ولم يظفروا منها بجواب . فارسلوا اليها خطابا يستدعونها الى مكتب الحاكم فى الوقت الذى يلائمها . فلما انقضى أسبوع كتب اليها الحاكم نفسه يطلب اليها الحضور لمقابلته ، فاذا لم تستطع وتعذر عليها الحضور فانه يرسل اليها مركبته . فجاءه ردها وهو مكتوب بحبر باهت على ورقة قديمة ، وفحواه انها لم تعد تستطيع الخروج ، ثم أعادت الاعلان دون ان ترد على مافيه.

دعوا الى عقد اجتماع لشيوخ البلدة ، فانعقد وتقرر أن يذهب اليها مندوبون منهم ... فلما طرقوا بابها الذى لم يعبره قط احد منذ انقطعت عن اعطاء دروسها فى نقش الخزف قبل ثمانى اوعشر سنوات ، أدخلهم الزنجى الهرم الى ردهة مظلمة تفضى الى سلم يؤدى الى مكان اشد ظلمة .. وكانت تتصاعد هنالك رائحة الغبار والعفن ، ومن ثم قادهم الى قاعة الاستقبال ، وهى مفروشة باثاث ثقيل مغطى بالجلد . فلما فتح الزنجى شراعة احدى النوافذ ظهر لهم ما فى هذا الجلد من التشقق ، فما كادوا يجلسون عليه حتى تصاعد عليهم التراب ، واخذت ذرات منه تطوف وسط الشعاع الوحيد الذى بدا من النافذة . ثم ظهر أمام الموقد صورة على حمالة مذهبة للسيد والد **أميلى** .

فلما دخلت السيدة **اميلى** نهضوا واقفين : سيدة قصيرة ممتلئة فى ثياب الحداد ، تتدلى من عنقها سلسلة سميكة من

الذهب ، وتتوكا على عصـــا من الابنوس متوجة برأس من الذهب، وكان هيكل جسمها ضئيلا حتى ان مانعد بدانة فى غيرها يعـــد افراطا فى السمن بالنسبة اليها. وقد بدا جسمها منتفخا كأنما القى زمنـــا طويلا فى ماء راكد ،وكان لونها شاحبا ، .. وعيناها الضائعتان فى غضون وجههـــا الممتلىء ، كقطعتـــين صغيرتين من الفحم ركبتا فى كتلة من العجين، تتنقل بهما من وجه الى وجه ، وهم يشرحون لها رسالتهم التى أوفدوا لتبليغها ...

لم تدعهم الى الجلوس ولكنها وقفت بالباب واصغت فى هدوء الى أن انتهى متحدثهم من حديثه. وقد استطاعوا أن يتسمعوا دقات ســـاعتها وراء سلسلتها الذهبية .

قالت وفى صـــوتها جفاف وبرودة : ليس على ضرائب فى **جيفرســـون** ، بهـذا اخبرنى **الكولونيل سرتوريس** ، ولعـل احدكم يرجع الى سجلات المدينة، ويقنعكم بما يجده هنالك .

ـ ولكننا فعلنـــا . ونحن السلطة التنفيذية فى المدينـــة ياسيدة **اميلى** .. الم يصل اليك اعلان بذلك من الحـــاكم موقع عليه بخاتمه ؟

قالت الســـيدة **اميلى** : اجل لقـد تسلمت ورقة ممن يعتبر نفسه الحاكم ... ومع ذلك ليس على ضرائب فى جيفرسون !

ـ ولـكن ليس فى ســـجلاتنا مايدل على ذلك كمـــا ترين ، ويجب ان نذهب الى ...

ـ ليس على ضرائب فى **جيفرسون** ، ويمكنكم ان تسالوا فى هذا كولونيل سرتوريس !

ـ ولكن ياسيدتى **اميلى** ، ان **كولونيل سرتوريس** قضى نحبه منذ عشر سنوات !

ـ ليس على ضرائب فى **جيفرســـون** على كل حال ! ثم ظهر الزنجى فأومأت اليـه أن تقدم هؤلاء السادة الى الباب

(٢)

وهكذا تغلبت عليهم بخيلهم ورجلهم كما تغلبت على آبائهم منذ ثلاثين سنة فى امر الرائحة، بعد موت أبيهـا بعامين وبعد ان هجرها حبيبها بأيام قليلة .. وكنا نعتقد جميعا انه سيتزوجها

لقد كانت بعد موت ابيها لاتغادر منزلها الا فى القليل النادر، وقل ان رآها احد بعد ان رحل عنهـا عشيقها . فـكان بعض السيدات يجـازفن ويعرين عن رغبتهن فى زيارتهـا ، فلم يكن يسمح لهن بالمقابلة . وقد خلا هـذا المنزل من كل علامة من علامات الحياة ، الا ذلك الزنجى الذى كان شابا صغيرا فى ذلك الوقت ، يدخل ويخرج وفى يده سلة السوق .

كانت السـيدات فى دهشة حينما انتشرت هـذه الرائحة الكريهة من بيتها ، وكثيرا ماقلن : ان اى رجل يستطيع ان يقوم بتنظيف المطبخ ، وهـكذا كانت تلك الرائحة حلقة اتصـال بين الدنيا الصاخبة اللاغبة وبين الاعزاء من آل **چيرارسون** .

وشكت سـيدة من الجيران الى القـاضى **ستيفنسون** حاكم المدينة ـ شـيخ فى الثمانين ـ فقال لها : « وماذا تريدين ان افعل يا سيدتى ؟ »

قالت السيدة : تأمرها ان تزيل هـذه الرائحة . اليس ثمة قانون ؟

قال القاضى : لا ضرورة لذلك فيما أرى، ولعله ثعبان أو جرذ قتله الزنجى وتركه فى الفناء . وساخاطبه فى ذلك .

وفى اليوم التالى تلقى شكويين أخريين احـداهما من رجل جاء يسترحم وهو متردد ، وقال : « حقا اننا يجب ان نعمل شـيئا فى هذه الرائحة يا سيدى القـاضى »

فأجابه اننى آخر انسـان فى العـالم يقـدم على ازعاج السيدة **أميلى** ، الا أننا نستطيع أن نعمل شيئا ..

واجتمعت فى تلك الليلة هيئة ـ شـيوخ المدينة ـ وهم ثلاثة من ذوى اللحى البيضاء ، ورجل اقل سنا ممن ينتمون الى الجيل الجديد .

قال : من السهل علينا ان نرسل اليها امرا اداريا بأن تنظف

منزلها ونعين لها وقتا لتنفيذ ذلك ، والا . .

وقال القاضي : « بئس ذلك الرأى يا سيدى .. ايجوز ان نخاطب سيدة ونواجهها بتهمة الرائحة الكريهة ؟ »

وفى الليلة التالية اقتحم اربعة من الرجال عند منتصف الليل حديقة السيدة **اميلى** وانسلوا الى داخل المنزل كاللصوص ، يتشممون الرائحة فى الطرق والممرات ، ومن النوافذ المطلة على مخازن الطعام ، وأحدهم يبذر مادة مطهرة من حقيبة معلقة على كتفه ، وانطلقوا الى باب المخزن فرشوا به مقدارا من الجير وكذلك صنعوا بسائر مبانى المنزل من الخارج . وقد ظهر بصيص من النور من نافذة كانت مظلمة ، وبدت وراءها السيدة **اميلى** ماثلة كالدمية بغير حراك وانسلوا من الحديقة بهدوء الى ظلال شجر الخروب المصطف على طول الطريق ، وقد اختفت الرائحة بعد اسبوع او اثنين .

كان هذا والناس يأسون لحالها فى الحقيقة . ويذكر اهل بلدتنا كيف جنت خالتها السيدة **ديات** . وكانت تعتقد ان آل **جيرارسون** يترفعون كثيرا لما كانوا عليه من سمو المكانة ، وان احدا من الشباب لا يستحق ان ينال يد السيدة **اميلى** وأمثالها . وكنا منذ زمن نراهم فى لوحة مصورة تبدو فيها السيدة **اميلى** رشيقة القد الى جانب أبيها ، وهو شيخ ضامر قد اسند ظهره اليها وحمل فى يده سوطا ، وكأنما الباب من خلفهما اطار لتلك الصورة ، ولكننا جعلنا نقول فى انفسنا : انها حتى مع الجنون الوراثى فى الاسرة ما كانت لتوصد الباب فى وجه كل فرحة لو أتيح لها ان تتمها !

فلما مات ابوها وجدت انه لم يبق لديها غير المنزل ، وارتاح الناس شيئا ما الى هذا المصير ، ولكنهم استطاعوا ان يشعروا نحوها بالشفقة اذ كانت قد تخلفت وحيدة معوزة ، فاصطبغت عندهم بالصبغة الانسانية . انها الآن تهتم بسحتوت يزيد أو سحتوت ينقص ، شأنها فى ذلك شأن سائر الناس من المكدودين والفقراء .

وفى اليوم التالى تهيأ جميع السيدات للذهاب الى المنزل لتقديم عزائهن ومعونتهن جريا على العرف والعادة . فاستقبلتهن السيدة **اميلى** على الباب بملابسها اليومية ، وليس على وجهها

اثر من امارات الحزن . وقالت لهن ان اباها لم يمت ، وظلت على ذلك ثلاثة ايام لم ينقطع فى خلالها وفود القساوسة والاطباء يحاولون اقناعها بوجوب التصرف فى الجثة . وانهم ليهمون باللجوء الى سلطان القانون واستخدام القوة اذا هى تتراجع ، وتأذن لهم أن يدفنوا اباها على عجل !

ولم نقل آنئذ انها مجنونة ، بل اعتقدنا انها خليقة ان تصنع ذلك اذ كنا نذكر كل اولئك الفتيان الذين طردهم ابوها وعرفنا انها وقد صفرت يداها من كل شىء ستعلق بذلك الخطيب الذى غرر بها كما يفعل سائر الناس .

(٣)

مرضت برهة ، فلما رايناها بعد ذلك اذا هى قد قصت شعرها وعقصته على زى الفتيات الصغيرات ، متشبهة بسمات الملائكة المرتسمة على نوافذ الكنائس الملونة ، يجللها الحزن والوقار .

وكانت المدينة قد اتمت الاتفاق على رصف الطرق ، وقد بدىء العمل فى الصيف بعد موت ابيها . وجاءت شركة المقاول الذى قام بهذا العمل بالزنوج والبغال والآلات البخارية ، على رأسهم رجل يدعى **هومر بارون** : رجل ضخم الجسم اسمر البشرة غليظ الصوت عيناه سمراوان اخف من سمرة وجهه ، وكان صغار الصبيان يتوافدون زرافات ليروه وهو يسوق الزنوج وبنهرهم ، وهم يغنون مع حركة المعاول صاعدة هابطة !

وسرعان ما تعرف الى الناس فى المدينة . وحيثما سمعت الضحكات تجلجل متتابعة فى الحى ، فهى ضحكات **هومر بارون** بين رفاقه . ثم اصبحنا فاذا بنا نراه والسيدة **اميلى** يخرجان فى نزهات الاصائل ايام الاحد تسير بهما مركبة خفيفة ذات دواليب صفراء تجرها الجياد !

عمنا الفرح بادىء الامر لان السيدة **اميلى** قد ظفرت بشىء من التسلية ، وقال سائر الناس : « ان سيدة من آل **جيرارسون** بطبيعة الحال لن تفكر تفكيرا جديا فى رجل شمالى يعمل بقوت

يومه» ، الا أن أناسا ممن هم أكبر سنا كانوا يقولون : « ان الحزن لا يصح ان يجعل سيدة تنسى الكرامة والعرف وتتجاهلهما » ! وينتهى بهم القول الى ان السيدة **اميلى** يجب أن يزورها أقرباؤها، فان لها اقرباء فى « **الباما** » قد قاطعهم ابوها من جراء ضيعة السيدة **ديات** ـ تلك المراة المجنونة ـ فلم يعد ثمة اتصال بين العائلتين حتى انهم لم يحضروا جنازته ...

وما يكاد الرجال المتقدمون فى السن ينظرون اليها ويقولون : « يا للمسكينة **اميلى** ! ! » حتى يتهامسوا ويقولوا : « أتظنونها كذلك ؟ لاشك انها كذلك . . وماذا تكون غير ذلك ؟

ولا يفتأون يقولون : « يا للمسكينة **اميلى** ! ! » وهم فيما كانوا فيه ، وحفيف الديباج المخمل المقصب خلف الستائر المغلقة التى تحجب شمس الاصيل يوم الاحد ، والركب يجد، وحوافر الخيل تدوى فى الطريق : يا للمسكينة **اميلى** ! !

ذلك وهى لا ترى الا رافعة الراس حتى فى حين كنا نرثى لحالها ، كأنما تتقاضى الناس فوق ما تعودت ان تتقاضاه من قبل ـ كرامة تجدر بسلالة آل **جيرارسون** .. كذلك كانت ترى حين اشترت سم الزرنيخ ، وكذلك بعد ان مضى عام وهم يقولون : « يا للمسكينة **اميلى** !! » وفى زيارتها يومئذ اثنان من اولاد عمومتها .

قالت للصيدلى : « اريد سما » ، وكانت اذ ذاك قد جاوزت الثلاثين : هيفاء انحف من المالوف، لها عينان سوداوان متكبرتان فى وجه مشدود البشرة ، كأنما تانك العينان قد ركبتا فيه على مثال العيون التى تلمحها فى وجوه حراس المنارات ...

ـ قالت : أريد سما ...

ـ اجل يا سيدتى **اميلى** . واى نوع تريدين ؟ الأجل الفئران وما شاكلها ؟ اننى محضره اليك.

ـ اريد احسن ما لديك . ولا أسال عن النوع .

واخذ الصيدلى يعدد لها اسماء شتى .. ان هذه الاصناف تقتل ما تشائين وان كان فيلا . . . ولكن ما هو النوع الذى تريدين ؟

قالت السيدة **أميلى** الزرنيخ ،أليس هذا نوعا جيدا ؟ :

ـ الزرنيخ ؟ اجل يا سيدتى ، ولكن ماذا تصنعين به ؟

ـ اريد زرنيخا !

وأخذ الصيدلى ينظر اليها وهى تنظر اليه وقد نصت اليه وجهها كالعلم ، فقال :

اذا كان هذا طلبك فان القانون يفرض علينا أن نسالك ماذا تصنعين به ؟

ولم تزد السيدة اميلى على أن نظرت اليه محملقة . وأمالت رأسها كأنها تريد أن تتمكن من مواجهته عينا لعين ، حتى مال بنظره عنها ومضى فى احضار الزرنيخ ، ثم أرسله اليها مع الزنجى الذى يوزع الطلبات على أصحاب المنازل .

ولما فتحت الورقة التى لف فيها السم وجدت مكتوبا على الصندوق تحت علامة الجمجمة والعظام « سم فيران » .

قلنا بعد يوم انها تريد أن تبخع نفسها ، وخيرا ما تفعل .. اننا كنا نقول حينما رأيناها أول مرة مع **هومر بارون** انها ستتزوجه ، ثم قلنا « انها تحاول أن تقنعه لان **هومر** نفسه قد صرح بأنه لا يهوى النساء ، وكان معروفا عنه أنه ينادم صغار الشبان فى « نادى الوعل » ، ثم عدنا فقلنا : « يا للمسكينة **أميلى** ! » وهى تمر خلف الستائر فى المركبة اللامعة عصر يوم الاحد . وكانت السيدة **اميلى** رافعة الرأس **وهومر بارون** يضع على رأسه قبعة عالية وفى فمه سيجار ، والعنان والسوط فى يديه ، يغطيهما قفاز أصفر .

أخذ النساء يقلن : « هذا عار على المدينة ومثل سيىء لشبابها . أما الرجال فلم يشاءوا أن يتعرضوا للامر . الا أن النساء قد أرغمن القسيس على أن يستدعيها اليه ، لان أسرة السيدة **أميلى** كانت من أتباع الكنيسة الرسولية ، فاستدعاها ، ولم يشأ أن يفضى بشىء مما دار بينه وبينها ، ولكنه رفض مفاتحتها مرة أخرى . فلما جاء يوم الاحد التالى خرجا فى المركبة وطافا فى شوارع المدينة ، فكتبت زوجة القس غداة ذلك اليوم الى أسرة السيدة **اميلى فى الباما** .

هكذا رأينا اقرباءها يعدن الى المنزل مرة ثانية ،وتريثنا لنعرف ماذا سيكون . فلم يحدث شيء ما بادىء الامر . ثم كنا على يقين بأنهما سيتزوجان لامحالة، وقدعرفنا ان السيدة **اميلى** كانت قد ذهبت الى بائع الجواهر وطلبت بعض ادوات الزينة الفضية من لوازم الرجال ، وعلى كل قطعة منها حرفا هـ . ب . ثم اشترت بعد يومين جهازا كاملا من ملابس الرجال ومنها قميص للنوم ،وقلنا حينئذ: «لابد انه قد تم زواجهما» ، وكنـــا مسرورين بذلك فعـلا . لان ابنتى عمهـا كانتا احرص منها على رعاية العرف والسمعة ، ولم ندهش حينمـا رحل **هومر بارون** من المدينة على اثر فراغه من رصف الشوارع . وخاب ما كنا ننتظره من ثوران زوبعة القيل والقال بالبلدة . الااننا اعتقدنا انه انما ذهب ليستعد لاستقبال الســـيدة **أميلى** أوليعطيها فرصة تتخلص فيها من ابنتى عمها (وكان هنـاك تآمر بينهما على السـيدة **اميلى** التى كنا نناصرها جميعا) ، ثم تأكدنا فيما بعد أنهن غادرن منزلها بعد ان قضين به اسبوعا آخر .

قفل الى المدينة **هومر بارون** كما كنا نتوقع بعد ثلاثة أيام ، وابصره احـد الجيران وراء الزنجى يقـوده من باب المطبخ فى غبش المساء .

ثم كان آخر عهدنا **بهومر بارون** وكذلك بالسيدة **اميلى** فترة من الزمن كان الزنجى يدخـل خلالها ويخرج من المنزل والباب مغلق من آن لآخـر ، ومن آن لآخر كنا نراها تقف لحظـة فى النافذة كما فعلت عنـدما كان الرجال يلقون الجير . ولقـد ظلت ستة اشهر محتجبة لاتظهر فى المدينة . وكان هذا هو المنتظر كأنما كانت خصلة ابيهـا التى عطلت حياتها الانثوية ورائة اقوى من ان تموت فى جوانح سليلته ... !

فلما وقع نظرنا على السيدة **اميلى** اول مرة بعـد ذلك كانت قد سمنت وشاب شعرها ، وازداد الشيب مع السنين حتى صار كما يقولون فى لون الملح والفلفل وثبت على ذلك .

وحتى وهى فى الرابعـة والسبعين من عمرها عندما وافاها الاجل كان شعرها قويا حديدى اللون اشـبه ما يكون بشعر الرجال الاشداء .. !

ومنذ تلك الآونة لبث الباب الامامى مغلقا الاخلال ايام ستة او سبعة

لايرى مفتوحا ، الافترة من الزمن حين بلغت الاربعين ، وقد كانت في تلك الايام تعطى دروسها في نقش الخزف وتتخذ لها مرسما في حجرة من حجرات الدور الارضى حيث كانت بنات الخاصة من كريمات **جيل** الحاكم وحفيداته يزرنها بانتظام في المواعيد التى كن يراعينها في زيارة الكنيسة ايام الآحاد ومعهن قطعة من ذوات ربع الريال لطبق الهدايا .. وظلت الى ذلك الحين معفاة من الضريبة ..

وتولى الجيل الجديد شئون البلدة ، ونما التلميذات وكبرن ، فانقطعن عن الدروس ولم يخلفهن أحد من أطفالهن ليذهب اليها بصناديق الالوان ، وريشات التصوير والرسوم المقصوصة من مجلات السيدات ، وهكذا أغلق بابها على آخر تلميذة من تلميذاتها ، وظل مغلقا وهى لاتسمح لرجال البريد أن يضعوا على بابها لوحاتهم المعدنية وصناديقهم التى يودعونها مايحملون من الخطابات .

وكنا نرقب الزنجى يوما بعد يوم ، وشهرا بعد شهر ، وعاما بعد عام ، وهو يزداد شيبا وانحناء ، ولا يزال يقبل ويدبر بسلة السوق ..

وفى كل شهر من شهور ديسمبر كنا نرسل اليها اعلانا نطالبها فيه بالضرائب فيرد بعد أسبوع بغير جواب . وكنا نراها من آن لآخر مطلة من احدى النوافذ بالدور الارضى ، فقد كان الدور العلوى مغلقا على الدوام ـ وكأنما هى وثن مكب فى محراب . ولا نكاد ندرى هل كانت تنظر الينا أو لا . وهكذا عاشت من جيل الى جيل عزيزة شكسة مستقرة .

ثم ماتت بعد أن دهمها المرض فى منزل يعلوه التراب وتعمره الاشباح ، ولم يكن ليشهد وفاتها غير هذا الزنجى . ونحن لانعلم بمرضها ولا نسأل الزنجى شيئا من أخبارها لانه لايكلم أحدا ، ومن المحتمل انه كان لايكلمها .. وقد غلظ صوته وصدئ من الاهمال وقلة الاستعمال .

ماتت السيدة **اميلى** فى حجرة من الحجرات الارضية على سرير من الخشب الثقيل ، مطروحا عليها ستار ، ورأسها الابيض ملقى فوق وسادة صفراء قد تعفنت من القدم والظلام .

قابل الزنجى أول وفود السيدات على باب المنزل ، وادخلهن وهن

يتهامسن وينظرن نظرات خاطفة ملؤها الفضول . وكان يسير قدما داخل المنزل وخارجه ، ثم اختفى ولم يره أحد بعد ذلك .. وحضرت ابنتا عمها على الاثر . واقامتا الجنازة فى اليوم التالى . وحضر أهل المدينة لينظروا السيدة **اميلى** فى مرقدها الاخير تحت باقات الازهار ، وقد اطل على النعش وجه أبيها من صورته المائلة هناك يتأمله فى عمق وأناة ، والنساء يولولن فى ذعر وأسى . وبدا الرجال الذين قد تقدمت بهم السن ، على سدة الباب وفى طرقات الحديقة ، بعضهم يلبس الرداء الرسمى وبعضهم بغيره ، وهم يتحدثون عن السيدة **اميلى** كما لو كانت معاصرة لهم ، وربما قال بعضهم انهم راقصوها ، وهم يخلطون بين الزمن وسياقه الحسابى كما يفعل الشيوخ عادة ، اذ يخيل اليهم أن هذا الزمن مرج طويل لايعفو أبدا ولا يمسه الشتاء ، وانما يفصل بينه وبينهم مدى السنوات العشر الاخيرات .

ونما الى علمنا أن بالدور العلوى حجرة لم يرها أحد منذ أربعين سنة ، وان هذه الحجرة يجب أن تقتحم . وقد تريث القوم حتى دفنت السيدة **اميلى** وتولوا فتحها .

كان اقتحام الباب كفيلا بانتشار التراب فى كل جانب ، وقد بدا كل مافى هذه الحجرة المؤثثة بجهاز العرائس ، وكأنما عليه غطاء كثيف من اغطية النعوش . هنا وهناك ستائر مهيأة للزفاف ناصعة اللون ، ومناضد مغطاة ، وأوان بللورية وأدوات الزينة من لوازم الرجال .. تغيرت جميعا حتى امحت حروف الاسم المرقوم عليها ، وعلاها كلها الغبار ، وران عليها ظل كظل القبور .. وبينها جميعا طوق وقلادة كأنما خلعا اخيرا ، متروكين على التراب .. ووضعت البدلة على كرسى مطوية معتنيا بطيها ، وتحتها الحذاء والجوارب .. أما الرجل نفسه فراقد على الفراش !

***

وقفنا هنيهة ننظر الى ذلك الوجه المكشر عن اسنانه معروقا على جسم كان كأنما يتهيأ للعناق .. ولكن خانه ذلك النوم الطويل الذى يبقى حين يذهب الحب ويطغى حتى على ملامح الهوى ، ويخالس فراش الغرام ، وقد تعفنت البقية الباقية من ذلك الحطام تحت ماتبقى من قميص النوم ، واختلطت بالفراش الذى

يرقد فيه . واستقر على الوسادة الى جواره دثار من ذلك التراب الساكن الصبور .

ثم لمحنا على الوسادة رأسا منخوبا ، فأقامه احدنا ورفعه الى الامام ،وقد غشاه ذلك التراب الهزيل الذى تجمد فى خياشيمه. فوجدنا خيطا طويلا من الشعر الابيض الحديدى اللون ـ شعر اميلى .. !

زعيم الشعب

بقلم شتاينبك

عصر يوم السبت ، وقف **بللي بك** راعى المزرعة يلقي بقية الدريس الذى تخلف من السنة الماضية على سور المزرعة فتتلقفها بعض الماشية المتلهفة ، وتنعقد فى الافق الادنى سحائب من الغبار كانها طلقات المدفع ، تسوقها نحو الشرق رياح شهر مارس .

وكان يسمع حفيف الرياح فى أعالى الاشجار ، وقلما كانت نسمة منها تصل الى بطون المزرعة ومنحدراتها . وخرج **جودى** الصغير من الدار وفى يده قطعة غليظة من الخبز والزبد يقضمها . وقع نظره على **بللى** وهو يلقى بمجرافه بقايا العشب المتراكم ، فنزل يخبط بحذائه فى طريق طالما حذروه من تلف الحذاء اذا سار عليه .

وبينا يمر بشجرة السرو انطلق منها سرب من الحمام الابيض ، ثم عاد فهبط عليها مرة ثانية . ووثبت من نافذة الكوخ قطة صغيرة فى مثل ظهر السلحفاة ، وهى تجرى على ساقيها الصلبتين وتلتوى وتنثنى ثم تجرى ، فالتقط **جودى** حجرا وهم ان يقذفها به ، ولكنها اجفلت قبل أن ينطلق الحجر من يده ، فالقاه على شجرة السرو ، فانطلقت منها الحمائم البيض ثم حلقت وعادت الى مكانها كما فعلت أول مرة .

ووقف راعى المزرعة ، وهو رجل كهل ، فغرس مجرافه فى الارض ، ورفع قبعته ثم مسح بيده على شعره وقال : لم يبق من هذا الدريس شىء لم تبلله الاندى . ثم عاد فوضع قبعته على رأسه ومسح يديه الجامدتين احداهما بالاخرى .

قال **جودى** : يبدو أن وراء هذا الدريس كثيرا من الجرذان ..

قال **بللى** : ان لوسى تزحف معها دائما حيث سارت .

– ربما دعوت الكلاب وتصيدت هذه الجرذان ، بعد أن تزيل كل ماهنا لك ..

قال **بللى** : يقينا تستطيع ذلك ..

وحمل مجرافا من الدريس المبلل وذراه فى الهواء ، ولم تلبث أن وثبت معها جرذان ثلاثة . ثم اختفت تحت الدريس بسرعة .. وتنفس **جودى** فى ثقة وقال : هذه الجرذان السمينة المكتظة كانت مختفية فى مكمنها تحت الدريس ثمانية أشهر ، تنمو وتتكاثر وهى فى حصن منيع من القطط ومن المصائد ومن السم ومن **جودى** كذلك ! وقد اكتست لحما واكتنزت شحما ، وازدادت عظما وهى فى مأمنها . والآن أزفت ساعتها . فلا نجاة لها بعد اليوم .

وألقى **بللى** نظرة الى التلال التى تحيط بالمزرعة وقال : قبل أن تقدم على شىء يجب أن تستأذن أباك ..

– أين هو الآن ؟

– لقد ركب بعد تناول الغداء وذهب الى أطراف المزرعة ، وسرعان مايعود .

قال **جودى** ، وقد وثب الى الارض : لا أظنه يأبه لشىء من هذا .

قال **بللى** منذرا وهو يعاود عمله : يحسن أن تسأله على أى حال ، أنت لاتجهل أطواره .

ان **جودى** ولاشك يعرف تلك الاطوار ، فان والده **كارل تفلن** يصر على استئذانه فى كل مايجرى فى المزرعة ، عظم أو صغر ، قل أو كثر .

ولم يلبث **جودى** أن هبط على العمود الذى كان يستند اليه حتى تربع على الارض ، ورفع بصره الى قطع السحاب التى تسوقها الرياح ، وقال : أترى فى الجو مطرا **يابللى** ؟

– قد يكون .. ان هذه الرياح تنبىء به ، وان لم تكن من القوة بحيث تعجل بسقوطه .

ـ أجل .. أرجو ألا تمطرحتى أقضى على هذه الجرذان اللعينة .

وألقى من وراء كتفيه نظرة ليرى وقع حديثه ، الا أن **بللى** ظل منهمكا فى عمله ، ولم يجبه .

ونكص **جودى** ملتفتا الى جانب الرابية حيث ينحدر الطريق ، وقد غمرتها أضواء شمس مارس الخافتة . وبدت زاهية من بين أغصان الريحان رءوس العوسج الفضية ، وقد أينعت زهرات الترمس الزرقاء وبعض شجيرات الخشخاش ، وظهر فى عرض الطريق الى جانب الرابية كلبه الاسود « **دبل ترى . مت** » يحفر برجليه جحر **سنجاب** فتتناثر الاوحال من بين ساقيه ، وكأنه لايعرف أن الكلب لايستطيع أبدا أن يتصيد السنجاب فى جحره .

وبينما **جودى** يترقب الكلب الاسود اذا به يراه قد ثبت فى مكانه وانصرف عن الجحر وقد ألقى نظرة الى الرابية حيث يمتد الطريق ، فرفع **جودى** بصره كذلك فلمح بعد لحظة خلال السماء الشاحبة « **كارل تفلن** » ممتطيا جواده ، منحدرا نحو الطريق الذى يؤدى الى المنزل . وكان يحمل فى يده شيئا أبيض .

وانتصب **جودى** واقفا على قدميه وصاح : هذا خطاب .. ودلف مسرعا نحو البيت ، على الخطاب يتلى أمامه فيسمع مافيه .

وصل الى المنزل قبل أن يصل اليه أبوه ، ثم دخل وسمع كارل وهو يترجل ويربت جواده ليصرفه الى حيث يتلقاه **بللى** ويخلع عنه أدواته ويعيده الى حظيرته!

جرى **جودى** الى المطبخ صائحا : ورد الينا خطاب ! فرفعت أمه رأسها من قدر الغول وقالت : مع من ؟

ـ مع أبى .. رأيته فى يده .

ودخل **كارل** الى المطبخ فسألته أم **جودى** : ممن الخطاب **ياكارل ؟**

قال مقطبا : من أين علمت بالخطاب ؟

فأومأت برأسها نحو الوالد : لقد أخبرنى **جودى** الذى يزج بأنفه فى كل شىء ..

واضطرب **جودى** . اذ التفت أبوه اليه مشمئزا وهو يقول :

انه فضـــولى ثرثارة . انه يهتم بأمر كل انسان الا أمر نفســه ، ويزج بأنفه الكبير فى كل شىء !

ولان صوت السيدة **تفلن** وهى تقول : لابأس انه لايجد مايشغله دائما . . ومن عند من هذا الخطاب؟

قال **كارل** وهو لايزال مقطبا ملتفتا نحو **جودى** : سوف اطيل شـغله اذا لم يقلع عن هذه الافاعيل .

ثم أبرز خطابا مغلفا .

ـ اظنه من عند أبيك

فأخرجت الســيدة **تفلن** دبوسا من رأسها وفتحت الغلاف . وقد أبصر **جودى** عينيها وهى تجول بين الســطور ، واخـذت تلخص مافيه :

يقول انه سيبرح الينا يوم السبت ليمكث بيننا بضعة أيام؟ « كيف ذلك ونحن فى يوم السبت ؟ لاشك ان الخطاب قد تأخر !! »

واقبلت تتفحص خاتم البريد فقالت : لقد ارسل أول امس، وكان يجب أن يكون هنا أمس . ثم التفتت نحو زوجهـا تستفسر متجهمـة ، وقد اكفهـر وجههـا غضبا ، اذ قالت . مابالك مقطبا ؟ انه لايزورنا الا لمـاما !

فأشاح **كارل** محـولا ناظره عن وجههـا المغضب .. فهـو يستطيع أن يشتد معها فى غالب الاحيـان ، الا انه لايقـدر على مواجهتها حين يتملكها الغضب.

وعادت تصيح به : ما ذا أصابك ؟

قال متلعثما ، وكان فى تعليله شىء من الاعتـذار قد يجـدر بجودى بعض الاحيان : انه كثير الكلام ، كثير الكلام ..

ـ وماذا فى هذا الكلام ؟ انك أنت كذلك كثير الكلام !

ـ أنا ولا شك اكثر من الكلام احيانا ، ولكن اباك يتحدث عن شىء واحد لايعدوه !

وصاح **جودى** متوفزا : الهنود الحمر واجتياز السهول !

فانتهره **كارل** فى عنف وصاح به : أخرج أيهـــا الفضولى ... أغرب عن وجهى ؟

فانصرف **جودى** من الباب الخلفى وامارات الكآبة ترتسم على محياه . واغلق وراءه المزلاج حريصا على الهدوء ، ووقعت عيناه الخجلتان على حجر يلفت النظر ، فانحنى والتقطه ، وجعل يقلبه وهو يسمع الحديث جليا من نافذة المطبخ المفتوحة ، فاذا بابيه يقول : ولكن **جودى** لم يعد الحقيقة . ان اباك لا يعرف الا حكاية الهنود واقتحام السهول . سمعت منه قصة الخيول العاديات آلاف المرات ، يعيد فيها ويبدى ولا يغير حرفا مما يحكيه .

قالت السيدة **تفلن** مغيرة لهجتها ترد عليه ، حتى لم يتمالك **جودى** ان رفع بصره عن الحجر الذى كان يتأمله تحت النافذة ، وكانت نبرات صوتها نبرات من يوضح ويلتمس المعاذير ، وان **جودى** ليعرف كيف تتغير ملامحها وهى تحاول الاقناع :

انظر الى عادات أبى من حيث تنظر **ياكارل** . فقد كان ذاك هو الامر الجلل فى حياته ، وهو انه كان يقود القافلة ويجتاز بها السهول نحو الشاطىء . ان حياته لتنتهى بانتهائه من هذا العمل ، وانه لعمل عظيم وان لم يطل ..

قالت وهى توالى حديثها : تأمل كأنه خلق ليقوم بهذا العمل . واذا انتهى منه لم يبق أمامه الا التفكير فيه والتحدث عنه . ولو بقى أمامه مكان يتقدم فيه نحو الغرب لتقدم . لقد طالما سمعته يقول ذلك ، الا أنه وجد أمامه البحر المحيط فى النهاية ، وهو يعيش الآن الى جانب المحيط ـ المكان الذى وقف عنده ..

قالت هذا ، وكأنها أسرت **كارل** واستحوذت عليه بصوتها الرقيق !

فقال مصدقا هادئا : انى رأيته . رأيته يهبط فيلقى بنظرة الى الغرب نحو المحيط ، ثم يذهب الى نادى « حدوة الفرس » فى غيضة المحيط الهادىء ويظل يتحدث عن الهنود وكيف كانوا يسوقون الخيل ..

ثم أخذ صوته يرتفع قليلا ..

وحاولت أن تلفه وتعتقله بلهجتها مرة أخرى فقالت :

ـ ان هذا كل شىء لديه . ولعلك تصطنع معه قليلا من الصبر ، وتظهر بالاصغاء الى حديثه ..

ولكن **كارل** أعرض بوجهه متململا وقال :

على أية حال ان زاد الامر عن الطاقة ذهبت الى حجرتى فى فى المزرعة ، وجلست مع **بللى** هنا لك ..

ثم خرج من المنزل وأغلق وراءه الباب ..

اما **جودى** فقد راح يزاول هوايته ، ويضع الحبوب لصغار الدجاج ولا يطاردها ، ويجمع البيض من الاوكار ، ثم انطلق الى المنزل ووضع فى الصندوق حزمة من الخشب ، بالغ فى تشبيكها حتى ملأه بوسق ذراعين ، وانتهت أمه من المطبخ ، وقلبت النار ، ثم مسحت الموقد بريشة من ريش الدجاج . وأحدق **جودى** بنظره نحوها ليرى هل هناك ما يعوقه ، ثم سأل : هل سيحضر اليوم ؟

ـ هذا مايقوله فى خطابه ..

ـ اليس من اللائق ان اذهب لاستقباله فى عرض الطريق ؟

قالت السيدة **تفلن** وقد وضعت غطاء القدر : يحسن بك ذلك ، فقد يسره أن يجد أحدا فى استقباله ..

ـ اذن سأذهب للقائه ..

وانطلق **جودى** يدعو الكلاب ويصفر لها فى سرور وابتهاج : هلمى الى الربوة .. فرفع الكلبان ذنباهما وجريا الى عرض الطريق ، واقتطف **جودى** ازاهير من الريحان الفضى الذى ازدانت به جوانبه ، وربطها فى يده ، فانتشر اريجها فى الفضاء . واندفع الكلبان يقفزان وهما يعبران الطريق وراء أرنب برى ، ثم اختفيا عن جودى ، وعادا أدراجهما نحو المنزل بعد أن اقتنصا الارنب !

واخذ **جودى** يعدو ويجد السير فوق المرتفعات حتى وصل الى المنحنى الذى يؤدى الى الطريق . وكان هواء الاصيل يداعب وجهه ويعبث بشعره ويلعب بطيات قميصه . وهو يلقى نظرة على الآكام والربى ، حتى وصل الى وادى سالينا الخصيب ، وبدت لعينيه مدينة **سالينا** تلمع نوافذها تحت أشعة الشمس الشاحبة ، وظهرت تحته شجرة البللوط وقد غطاها سرب من الغربان حتى بدت سوداء بلونها ، واخذت تنعق بصوت واحد .

تتبع **جودى** بناظريه طريق القوافل الذى ينحدر اسفل المرتفع الذى يسير فيه ، حيث كان يبدو من جانب ويختفى من الجانب الآخر . وقد ابصر على هذا الطريق الممتد عربة تسير فى بطء .. يجرها جواد اشهب ، ثم اختفت عن عينيه وراء الاكمة . جلس **جودى** على الارض حيث تعود العربة الى الظهور ، والرياح تتناوح على رءوس الآكام . وقد أخذت قطع السحاب تغذ السير نحو الشرق . وهنا بدت المركبة ظاهرة لعينيه ، ووقفت ، ثم نزل من مقعدها رجل يرتدى لباسا أسود ، فتمشى قليلا حتى جاء الى رأس

الجواد ، وأدرك **جودى** على بعدانه يخلع عنه العنان . فقد رآه يطأطىء راسه الى اسفل ....وسار الجواد قدما والرجل يسير الى جواره بخطى وئيدة. فصاح **جودى** مبتهجا وعدا نحوالطريق متجهاإليه . وكان بعض السنجاب يقفز هنا وهناك . وقد نشر سنجاب منها ذنبه وجرى على الحافة ، ثم انبرى كمن ينزلق على الجليد .

كان **جودى** يعدو ويحاول فى كل خطوة يخطوها ان يقفز الى نصف ظله ، وسقط حجر تحت قدمه فزلت به الى اسفل .

فلما وصل الى حنية صغيرة جرى حتى صار بينه وبين جده وعربته مسافة قصيرة . وخفف الولد من جريه وتريث ، ثم سار متئدا .

كان الجواد يتعثر فى مشيته فوق تلك الآكام ، وكان الشيخ يسير الى جواره ، وارتمت خلف شبحهما الكبير ظلال سود. كان على الجد حلة من القماش الاسود الخشن ، وفى رجليه طماق من جلد العنز ، وحول عنقه طوق منشى حوله قلادة سوداء ، وقد حمل قبعته فى يده ، وبدت لحيته مطمومة وحاجباه المبيضان يتدليان فوق عينيه كأنهما شاربان . اما عيناه الزرقاوان فعليهما مسحة المرح الوقور ..وتحف بمرآه جميعا سيمة صخرية يخيل اليك ان تحريكها مستحيل . فاذا سكن جسمه تحول الى صخر لن يتحرك ثانية، واذا خطا فخطواته وئيدة ثابتة كل خطوة منها لاتخالف الاخرى فى اتجاهها ولا تزيد ولا تنقص فى اتساعها .

وما كاد **جودى** يظهر من جانب المنحنى حتى رفع جده قبعته مرحبا قائلا : هذا انت ياجودى .اقادم انت لاستقبالى؟!

فاقترب **جودى** ثم عاد فاسرع وتقدم نحو الرجل الشيخ ومثل الى جانبه يجر قدميه ، واجابه: اجل ياسيدى ، اننا لم نتسلم خطابك الا اليوم ...

قال جده : كان ينبغى ان يصل بالامس !! كيف حالكم جميعا ؟

ـ انهم على احسن حال ياسيدى

وتردد قليلا ثم قال فى خجل :

ـ هل لك فى صيد الجرذان غدا ؟

فاجابه الجد متهانفا :

– صيد الجرذان ؟! هل انحدر ابناء هذا الجيل الى هذا الحضيض ؟ . انني اعلم انهم ضعاف ، ولكني لم اكن احسب ان سيبلغ من ضعفهم ان يتخذوا الجرذان صيدا !!

– كلا ياسيدي ، انها لعبة فحسب . لقد ذهب الدرس ، وانا اسوق الجرذان الى الكلاب وانت تراقب او تضرب العشب قليلا .

قال الجد ، وادار اليه عينيه الثابتتين المرحتين : انى اراك لاتاكلها ؟ لم يصل الامر بك الى هذا الحد !!

وقال **چودى** وهو يحاول ان يشرح له مايرمي اليه : ان الكلاب تاكلها ياسيدى ، ولاشك انه ضرب من الصيد غير صيد الهنود !

– كلا ليس الأمر كذلك ، ولكن بعد ان خرج الجنود يتعقبونهم ويتصيدون ابناءهم ويحرقون اجرانهم ، لم يكن ثمة فرق كبير بين هذين الضربين من الصيد !

وتسلقا المرتفعات فاخذا يهبطان الى الوهاد وضوء الشمس يتقلص من فوق اكتافهما ، ويقول الجد : لقد طلت **ياچودى** واحسبك قد نموت نحو قيراط !

فاجابه **چودى** مزدهيا : بل اكثر من ذلك ، انهم حينما قاسوا قامتى على الباب وجدوا انى زدت اكثر من ذلك . احمد الله على كل حال .

وقال الجد بصوته الاجش : قد يكون هذا .. لعل عودك قد اصاب ماء غزيرا فنما وترعرع ، ولكن انتظر حتى تستوفى نموك ثم ننظر ماذا تكون ؟

والقى **چودى** نظرة عاجلة على وجه الرجل الشيخ يخشى ان يكون قد اساءه على غير قصد . ولكن عينى الرجل النافذتين الزرقاوين لم ينذرا بشيء من العقاب او يشيرا اليه بالزجر ، واقترح **چودى** صيد خنزير .

– كلا لست ادعك تفعله . انما هو كلام تجره معى **ياچودى** ، فما الساعة بموعد صيد .

– اتذكر الخنزير الذى كنا نسميه رايللى ياسيدى ؟

– اجل انى اذكر رايللى جيدا .

– لقد قرض حجرا من العشب فانهار عليه واختنق !

فاجاب الجد : ان الخنازير تفعل ذلك كلما امكنها .

ـ كان رابللى خنزيرا لطيفا، وكنت امتطى ظهره وهو لا يبالى .

وفتح باب من أبواب المنزل ، وبدت لهما أم **چودى** على عرض الطريق تلوح بمئزرها مرحبة به ، وبدا **تافلن** قادما من الجرن لاستقباله .

كانت الشمس قد اختفت من فوق الروابى ، وطبقات الدخان الازرق الذى ينبعث من المدخنة معلقة فى الافق الارجوانى وقد وقفت السحب التى تسوقها الرياح فوق السماء بغير حراك . .

خرج **بللى** بك من الحجرة والقى على الارض اناء من الماء والصابون ، وكان من عادته أن ينظف لحيته فى منتصف الاسبوع .

ان **بللى** يهاب الجد ويوقره، وكذلك الجد يقدره ويقول : ان **بللى** من الافراد القلائل الذين لم تفسدهم طراوة الترف فى هذا الجيل . ويدعوه بالولد. وان كان قد بلغ منتصف العمر.

واسرع **بللى** نحو المنزل . فلما وصل **چودى** مع جده كان الثلاثة فى استقبالهم على باب الفناء . قال **كارل** : مرحبا بالسيد .. لقد كنا فى انتظارك .

وقبلته السيدة **تفلن** على جانب لحيته ، وجلست اليه فى ادب ، فربت براحته الكبيرة على كتفها . وصافحه **بللى** بهدوء وهو يبتسم ابتسامة عريضة من تحت شارب كأنه منسوج من التبن ، ثم قال : سأذهب لأريح الجواد ، وارفع عنه الركاب .

وكان الجد يرقب حركاته وهو يروح ويغدو ويردد تلك الكلمة التى طالما رددها مئات المرات : هذا ولد طيب ، اننى أعرف أباه « ذيل البغل » كما كانوا يسمونه ، لا أعرف لماذا كانوا يسمونه « ذيل البغل » . لأنه كان يربط البغال ؟

والتفتت اليه السيدة **تفلن** وقادتهم الى داخل المنزل ، وقالت :

ـ كم تقضى معنا يا والدى ؟ لم تقل فى خطابك ..

فأجاب : لاادرى على التحقيق . قد امكث اسبوعين ، ولكنى على اى حال لااخالنى ساقضيهما . .

جلسوا بعد هنيهة الى المائدة يتناولون عشاءهم ، ومن فوقهم مصباح تنعكس اشعته عليهم من صفحة القدير يرفرف حولها الفراش والبعوض . .

واخذ **الجد** يقطع شظائر اللحم اجزاء صغيرة ويمضغها ببطء ويقول :

ـ لقد جعت حقا . ان ركوبى الى هنا هيج فى ضراوة الجوع ! وكذلك كنا ونحن نعبر البرارى ، كان يدركنا الجوع عاجلا . فلا ننتظر حتى ينضج اللحم لناكله . وكنت التهم قرابة خمسة ارطال من لحم الجاموس كل ليلة .

قال **بللى** : هكذا تفعل الحركة . لقد كان ابى عاملا فى الحكومة ، وكنت اساعده وانا صغير . وكنا ناكل معا فخذا من لحم الغزال .

قال **الجد** : اننى اعرف والدك ، انه رجل لطيف ، واعجب كيف قبل ان يشتغل بربط البغال !

قال **بللى** : نعم كان يربط البغال .

ووضع **الجد** السكين والشوكة امامه ونظر حول المائدة وقال : اذكر اننا ذات مرة استنفدنا ما عندنا من اللحم .

وانخفض صوته وانبعث فى جرس كانه اخدود تشقه عباراته لنفسها دون قصد منه . . قال :

ـ لم يصادفنا جاموس ولا وعل ولا ارنب ، لم يصادفنا حتى ولا ذئب . وهنا يعمل الزعيم عمله ، وماكان الزعيم يومئذ احدا غيرى ! . . وظلت عيناى ترقبان . اتعرفون لماذا ؟ فى هذه اللحظة كانت القافلة تتضور جوعا ، وأوشك رجالها أن يذبحوا الثيران التى نعتمد عليها ! اتصدقون هذا ؟ . لقد سمعت أن قافلة اكلت لحم ماشيتها نيئا ! بدءوا بالوسط ، ثم انصرفوا الى آخرها فاكلوه ، ثم قضوا على الازواج الاولى فالاخيرة . وعلى زعيم القافلة ان يحول بينهم وبين ذاك . . .

ودخلت فراشة كبيرة الى الحجرة فجعلت تحوم حول المصباح ، واذا **بللى** ينهض ويحاول ان يصطادها بكفيه ، وبادر كارل فضربها وامسك بها . . . واستطرد **الجد** فى حديثه

ولكن **كارل** قاطعه قائلا : خـــذ قليلا من اللحم فانك لم تستوف عشاءك بعد هذا الجوع .. اتنانوشك ان تاكل الحلوى .

وادرك **چودى** ان سحابة من الغضب تعلو وجه امه . وقال الجد وقد اخذ فى يده الشوكة والسكين : اننى جـــد جوعان وسأتم لكم قصتى فيما بعد .

واذ انتهوا من العشاء جلسوا الى الموقد .. فاخـــذ **چودى** يتفرس فى وجه جده، ويتطلع الى الملامح التى عهدها ، والى رأسه الملتحى، والى عينيه وقد فارقتهما صرامتـه وتوجـه بهما الى نار الموقد واضعا اصـابعه النحيلة فوق ركبته وهو يقول : لا أدرى هل أخبرتكم بأن هؤلاء اللصوص قد ساقوا أمامهم خمسة وثلاثين جوادا من خيولنا ؟.

قاطعه **كارل** قائلا : اظنـــك رويت لنا ذلك ، اليس هذا قبل ان تذهب الى **ناهواى** ؟

قال الجد وقد التفت التفاتة عاجلة الى صهره : هذا صحيح، اظن اننى اخبرتكم بذلك .

قال **كارل** بقســـوة : عدة مرات ..!

وتحـاشى أن ينظر الى عينى زوجتـــه ، وان كان قد احس وقعهما ، فقـال : الا اننى طبعا احب ان اسمعها مرة اخرى ..

وعاد **الجد** ينظر الى نار الموقد وقد فك اصابعه المتشابكة ، اما **چودى** فقد عاوده فى تلك اللحظة شعور بالمهانة والانكسـار . الم يصفوه بالفضولى اصيل ذلك اليوم ؟ لقد تسامى به الفضول اذن الى أوج البطولة . فانشـا يقترح على جده الحديث ويقول له : حدثنا عن **الهنود** ..

وتسرى الصرامة مرة اخرى الى عينى **جده** فيقول :

ـ ان الاولاد يحبون دائما ان يسمعوا مايقال عن **الهنود** ، انه عمـــل رجال ، الا ان الاولاد يشوقهم خبره . هـل اخبرتك كيف اشرت بأن تحمل كل مركبة صفحة طويلة من الحديد ؟

وكان الجميع فى سكون شامل عدا **چودى** ، فأجاب : كلا . انك لم تخبرنا .

قال **الجد** : حينما كان الهنود يهاجموننا كنا نقيم المركبـــات حولنـــا كالدائرة ونطلق عليهم النار من بين العجلات ، وخطر لى انه اذا وضعت فى كل عربة لوحة من الحديد مخرقة تنفذ البنادق من خروقها ، أمكننا أن نحمى بها المركبات فتصون حياة رجالنا . غير أنه ما من احـــد فى القافلة كان يعمـل بهـــذه

الوصية ،اذ لم تسبقنا قافلة اليها قبل ذلك . فما بالهم يتكلفون مثل هذه النفقة التى لم تتكلفها القوافل الاخرى ؟ .. على انهم قد عاشـــوا حتى ندموا على اهمالهم لتلك الوصية .

والقى **چودى** نظـرة الى امه، فراى ماينم عنه وجهها، انها لم تكن مصـغية الى شيء ، وابصر **كارل** يتفحص ابهامه . **وبللى بك** يرقب عنكبوتا يزحف على الحائط . . . !!

كان صوت **الجد** قد تهيأ للايقاع والالقاء .. وان **چودى** ليعرف جيدا مواقع كلامه : انه ينقض كلما استعرض مواقف الهجوم، ويشجى كلما ذكر الجراح ، ويكاد ينتحب عند ذكر الموتى ودفنهم فى البرارى والسهول .

كل ذلك **وچودى** هادىء يرقب حركات **جده** ، وعيناه الزرقاوان منصرفتان عنه، غير مكترث بالقصة فلما فرغ من حديثه قوبل صمته بالخشوع والتوقير كأنه تخوم القصة التى تحق لها الرعاية والاحترام .

وقام **بللى بك** فتمطى واصلح من لباسه وقال « لعلى أعود » ثم توجه نحو الجد وقال :

« ان عندى بندقية ومسدسا لعلك رأيتهما ؟ »

وهز **الجد** راسه وقال : اظن ذلك **يابللى** ، لقد ذكرتنى ببندقية كانت لدى حين كنت اقود القافلة . وجلس **بللى** ساكنا حتى انتهت القصة ، فحيـاهم وانصرف من المنزل . وحاول **كارل** أن يغير مجرى الحديث فقال : كيف حال الطريق من هنـا الى **مونترو** ؟ سمعت انه طريق يابس ..

وأجاب **الجد** ان الطريق ليابس حقا وليس فى أقليم **اللاجونسكا** قطرة واحدة من المـاء ، ولـكن العهد بعيـد من عام ٨٧ ، حيث كانت الارض جميعهـا شعلة من البارود وفى عام ٦١ ماتت الذئاب عن آخرها من شدة الجوع وارتفعت درجة الامطار حتى بلغت ١٥ قيراطا فى هذه السنة . أجل حدث كل هذا آنفا وفى وسـعنا الآن أن نكتفى بالتعليل ..

واستقرت عينا كارل على **چودى** فاشار اليه قائلا : ألا تذهب الى فراشك ؟

ووقف **چودى** ممتثلا وقال :هل لى ان أبيـد الجرذان التى فى الدريس ياسيدى ؟

ـ الجرذان ؟ أجل اقتلها جميعا ولا تبق ولا تذر .. ان بللى يقول ان الدريس قد أزيل ولم يبق منه شىء ..

وتبادل **چودى** وجـده نظرات خفية راضية ، وقال متوعدا : غدا سأقضى عليها .

٠٠رقد **چودى** فى فراشه يسبح بخياله فى ذلك العالم العجيب عالم الهنود والعجول ٠ ذلك العـــالم الذى ذهب واندثر الى غير رجعة٠ ماكان أشوقه ان يعيش فى ذلك العصر الحافل بالبطـولة والابطال كان يعلم أنه لم يخلق من معدن البطولة ، وليس أحد من معدنها يعيش الآن خلا **بللى** بك ، فانه يستطيع أن يضطلع اليوم بمـــا كانوا يفعلون بالامس !

٠٠٠ جيل من الجبابرة ٠ كان يعيش فى تلك الآونة ، كانـوا رجالا بواسل أولى شجاعة لاتعرف اليوم ٠ ثم أخذت تطوف بذهن **چودى** صور السهول الشاسـعة والمركبات التى تزحف كالديدان وتصور جده وهو يمتطى صهوة جواد أبيض يتقدم القوم ، فتمثلت فى ذهنه تلك الاشباح الكبيرة التى سارت على الارض أمدا ثم اختفت أبدا ٠

وعاد أدراجه الى المزرعة لحظة فوقر فى ســـمعه ذلك الصوت الثقيل الذى ينبعث من الفضاء الصامت وسمع أحد الكلاب فى حظـــيرته يحك برغوثا ويضرب بذراعه فى الارض ٠ وعادت الرياح تهب وشجر السرو الاســـــود يتمايل ويتناوح مع تلك الرياح، ثم استغرق **چودى** فى النوم ٠

واستيقظ قبل أن يدق جرس الافطار بنصف ساعة ٠ ودخل الى المطبخ فرأى أمـــه تقلب الموقد فينبعث زفير النيران ٠

قالت : لقد استيقظت مبكرا، أين تذهب ؟

ـ سأخرج لاستحضار عصا ، سوف نبيد نحن الجرذان اليوم !!

ـ ماذا تعنى بـ « نحن » ؟

ـ أنا وجدى ٠

ـ اذن أنت قد طويته معك !

وهكذا دأبك لاتزال تشرك معك أحدا تتقى به اللوم !

قال **چودى** : سأعود عاجلا ، انما جئت لاستحضر عصا ٠ وأعد عدتى بعد أن نتناول طعام الافطار ٠ وأغلق خلفه الباب وخرج فلاقاه جو صباح صاف برود ٠

كانت العصافير تغرد والقطط تنحدر من الاكمـة وهى تتلوى كالحيات ٠ وكانت هذه القطط الاربع تصطاد الجرذان فى الظلام ، ممتلئة بلحومها ، ولكنها مع ذلك تموء فى ضراعة شوقا الى جرايتها المعهودة من اللبن !

وجرى الـكلبان **دبلترى مت وسماشر** على حافة السور يؤديان واجب التحية بجد ووقار الا انهما لم يكادا يستمعان الى صفير **چودى** حتى شالا برأسيهمـا وبصبصـا بذنبيهما واندفعا اليه يتثاءبان ،

فربت **جودى** على راسيهما ثم التفت الى حزمة من العصى واختـار يد مكنسة قديمة وعودا من الخشب وأخرج رباط حذاء من جيبه وربط العصى بعضهـا الى بعض ليصنع منها مدقة وادار سلاحه فى الهواء ثم ضرب الارض ليجرب متانة هذا السلاح . والـكلاب تثب وتعدو متوحشة الى جواره

ثم استدار **جودى** وسار الى مكان الدريس ليلقى نظرة الى ميدان المذبحة الا انه سمع **بللى** يناديه وهو يجلس فى هدوء عـلى درج السلم الخلفى ؟ خير لك أن ترجع، لم يبق الا دقائق على موعد الافطار

فارتد **جودى** من وجهته ومشى ناحية المنزل وأسند مدقه عـلى درج السلم وهو يقول « سوف أخرج بها الجرذان ، لاشك انها قد سمنت وانتفخت ، وكاني بها لاتدرى ماذا سيحل بها اليوم !

قال **بللى** متفلسفا « كلا ولا أنت تدرى ماذا يحل بك »

فاضطرب **جودى** لهذا الخاطر لعلمه بصدقه ، وغابت عن حياله كل فكرة عن الجرذان وصيدها .. ثم خرجت امه من الباب الخلفى وطرقت الناقوز ، فانهارت كـل أفكاره كومة واحدة .. !

فلما جلسوا على المائدة لم يظهر الجد معهم . وأشار **بللى** الى كرسيه الخالى متسائلا ، « لعله بخير . ما أحسبه مريضا »

قالت السيدة **تفلن** « انه يتوانى طويلا فى ارتداء ملابســه وفتل شاربيه ومسح حذائه .

وأخذ **كارل** يرش السكر على العصيدة التى فى انائه وهو يقول.
ـ ان الرجل الذى يقود القافلة يجب أن يعنى بارتداء ملابسه .

والتفتت اليه الســيدة **تفلن** وقالت : هـه دع هـذا ارجوك يا **كارل** . والتهــديد فى لهجتها أقرب من الرجاء ، مما أثار **كارل** واغضبه .

ـ حسنا كم مرة ياترى سوف أجبر على سماع قصـة الاطباق الحديدية وقصة الخيــل الخمسة والثلاثين .. ذلك زمان قد غبر ما باله لاينســاه .. انه غبـر واندثر ..

وجعل كلما تـكلم يشـتد به الغضب ويرتفـع صـوته .. واستطرد قائلا : ما باله يعيدها كرة بعـد أخرى ؟ لقـد عبر السهول .. نعم عبر السهول ، حسن ، هذا كله قد مضى وانقضى ومامن أحد يعنيه أن يستعيد هذه القصة مرارا وتكرارا

وكان باب المطبخ مقفلا وجلس الاربعة على المائدة جامدين ، ووضع **كارل** ملعقته على المـائدة معتمدا ذقنه بأصابعه .

وفى تلك اللحظـة فتح باب المطبخ ودخل منه الجد مبتسما وعيناه تغمزان . قال :

ـ « عموا صباحا ! .. ثم جلس ينظر الى صحفة العصيدة التى أمامه ..

ولم يطق **كارل** أن يسكت دون أن يسأل : هل سمعت ما كنت أقول ؟

فانغض **الجد** راسه قليلا ..

ـ اننى لا أعرف ماذا جرى لى ، واننى لا أعنى شيئا ، انما كان محض مزاح .

نظر **چودى** الى أمه حجلا ، ورآها تنظر الى **كارل** وهى تكظم أنفاسها . لقد كان **الجد** يعانى أشد العناء ويغالب نفسه مغالبة شديدة وهو يتكلم على هذا النحو اذ كان يحر فى نفسه أن يرجع فى كلمة واحدة .. فأما أن يرجع فيها خجلا فذلك مما لا يطاق !

ونظر **الجد** الى جانبه وقال فى دعة . وددت لو أننى أكف عن هذا ، وما أنا بذى جنة . ولست أبالى ما قلت فلعله حق ولعلى خليق أن أباليه

قال كارل : لا شىء من هذا ، لا شىء مما تظن . لقد قمت من نومى متوعكا ، وآسف لاننى قلت ما قلت .

ـ « لا تأسف **ياكارل** . ان الشيخ الهرم قد يفعل ذلك أحيانا ولعلك على حق . ان أيام تلك الرحلات قد غبرت ، وكان خليقا أن تنسى ..

قام **كارل** وغادر المائدة ثم قال : لقد شبعت وسأذهب الى عملى .. ثم التفت الى **بللى** قائلا : كل كفايتك .. وخرج مهرولا . فالتهم **بللى** بقية الطعام وتبعه على عجل . ولكن **چودى** لم يغادر مقعده .

قال **چودى** : ما عدت تقول لى شيئا من القصص ؟

ـ وكيف لا ؟ اننى سأقول ! . ولكن حين أجد أذنا صاغية .

ـ اننى أحب أن أسمعها .

ـ لاشك انك تحب ولكنك صغير ، وهذه القصص عمل رجال . وان كان الاطفال يحبون الاصغاء اليها .

وقام **چودى** من مقعده وهو يقول : سأنتظرك فى الخارج ياسيدى .... لقد أعددت عصا جيدة للجرذان .

ـ اذهب فاقتلها أنت . اننى أفضل أن أجلس فى الشمس .

ـ تستطيع أن تستعمل عصاى اذا شئت .

ـ كلا سوف أجلس هنا لحظة

والتفت **چودى** محزونا ثم اتجه الى مكان الدريس فأخذ يشحذ

همته بالتفكير فى الجرذان السمان، ودق الارض بمدقته وانبرت الكلاب تلهث وتلتف حوله ، ولكنه لم يستطع الذهاب، ولما عاد الى المنزل وجد جده جالسا على سدة الباب متضائلا شاحب الوجه. فانصرف **جودى** عما هو بصدده . وجلس على الدرج تحت أقدامه :

ـ لقد عدت أدراجك ، هل قتلت الجرذان ؟

ـ لا ياسيدى .. سأقتلها فى يوم آخر .

وكان الذباب الذى يدب فى الصباح يغمر الارض والنمل يسير على الدرج ، ورائحة الريحان تنبعث من الرابية ، وخشب البوابة دافئا تحت أشعة النهار .

ولم يكن يعرف **جودى** متى استأنف جده الكلام ولكنه سمعه وهو يقول :

أما والحال حالنا ، فليس لى أن أمكث هنا .

وجعل يتفحص يديه القويتين ثم قال : أحسب تلك الرحلات لم تكن تستحق أن ترحل . وتحركت عيناه الى جانب التل فاستقرتا على صقر جاثم على شلو ميت . وعاد يقول : انما أقص هذه الحكايات . وماهى بالذى أعنيه وانما أعنى أن أرى ماذا يجول فى خواطر الناس حين يسمعونها .

لم يكن المهم شأن الهنود .. كلا . ولا تلك المغامرات . كلا .. ولا مخرجى منها الى حيث ترونتى فى هذا المكان . انما كان الخطب خطب كتلة من أبناء آدم تجمعت فى شبه حيوان ضخم يزحف هنالك ، وكنت أنا رأس ذلك الحيوان .. كان همنا جميعا أن نضرب ونضرب ، وكان كل منهم يتمنى شيئا لنفسه ، ولكن الكتلة الهائلة ذلك الحيوان الضخم لم يكن من همه الا أن يضرب ويضرب .. وكنت أنا الزعيم ، ولكنى لو لم أكن زعيمها ، لكانه انسان آخر ، فلم يكن فى تلك الكتلة الهائلة غنى عن رأس .

« كانت الظلال تحت الحمائل مسودة حالكة فى وضح النهار . فلما رأينا الجبال فى النهاية مرحنا جميعا . ليس الوصول الى هنا هو المهم انما المهم هو التجوال والتغريب .. »

« لقد حملنا حياتنا كاننا النمل التى تحمل بويضاتها وكنت أنا الزعيم . كان التغريب فكرة كبيرة كانها اله . وتجمعت خطواتنا . وكانت تلك الخطا التى خطوناها تتجمع وتتجمع حتى تمهد مسالك القارة . »

« وهنا وصلنا الى البحر وانتهى كل شىء .. »

ثم وقف ومسح عينيه حتى احمرت جفونهما : « هذا مايجب ان أقوله بدلا من القصص »

ولما قال **چودى** : أترانى مستطيعا أن أقود الناس كما قدتهم ياجدى ؟

ابتسم الرجل وقال : « لم يبق ثمة مكان تذهب اليه ، ان المحيط أمامك ، وعليك أن تقف عنده . وان هنالك صفا من الرجال الشيوخ الذين فى مثل سنى يقفون على طول الشاطىء وهم يكرهون المحيط لانه صدهم عن العبور .. »

ـ « ألا أعبره فى الزوارق والسفن ؟ »

ـ « لم يبق أمامك مذهب **ياچودى** ، لقد أخذ كل مكان . كلا ليس هذا أسوأ مافيه . ان فكرة التغريب قد ماتت فى نفوس الناس ، لم تعد هناك شهوة الى التغريب ، بعد أن انتهى كل شىء . ان أباك على حق ، وشبك أصابعه على ركبته وأخذ يتفرس فى وجوههم !

واغتم **چودى** غما شديدا وهو يقول : ان أردت يا سيدى كوبا من شراب الليمون ففى وسعى ان أهيئه لك . وكاد جده يرفض ولكنه آثر أن يوافقه وقال : والله انه ليحلو أن نتناول كوبا من الليمون الآن .. نعم انه ليحلو .

وأسرع **چودى** الى المطبخ حيث كانت أمه تمسح الصحفة الاخيرة من صحاف الافطار ، وسألها : هل لديك ليمونة لاصنع كوب شراب لجدى ؟ وابتسمت أمه محاكية وقالت : ليمونة أخرى لتصنع كوبا لاجلك أنت !

ـ كلا .. أنا لا أريد يا أماه .

ـ أنت مريض **ياچودى** ..

ووقفت فجاة وقالت بصوت وديع :

ـ خذ ليمونا من الثلاجة . وسأحضر لك العصارة ههنا .

ملاحظة

تمت هذه المجموعة من « ألوان القصة الصغيرة فى الادب الامريكى » ، وقد توخينا فى اختيارها أن تشتمل على مثال من كتابة كل أديب معروف من كتاب هذه القصة ، فلم تخل من آثار أحدهم الا لضرورة تقضى بها حقوق التأليف والترجمة ، وفيما عدا ذلك نرجو أن تكون المجموعة وافية بالدلالة على القصة الصغيرة فى الادب الامريكى ، من عصر الاستقلال الى العصر الحاضر .

عباس محمود العقاد

فهرس

صفحة

الادب الامريكى ٣
القصة الصغيرة ٩
الرواد ١٥
واشنطن ارفنج ١٧
ريب فان وينكل ٢١
ادجار الان بو ٣٩
الخطاب المفقود ٤٣
باطية النبيذ الشريشى « الامنتلادو » ٦٣
مارك توين ٧١
الضفدعة النطاطة المشهورة ٧٥
التابعون ٨٣
توماس بايلى الدريخ ٨٥
مارجورى داو ٨٧
جورج أد ١١١
ايفى هو يتسلى ١١٣
ويلا كاثر ١٢١
مسالة بول ١٢٣
ادنا فيربر ١٤٧
الشيخ مينيك ١٤٩
ستيفن فنست بنيت ١٧٥
الشيطان ودانيال وبستر ١٧٧
المعاصرون العالميون ١٩٧
وليم فولكنر : وردة لأميلى ٢٠٣
وليم شتاينبك : زعيم الشعب ٢١٥

الوان من القصص

قصة اليوم

الوان من القصة الصغيرة

فى الادب الامريكى

للكاتب الكبير

عباس محمود العقاد

فى هذه المجموعة الفريدة فى بابها ، اختار كاتب العرب الكبير الاستاذ عباس محمود العقاد طائفة من خير ماكتب فى فن القصص القصير على مر العصور المختلفة من بين روائع الادب الامريكى . وهى قصص اتخذت لها مكانها فى الآداب العالمية ، فنقلها بقلمه القدير الى اللغة العربية ، لتكون مثالا على تنوع المذاهب وتشعبها فى فن واحد من فنون الادب .

ولم يكتف الكاتب الكبير بذلك ، بل كتب مقدمتين نفيستين : احداهما عن الادب الامريكى عامة ، والاخرى عن فن القصة فيه .. وهاتان المقدمتان جديرتان بأن يؤلفا على حدة كتابا يضيف ذخرا جديدا الى المكتبة العربية .

ولم يكتف الكاتب الكبير بذلك أيضا ، بل كتب مقدمة قصيرة لكل قصة عن حياة ، كاتبها وظروفه وقيمته فى الادب .

هذا الكتاب الفذ الجامع هو الذى تهديه دار **أخبار اليوم** ، بالاشتراك مع **مؤسسة فرانكلين** ، الى قراء اللغة العربية ، فى هذا العدد من **قصة اليوم** .

طبعت بمطابع دار اخبار اليوم

٨ قروش

893.785
Aq26

BOUND
JAN 18 1956

COLUMBIA LIBRARIES OFFSITE
CU58891218
893.785 Aq26
Alwan min al-qissah